



يوسف التباعي

جفت الدموع

الجزء الثاني

النشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

فد الطريق الأبيض

تركت العربية ورائها دور دمشق ، وانطلقت براكيها في طريق بيروت ، وعبرت بضعة المقاهي المعلقة على يمين الطريق بمياهها المتساقطة من أعلى السفح ، وبدا مجرى النهر على اليسار وقد أحاطت به الأشجار وجرت مياهه ترتطم بالحصى والصخور .

وأخذ الطريق يتصاعد بين السفوح البيض .. وبدأت الجبال على جانبيه كأنما قد سكب عليها الحليب .. يبيضاء ناعمة بلا صخور ولا حصى ولا جروف ، فقد لفها الثلج بوشاح منبسط ممدود أخفى من وجه الأرض كل ما به من ندوب .. ولم يعد يرى من تنوعاته سوى منحنيات ملساء مبسوطة كأنها « الكريمة » تفرق سطح الحلوى .. أو الخمار الأبيض على وجه الحساء .

وبدت الأشجار على سفح الجبل وقد كلل الثلج هاماتها .. كأنما كللت بالزهر الأبيض .

وأحس « سامي » وهو ينطلق في ذلك الفراغ الأبيض النقي .. مخلصاً ورائه صور المدينة الشاحبة .. كأنما قد انفرجت عنه قضبان السجن .. وانحسرت عن أكتافه هموم المسئولية ، وانطلق يعدو بلا قيود ولا هموم .

وفتح زجاج النافذة بجواره فهبت منه نسمة باردة لفحت وجهه .. وملأ بها صدره ثم أطلقها في تهيدة طويلة .. أرخت أعصابه ، وفكت توتره .

والتفت إلى « هدى » فوجدها تنظر إليه باسمة وقد بدت قريرة ناعمة راضية .

وأطلق ضحكة قصيرة .. ومد يمينه فأحاطها بها وضمها إليه قائلاً :

— أخيرا .

وهمست وهي تسند رأسها على كتفه :

— أجل .. أخيرا .. أخيرا جدا ، أحس بأنى أجلس إليك .. ومتعتى
بجوارك .. تغلب خوفاً من فراقك .

— ألا يخطر ببالك الفراق ؟

— الآن ؟

— أجل .

— يساورنى من بعيد فأغفله .. وأغمض عنه عيني .. وأصم أذنى .. إلى
أحس بأيامنا طويلة ممدودة كذلك البساط الأبيض الذى يمتد أمامنا .. بلا أفق
ولا حدود .. الفراق أبعد من أن أفكر فيه .. ما زال أمامنا طريق طويل من
الثلوج . وما زال أمامنا بيت نرتبه ، وطعام نطهوه ، ومدفأة نوقدها .. وجلسة
لا ينتهى فيها الحديث إلا بالرقاد .. أشياء كثيرة ما زال علينا أن نفعلها سويا ، قبل
أن يقترب منا شيخ الفراق .

— لن يقترب منا أبدا .. إنه ينبج علينا من بعيد . دون أن يقدر على
الاقتراب .. إنه وهم فراق .. لا فراق .
— أكره وهمه ، وأكره نباحه .. وأكره كل ما يهدد به .

وعبرت العربة ميسلون ، وكانت الثلوج قد امتدت حتى وصلت إلى حافة
الطريق .. ولاح بعض الصبية يتقاذفون كرات الثلج ، ووقف حارس يلف
وجهه بالوشاح المخطط .. ويهر الصبية أن كفوا عن اللعب .

واستمرت العربة فى الانطلاق نحو الحدود حتى بلغت الجديدة ، ومرة أخرى
عاود « سامى » الإحساس بالخرج وهو يبصر بضع عربات تقف متعاقبة أمام
حاجز الحدود بجوار مبنى الجوازات .. وأحس بأن ثمة إجراءات تستدعى نزوله
وسيره وسط العربات ودخوله إلى مكتب الجوازات .

وأوقف العربة على جانب الطريق بعيدا عن العربات .. واتجه إلى المكتب وهو

يشد ياقة المعطف حول عنقه ويدفع بيديه في جيبه، وقد أحس بالريح الباردة تلمح وجهه، وتتلج أطرافه .. وكانت الثلوج قد تراكمت حول المبنى وغطت بضعة الأكواخ المحيطة به .. وامتدت حتى حافة الطريق .

وارتقى الدرجات القليلة ودخل الباب ليحتويه الدفء الذى أشاعته مدفئة الغاز التى توسطت الحجرة .. ووجد صفا من المسافرين يقفون أمام نافذة الموظف الذى انحنى فوق بضع أوراق وانهمك فى فحصها .

وكانت المرة الأولى التى يسافر فيها « سامى » بدون سائق .. وقد تعود أن يجنبه السائق فى كل مرة إجراءات المرور . كل ما كان يفعله « سامى » هو أن يجلس فى العربة .. ليتسلى بالقراءة ، أو ليتمشى حولها ليحرك قدميه ويشاهد المسافرين .

ولكنه فى هذه المرة عليه أن يقوم هو بنفسه بالإجراءات .. مع كل ما يحس به من حرج وخوف من أن يصادف أحد معارفه .. ومع جهله التام بما يجب أن يعمل .

وقبل أن يقترب من الموظف .. رفع الرجل رأسه .. وألقى نظرة على الصف الذى أمامه ، ثم عبره إلى « سامى » .. ولم يكذب عليه بصره حتى هتف :
— الأستاذ سامى .. أهلا وسهلا .

وانطلق لسان الرجل بكل ما يملك من آيات الإعجاب والتقدير .. ثم قفز من مقعده وأقبل عليه يصافحه فى لطفة وهو يكمل قوله :

— طالما تمنيت أن ألقاك من قبل .. تفضل .. تفضل .

وأحس « سامى » .. أن معرفة الرجل وإعجابه ، هو آخر شىء كان يمكن أن يتمناه .. وحاول جهده أن يهدئ الرجل .. فربت ظهره فى رفق وأجاب :

— هذه فرصة سعيدة لى .. ولكن لا أريد أن أشغلك عن عملك . .

— أبدا .. أبدا .. لا بد أن تشرب القهوة .

— أشكرك جدا .. ليس هناك وقت لها .

- كيف لا أجد وقتا للجلوس معك ، لينتظر كل شيء .
— ولكن معى بعض الرفاق .. ولا أريد أن أعطلهم .
— ليتفضلوا هنا .. سأذهب لأناديتهم .
— وقبض « سامى » على ذراع الرجل .
ينادى من ؟! أمجنون هو ؟!
وأجابه وهو يحاول جهده أن يكون لطيفا فى إجابته :
— شكرا .. شكرا .. لا داعى أبدا لأن تتعب نفسك .
— أنا فى خدمتك دائما .
— كنت أريد أن أنهى إجراءات المرور .
— ليس هناك أى إجراءات .. لا شىء سوى استمارة بليرة واحدة للفرد ..
وبخمس ليرات للعربة .
— وأين أجدهما ؟
— فى هذا الخانوت الصغير الذى أمام المكتب سأذهب أنا لشرائهما لك .
وكانت العربة تقف أمام الخانوت الصغير .. ولم يستبعد « سامى » أن يلمح
الرجل « هدى » وهى جالسة فى العربة .. وأن يعرفها وييدى لها من الإعجاب
والتقدير مثل ما أبداه له .
وكان المسافرون ما زالوا يقفون أمام مكتب الرجل فى انتظار إنهاء
إجراءاتهم .. ووجد « سامى » أنهم خير ما يستعين به لإبقاء الرجل فى مكتبه ،
فقال وهو ينظر إليهم :
— لا .. لا .. لست أريد أن تعطل مصالح الناس من أجلى .. إنى أستطيع
شراءهما .
وكان يتوقع أن يهتهم الناس من ضيقهم لتعطيل الرجل لهم .. مما يردعه عن
الاستمرار فى سبيل الترحيب والإعجاب .
ولكنه واجه ابتسامات ترتسم على وجوههم وسمع أحدهم يقول فى فرح :

— لسنا في عجلة .. نحن جميعا في خدمتك يا أستاذ .
إذن فهم أيضا يعرفونه .
ما شاء الله !؟ لم يبق غير أن يذهبوا كلهم معه لكي يروا « هدى » ويعرفوا أن
الأستاذ هارب بها إلى لبنان .
وقبل أن يفكر في خطة جديدة لمنع الرجل ، كان الرجل قد انطلق أمامه
متجها إلى الحانوت .
وعبر « سامى » الطريق وراءه إلى الحانوت .. وأخرج من جيبه الليرات
اللازمة لشراء الاستمارات .. واندفع إلى المكان الضيق الذى رصت فوق رفوفه
علب السجاير ولفافات الشاى .. ووضعت على أرضه أكياس البقول ..
وصفائح الزيت والزيتون ، واختلطت رائحتها جميعا برائحة الكيروسين
المتساقط من المدفأة .
ولم تطل وقفته مع الرجل فى الحانوت الدافئ .. وسرعان ما احتواه برد
الطريق مرة أخرى .
ووقف الرجل يودعه مصافحا .. و« سامى » يحجب عنه العربة ويحاول أن
ينهى الوداع بتوديع الرجل إلى مكتبه .. ولكنه أصر على أن يقف حتى تسير
العربة .
ولم يكن معقولا أن يقضى « سامى » يومه فى جدال الرجل ، ومحاولة إقناعه
بأن عمله أولى بوقته وأن الناس ينتظرونه .. ولم يجد بدا من أن يتركه يودعه
بالطريقة التى تحلو له .. فاتجه إلى باب العربة واتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة ..
وأخذ يدير المحرك .
وانحنى الرجل ملوِّحا بيده .. فلمح وجه « هدى » .
ومضت بضع ثوان .. لم يبد خلالها أنه مميّزا .. وأحس « سامى » بشيء من
الارتياح .. ورفع يده ملوِّحا للرجل .
وفجأة تبدلت ملامح الرجل وهتف :

— هدى نور الدين .. أهلا وسهلا .
واندفع محاولاً أن يصل إلى الناحية الأخرى من العربية ، ولكن « سامى » كان
أسرع منه بالانطلاق فى الطريق .. ووقف الرجل فاغرا فاه .. وهو يلوح بيده
ويصيح :

— هدى نور الدين .
وانطلق « سامى » بالعربة .. وقد تجهم وجهه .. ونظرت « هدى » إليه
متسائلة فى دهشة :

— ما هذا ؟

وهز « سامى » رأسه فى يأس قائلاً :
— مخبول .

— وماذا يضايقك منه ؟

— الفضيحة .. التى بدأ يثيرها الآن .
— أقد عرفك !!

— طبعاً .. أتظنينه قد أكرمنى كل هذا الإكرام من أجل سواد عينيّ .
— وعرفنى أنا أيضاً ؟

— هذا ما أعتقد أنه يؤكده لكل الموجودين فى نقطة الجديدة .

وهزت « هدى » رأسها وضحكت ضحكة قصيرة ساخرة :
— الفضيحة الأولى !!؟

ولم يجب « سامى » .. وبدا شارداً الذهن .

وأحست « هدى » بضيق يتملكها وعادت تتساءل :

— هل ضايقتك الرجل ؟

ونفخ « سامى » نفخة من أنفه وأجاب بقوله :

— يعنى ؟

ولم تعرف « هدى » حقيقة ما يعنيه بقوله « يعنى » وعادت تقول فى شيء

من المرارة :

— متأسفة .

وأحس « سامى » أنه قد ضايقها بتجهمه .. وكره من نفسه تلك الحساسية المفرطة للناس وأقوال الناس .

ولم يجد ما يجيب به عليها .. وعلى نفسه سوى قوله :

— لعنة الله عليهم أجمعين .. ليقولوا ما يريدون .

— على أية حال .. الحمد لله أن حدث الأمر .. فى نقطة الجديدة .. وليس فى

قلب دمشق .

وعبرت العربة المسافة بين حدود سورية وحدود لبنان .. ومرت بنقطة

الحدود اللبنانية .. فى سلام ، وما لبثت أن عادت تنطلق بين الثلوج البيض ..

التي كست الأرض .. فلم تترك سفحا ولا قمة إلا كللتها بالبياض .

وعادت السكينة تخيم على نفس العاشقين الهارين .. وتبدد القلق والضيق

الذى أمسك بخناقهما بعد نقطة الحدود .

وبدت الكروم الجرداء المعلقة على جانب الطريق .. وكأنها جبال الياسين

أو خيوط اللين .

وشرد ذهن العاشقين .. فسادهما الصمت حتى اقتربت العربة من شتورة ..

وبدت بيوتها .. وحوانيتها .. المرتبة الأنيقة على الجانبيين .

وهذا « سامى » من سرعة العربة قائلا :

— خير لنا أن نكمل العربة بالبنزين من هنا .

— أنا أيضا أريد أن أشتري بعض الخضروات والفاكهة والعلب المحفوظة التي

قد نحتاج إليها فى البلدة .. حتى لا نموت جوعا .

ووقفت العربة .. وملاً « سامى » الخزان بالبنزين .

ثم سأل « هدى » :

— ماذا تريدان أن أشتري لك ؟

وابتسمت « هدى » ، وأجابته :
— هذا ليس عملي .. سأشتري أنا من حانوت هناك .. يعرفني صاحبه
جيدا .. لأني تعودت أن أشتري منه كل ما أريد .
— هل من العقل أن تشتري من هذا الذي يعرفك جيدا ؟
— لا تخف .. إنه يعرفني وحدي .. ولا أظنه يمكن أن يميزك ، ثم إننا في
لبنان .. وليس هنا من يعنيه أمرنا .
— أتظنين هذا ؟!
وانطلق « سامي » مرة أخرى بالعربة .. وما لبثت « هدى » أن صاحت
به :

— هنا .. انتظرنى لحظة حتى أعود إليك .
— غير معقول .
والتفتت إليه « هدى » متسائلة في دهشة :
— ما هو هذا .. غير المعقول ؟
— أن تنزلي للشراء .. وأنت ما زلت متعبة .
— أنا لست متعبة .. والمفروض أن أسير بأمر الطبيب .
— ولكن ليس في هذا البرد .. ووسط هذا الثلج .
— ليس أحب إليّ من السير في الثلج .
وهبطت « هدى » من العربة ببطء .. ولف « سامي » إلى ناحيتها بسرعة
مادا يده ليساعدها على النزول والسير .
ووقفت « هدى » برهة مكانها .. وتساءل سامي في إشفاق .
— كيف تحسّين ؟
— كالحصان ..
وانحنت « هدى » إلى الأرض وجذبت بأظافرها حفنة ثلج كومتها في كفها
ثم بسطت بها يدها قائلة في مرح :

- أحب أن أطبق يدي على الثلج .
— تقذفين به الناس !؟
— بل أتحمسه بشفتي .
ورفعت قبضة الثلج ومست بها شفتيها .
ومد « سامي » كفه فأطار قبضة الثلج من يدها ، فصاحت به ضاحكة :
— غرت من الثلج !؟
— بل خفت عليه أن تصهره شفتاك .
— مغازل كبير !
— لقد تجاوزنا دور الغزل .
— أتظن هذا !؟
— أتريدين الحق !؟
— أجل .
— لا أظنني سأتجاوزه أبدا .. ما نظرت إلى وجهك إلا وأحسست أني أحب
أن أغازلك .. أنت دائما جميلة .
واجتاز الاثنان باب الخانوت الزجاجي .. وأقبل صاحبه الأشيب البدين
يرحب بهما في حرارة .. وصافح « سامي » باعتباره زوجها ، ولم تجد
« هدى » ما يدعو للنفي أو تصحيح معلومات الرجل ، فقد تركت غلظته في
نفسها إحساسا لذيذا ، ببداية حلم جميل .. وأخذت تنتقي من الرفوف
والثلاجة البيضاء العريضة .. ما تريد من أطعمة .. وبدأ « سامي » يشاركها
الاختيار .. وأخذ يحرص العلب والأطعمة وقد ملاءه المرح والحماس .. وأخذت
« هدى » ترقبه وقد ذهب عنها كل مظهر من مظاهر التكلف .. وتوتر
الأعصاب .. وأخذت تتصرف في راحة كأنها بين جدران بيتها .. وتملكها
إحساس بأن الرجل لم يخطئ حين ظنه زوجها .
ومدت يدها إلى كيس نقودها لتدفع الحساب ، ونظر إليها « سامي » نظرة

رأدعة .. أعادت النقود إلى كيسها وهمس بها .
— منذ متى تعوّدت السيدة أن تدفع الحساب في وجود الرجل ؟! ماذا
تريدين أن يظن بنا البائع ؟!
وضحكت « هدى » وهمست به :
— لن يظن بنا شيئا .. فالحساب دائما مع الزوجة .
— كان يجب عليّ إذن أن أعطيك النقود قبل أن ندخل الحانوت .
ومد يده بالنقود للرجل .. ثم حمل الأطعمة بمعاونة الرجل .. وكانت
« هدى » قد استقرت فوق أحد المقاعد بعد أن أجهدها الوقفة .
وعاد « سامي » ليمسك بذراعها حتى استقرت في العربة .
وبعد برهة .. كانت العربة تشق الطريق الصاعد إلى الجبل ، وقد انبسطت
الثلوج على مدى البصر . وبدأ على اليسار شريط سكة الحديد يشق طريقه في
الجرف بين الثلوج ، وعلى السفح المجاور بدا لاعبو الاسكى يتزحلقون فوق
الثلج ، وهم يتواثبون في مرح .
وأحست « هدى » بأن الدنيا كلها تمرح وتبتسم .. وأن الحياة بيضاء بقبة
صافية كهذا الثلج الذي لا تشوبه شائبة .

أجمل ما سمعته

بدأت العربة تقترب من صوفر .. ولاحت لسامى أشجارها الجرداء المكلفة بالثلوج على جانبي الطريق .. وقبل أن يصل إلى فندقها العتيد ذى الجدران الحجرية العالية الشبيهة بالقصور الفرنسية فى العصور الوسطى .. أخذت « هدى » تتلفت يمينها نحو المنحدر باحثة عن الطريق الفرعى الموصل إلى البيت .. وقالت لسامى وهى تمد عنقها من نافذة السيارة :

— تمهل قليلا .. فقد شارفت على البيت .

وخفف « سامى » من سرعة العربة .. ومدت « هدى » سبابتها مشيرة إلى مفترق طرق قائلة :

— أظن هذا هو المفترق المؤدى إلى البيت .

وزاد سامى من تباطئه حتى كاد يتوقف ثم قال ضاحكا :

— تظنين ؟ .. إن المسألة لا تحمل الظنون .. إذا لم تكونى واثقة ...

— ماذا نفعل ؟

— نتجه إلى الفندق وأمرنا الله .. فضيحة بفضيحة .

وأتمت « هدى » قائلة :

— وييدى لا بيد كاتب الجوازات .

وكانت العربة قد وصلت إلى مفترق الطرق ، فتساءل سامى .

— ما رأيك ؟

— اتجه يمينك .. إنه أكيد الطريق إلى البيت .

وانحدر « سامى » بالعربة يمينا .. و« هدى » تقول :

— كنت أعرف البيت بمعام كثيرة ، أخفى الثلج معظمها . ولولا هذا السور الحديدي .. لضللت عنه بلا جدال .

وبدت الثلوج وقد تراكت في الطريق المنحدر حتى كادت تسده .. وأخذ « سامى » يتلمس طريقه بين الثلوج و« هدى » ترشده في المنعرجات حتى أشارت له فجأة وهي تصيح :

— هنا .. انحرف يمينا ثم قف .. هذا هو البيت .

ووقف « سامى » بالعربة .. وتنفس الصعداء .. ثم نظر إلى حيث تشير « هدى » وتساءل في شيء من السخرية وهو يرى البيت غارقا في أكوام الجليد :

— بيت أم تلاجة !!

— انزل .. وكفى مزاحا .

— أتريدين أن نبني في هذا الكوم من الثلج !؟

— سيكون دافئا من الداخل .

— هل له داخل !!

— طبعا .

— وكيف يمكن أن نصل إلى هذا الداخل ؟

— نزيح الثلج المتراكم على الباب .

ونزل « سامى » من العربة وهو يضحك قائلا :

— هذه عملية تحتاج إلى أحد علماء الآثار .. أرجو أن تنتهى منها قبل حلول

الصيف .

ووقف برهة يتلفت حوله .. وكان البيت يقع على حافة الجرف المشرف على

الوادى الفسيح الذى يضم قرنايل وفالوغة وبقية القرى المجاورة .. ولم يكن

البيت كبيرا .. ولكنه كان أنيقا بسقفه المنحدر الذى كسته الثلوج حتى بدا كأنه

كومة من الثلج .. وقد أحاطت به مزارع التفاح والكريز المصفوفة على طول

الصفح .

ووقف « سامى » يفكر فى طريقة يزيح بها الثلوج المتراكمة أمام الباب .. ثم فتح حقيبة العربة وأخرج « الكوريك » وبدأ يستعمل قاعدته فى إزالة الثلوج ، وهبطت « هدى » من العربة متجهة إلى الباب لمعاونته .. ونظر « سامى » إليها وهو يقذف بأكوام الثلج بعيدا عن الباب وصاح بها محذرا :

— ابقى مكانك .. إياك أن تتعبى نفسك .

— لقد قلت لك إني أحب اللعب فى الثلج .

— هذا ليس لعبا .. هذا جد .

— دعنى أساعدك ولا تكن عنيدا .

ووقف « سامى » وهو يحمل « الكوريك » فى يده وقد تناثر الثلج على ملبسه .

— يا حبيبتى كوني عاقلة .. إنك خارجة من عملية لم يبيل جرحك منها

بعد .. وكان المفروض أن تكونى الآن راقدة فى فراشك .

— سنرقد كثيرا عندما نجتاز هذا الباب .. لن يكون أماننا بعد ذلك سوى

الرقاد .

وأقبلت تجرف بيدها أكوام الثلج وتقذفه بها ضاحكة عابثة .

وأصابت إحدى الكرات وجهه .. فأخذ يلحق الثلج بطرف لسانه وقال لها

ناهرا :

— أهذه أفعال ناس عقلاء ؟

وأجابت ضاحكة :

— أما زلت تصر على أننا عقلاء .. بعد كل هذا الذى فعلناه ؟!

وهز رأسه قائلا :

— معك حق .

ثم أمسك بقبضة من الثلج وقذفها فى وجهها قائلا :

— أنت تحبين الثلج على شفتيك .. ألم تقولى هذا ؟

ورفعت الثلج عن وجهها ثم أقبلت عليه تضمه إليها وقد أمسك بالكوريك ..
وضمت شفيتها إلى شفتيه في لهفة وهي تقول :

— عدت تغار من الثلج .. إني أحب شفتيك أكثر منه .

وأجابها وهو يضمها بيده الخالية :

— إن وجهك مثلج .. وأخشى عليك من البرد .. أريني المفتاح .. فلعلى

أفلح في فتح الباب .

وجذبت حقيبتها من العربة ثم مدت يدها بداخلها وأخرجت مفتاحا نحاسيا
وسلمته له .

ودفع به في ثقب الباب الخشبي ولفه فلم يجد صعوبة في إدارته داخل القفل .

وبدأ يهز الباب بيده فوجد الثلج ما زال يغلقه .. ونظر إلى « هدى » فوجد

علامات الإعياء تبدو على وجهها ، فترجع إلى الورااء بضع خطوات .. ثم سأل

« هدى » وهو يستعد لدفع الباب بساقه :

— يبدو أنه لا بد من استعمال العنف معه .. ما رأيك ؟

وابتسمت « هدى » قائلة :

— اكسره إذا شئت .

ورفع « سامي » ساقه ثم دفع به الباب دفعة شديدة .. فانفتح على مصراعيه .

وضحكت « هدى » قائلة :

— لم أعرف من قبل أنك « قبضاي » .. إن ساقك في منتهى القوة .

— « القبضاي » لا يحتاج إلى ساق قوية ، لأنه لا يجرى .

وقذف « سامي » بالكوريك داخل العربة ثم حمل « هدى » بين ذراعيه

قائلا :

— دعى لى كل شيء من الآن .. كل ما عليك هو أن تترقدى .. ساكنة ..

حتى أرتب البيت .. وأصنع الطعام .

وأجابت « هدى » وهي تمد شفيتها فتمس بها شفتيه :

— بلا خيبة .

— أتظنين هذه الأشياء التأفهة التي تقوم بها النساء تحتاج إلى مهارة ؟

— طبعا .

— كلام فارغ .. إنكن تحاولن أن توهمننا أن البيوت لا تدار بغير كمن .. لقد

ظلت أمى توهم أبى طوال حياته بأنها لو تركت البيت لحظة لانهار على رءوسنا .. ومات الرجل وهو واثق من هذا .. وهى اليوم تحاول أن تجعل الخدعة تنطلى علىى .. فتأبى إلا أن تدير حركة البيت بلسانها وهى فى فراش المرض .. ونحاول عبثا أن نجعلها تلزم الراحة .

ووضع « سامى » حملة فوق أقرب أريكة فى القاعة .. ووقف ينظر حوله

مستشكفا البيت .. ونهضت « هدى » بجواره قائلة :

— دعنى أريك البيت ، فأنا أعرفه جيدا ، هذه هى القاعة وعلى اليسار غرفة

نوم .. بفراش واحد .

— لا حاجة بنا لغيره .

— مفهوم . وعلى اليمين حجرة الطعام تؤدى إلى المطبخ ، وفى الواجهة حجرة

جلوس .. بها مدفأة وشرفة زجاجية تطل على الوادى .. وبين الحجرتين حمام ..

و .. ولا أظن هناك شيئا أكثر من هذا .. هيا بنا أريك أجمل منظر يمكن أن يقع

عليه بصرك .

وجذبتة من يده قبل أن يحاول المقاومة .. واجتازت به الباب المفضى إلى

حجرة الجلوس ، ونظر « سامى » إلى الحجرة فوجد فى مواجهتها بابا زجاجيا

عريضا يؤدى إلى الشرفة التى تطل على الوادى .. ووجد المدفأة على اليسار

وبجوارها فى ركن الحجرة « بيانو » قديم .. ونظر إليها قائلا :

— نسيت أن تذكرى أهم ما بالحجرة .. أم لعله عاطل ؟

— أبدا .. لقد عزفت عليه آخر مرة كنت هنا .

وأقبلت « هدى » على البيانو ورفعت غطاءه .. ثم أجرت يدها على أصابعه

يأحدي أغنياتها .. وضحك « سامى » قائلاً :

— أكيد .. إنه ليس عاطلاً .

واقترب الاثنان من باب الشرفة .. وأدار « سامى » المزلاج وفتح الباب .. فكادت أكوام الثلج المتراكمة خارجه تنهار داخل الغرفة لولا أن أسرع بإغلاقه .. وقالت هدى .

— لا داعى لفتحه .. البرد قارس .

— إن المنظر يبدو جميلاً من خلال زجاج الباب . إنه رائع .

وكان الوادى يبدو كطبق الصينى الأبيض وقد بدت فيه البيوت كأنها رغاوى الصابون .. وكان المنظر واضحاً بكل ما فيه من تفاصيل .. بصنوبره .. وطيات أرضه وتجاعيد جباله .. بقبابه وأبراجه .. وقد كستها طبقة الحليب الأبيض .

وحول « سامى » بصره من الزجاج إلى الوجه الرقيق المسنود على كتفه ، الشارد ببصره فى فسحة الوادى ، وهمس فى أذنها :

— جميل جداً .

— المنظر !؟

— بل وجهك .

— ظننت المنظر أعجبك !؟

— أعجبني ، ولكن وجهك يثير إعجابى أكثر من أى شىء .

— ألا يعجبك جمال الطبيعة ؟

— إعجابى بجمال الإنسان أكثر . ألم تقرئ قول الكاتب المصرى « ما ألد

الآدمى كالآدمى » .. ما قيمة هذا المنظر الرائع الذى يبدو أمامى بدونك ؟

— وما قيمته بدونك أنت !!

— إننا نمنح ما حولنا قيمة .. أكثر ما يمنحنا ما حولنا ، إننا دائماً مصدر

الشعاع المشرق .. تلك هى قيمة الإنسان .. الإنسان أقيم من أى شىء على ظهر

هذه الأرض .

— أى إنسان !؟

— لكل إنسان .. إنسان مخصوص ، وما من إنسان إلا ويجد توأما يحس بأنه ملاذه وملجأه .. ومشرق أمله .

— يجد توأما !!؟ أيكفى أن يجده فقط ؟

— ألا يكفى ذلك ؟

— أتظن مجرد وجوده .. بكاف أن يريجه ؟

— ما رأيك أنت ؟

— أحيانا أحس أن مجرد وجوده كاف ، وأحيانا أحس أن وجوده بغير امتلاك

عذاب أكبر .

— تؤمنين بأن هناك امتلاكا حقيقيا في هذا الوجود ؟

— ولم لا .

— نحن لا نملك حتى أنفسنا .. أعمارنا .. أرواحنا .. هباءة بين القدر ..

فكيف نؤمن بامتلاك الغير .. ونحن لا نمتلك أنفسنا ؟

— نمتلكه .. على الأقل بمدى امتلاكنا لأنفسنا . نمتلكه ما دمنا نملك أرواحنا

وأعمارنا .. ما دمنا أحياء .

وصمتت برهة ثم أطلقت تنهيدة حملتها بعض طابها من مرارة .. واستمرت

تقول :

— اللهم لا طمع .. إن وجوده خير من عدمه ، وامتلاكه بعض الوقت ..

خير من مجرد وجوده .. هيا بنا ولا تضيع من أيدينا بعض الوقت الذى نحاول أن

نمتلكه فيه .. هيا .

واستدار إليها .. وضمها بين ذراعيه وأحس بقطرات على وجنتيها .. لولا

سخونتها لظنها قطرات الثلج الذائب على وجهها .

والتصقت بصدره كأنما تخشى أن ينزعها أحد منه .. وأخذ يمس طرف أنفها

وعينها وهدبها بشفتيه ، واستقر في النهاية على شفتيها .. ومس أسنانها البيض المنظومة ثم حملها بين ذراعيه .. فأجلسها أمام المدفأة قائلا :

- إنك ترتجفين من البرد .
- عدت إلى غيابك !!
- أتتكرين أنك ترتجفين ؟
- من الحب أيها الغبي .
- من الحب أو من البرد .. لا بد أن أعمل على تدفئتك .
- فارق كبير بين وسيلتي الدفء في كلتا الحالتين .
- كيف ؟!
- ارتجاف البرد توقفه المدفأة .
- والحب ؟!
- توقفه أحضانك .
- سأوقفه بكلتا الوسيلتين .. سأوقد المدفأة وآخذك بين أحضاني .
- سأقوم لترتيب البيت .
- البيت لا يحتاج إلى ترتيب .. إني أحبه هكذا .
- سأساعدك في إحضار اللفائف من العربة .
- لست في حاجة إلى مساعدة .. سأحملها إلى هنا وأضع العربة تحت المظلة ، ثم أحضر الوقود .. وأعود إليك في بضع دقائق .
- وانطلق « سامي » إلى الخارج ، وتلفت « هدى » حولها ، فوجدت البيت في غير حاجة إلى ترتيب . كان نظيفا منظما .. وكل شيء في موضعه كأنه أعد لاستقبالهما .
- وسارت إلى حجرة النوم .. فوجدت الفراش مرتبا والملاءات بيضاء نظيفة ، والتسريحة قد صفت عليها زجاجات العطر وأدوات الزينة .
- ولم يكن يبلغ حسن ظنها نحو « علية » إلى هذا الحد . لقد بدا البيت كأنه قد

تركته منذ لحظات .. ولولا طبقة الأتربة الخفيفة التي تكاد لا ترى .. ولولا الثلوج المتراكمة خارج الباب لساورها الشك في أن تكون « عليه » قد سبقتها إلى هنا لإعداد البيت .

وخطر لها أن تخرج لمساعدة « سامي » ولكن كانت تعرف مبلغ عناده .. وخشيت أن تغضبه .. لأنها كانت تعرف جيدا مدى خوفه عليها .
وعادت إلى غرفة الجلوس .. وتملكها حنين إلى البكاء وهي تحس بحلمها الكبير يتحقق .. ولو لبضعة أيام .

وجلست أمام البيانو .. وعادت تحرك يديها على أصابعه البيضاء .. وأخذت تدندن بصوت خافت .. الأغنية التي يحب « سامي » أن تغنيها له دائما .
وكان « سامي » قد نقل اللفافات إلى المطبخ ، ووصلت إلى مسامعه دقائق الأغنية .. فوضع ما بيده على المنضدة وعاد متسللا إلى حجرة الجلوس .
ورفعت « هدى » عينها إليه وهي تحس به يتسلل وراءها وهمست :
— عدت سريرا !!

— جذبتني دقائق الأغنية .. فلم أحتمل البعد .

— أحب أن تسمعها !؟

— أحب أن أراك وأنت تغنيها .

— أنا لا أحب وجهي عند الغناء !

— ولكنني أعبد .. أعبد عينيك الشاردتين .. ورقبتك الممدودة ، ورأسك الذي يبدو كأنه يخلق في السماء .

— إني أحس بإنسان فرد .. أغنى له وحده .. وأرى صورته كالطيف .. يطوف بعيني الشاردتين .

وأحنى رأسه فمس مفرق شعرها وهمس بها :

— غنى يا حبيبتي .. واشردى ببصرك .. ومدى رقبتك .

— لن أشرد وأنت أمامي .. إني أفضلك على طيفك .

— غنى على أى وضع تريدين .
— اجلس هنا بجوارى حتى أراك .. اجذب هذا المقعد الصغير واقرب
منى .

وجذب « سامى » المقعد ولمح بجواره منصة صغيرة وضع عليها جهاز
تسجيل .. فمد يده وفتح الجهاز .. قائلا :
— لو كان به شريط ، لسجلت عليه الأغنية .

— إنى سأحضر لك تسجيلا جيدا بالأوركسترا كاملا .
— هذا سيكون تسجيلا خاصا .. سيكون خيرا من أى تسجيل للأغنية .
وفتح الجهاز فوجد به شريطا معدا .. وأداره فسمع بعض الأصوات .. ثم
بداية أغنية لأحد المطربين ، وتساءل قبل أن يعد الجهاز للتسجيل .

— أتغضب « على » لو أخذنا هذا الشريط !؟
— مطلقا . إنى أستطيع أن أعيده إليها ، بأى أغنيات تريد .
وأدار الجهاز .. معدا للتسجيل . وسحب المقعد وجلس أمامها .. واضعا
مرفقيه على ركبتيه . ساندا ذقنه على كفيه .. وهمس وهو يتطلع إليها فى شغف :
— هيا .

ومدت عنقها نحوه وقالت :

— قبلنى أولا .

ومد شفتيه فمس شفتيها .. وعادت تقول :

— قبلنى أكثر .. وأكثر .

وضمها إليه بلهفة وهو يهتف :

— يا حبيبتي .. لقد بت أفضل ما أريد فى هذه الحياة ..

بت أقصى آمالى .. ومنتهى آمالى .. لا أريد من حياتى شيئا أكثر من بقائك

وبقاء حبك .

وتهدت « هدى » وهى تقول :

— نفس ما أحس به .

ثم أخذت أصابعها تجرى على السطح العاجي الأبيض ..
ونظرت إلى « سامى » نظرات شاردة .. وبدأت تنددن .. ثم علا صوتها
رويدا رويدا ، وبدت كأن الصوت يخرج من شغاف قلبها لا من حنجرتها ..
وكأنها تخلق في الفراغ العريض الواسع المحيط بالأرض .

واستمر « سامى » يحدق في وجهها وعينيها .. حتى صمتت وتوقفت
أصابعها عن الدق ، وأحس بالدموع تسيل في سكون من مآقيا .. وتنساب على
وجنتها .

واقترب منها وضمها في رفق وهو يحس أنها توشك أن تذوب بين ذراعيه
وهمست به :

— أحبك ، ولا أريد أن أفقدك .

— أفقد روحى قبل أن أفقدك .. يا حبيبتى .. يا أعز الناس . هدى ..
أحبك .. أحبك .

وهمست به وهى تضمه في لطفة :

— سامى .. حبيبتى .. قل لى إني سأجده دائما عندما أناديك .. لا أريد أن
أناديك فيجيبني الصمت .

— سأرد عليك دائما .. دائما . ما دام فى نفس يتردد .. هدى .
— سامى .

وسمع صوت الشريط وقد انتهى وأخذ يلف حول نفسه . وصاحت
« هدى » في دهشة :

— أكل هذا قد سجل !؟

وابتسم « سامى » قائلا :

— طبعا .. أيسيتك هذا !؟

— يسيتنى أنا ؟ يسيتنى أن أحتفظ بأجمل ما سمعت في حياتى !؟ يسيتنى أن

أحتفظ بمناجاتك العذبة ؟! أجنون أنت ؟

وضحك سامى قائلا :

— إذا دعينا نستمع إليه .

وبدأ بإعادة الشريط .. وأخذ الاثنان ينصتان إليه فى لهفة وشغف .. حتى

انتهى التسجيل بهتاف كل منهما باسم الآخر .

وضمته إليها وهى تتحسس عنقه بشفتيها قائلة :

— هذا أجمل ما سمعت .

محرّكة حب

أغلقت «فايزة» الكتاب الذي كانت تتشاغل بقراءته .. وعادت تلف قرص التليفون محاولة الاتصال بسليم ، ودق الجرس بضع دقائق ثم سمعت صوت سليم : .

— ألو .

— صباح الخير .. أنا فايزة .

وأطلق «سليم» بضع نمنحعات يسلك بها زوره من حشرجة النوم وقال مرحبا :

— أهلا وسهلا .. كيف الحال ؟

— الحمد لله .. كنت أحاول الاتصال بك منذ ساعة .. فكان الخادم يقول

لي إنك نائم .

— فعلا .. إني لم أصح إلا منذ بضع دقائق .. لقد نمت متأخرا .

— يبدو هذا .. فقد حاولنا أن نتصل بك عبثا طوال ليلة أمس .

— نخير .

— كان الأستاذ سامي يريد أن يحدثك قبل سفره .

— سفره ؟ .. إلى أين ؟

— إلى بيروت .

— ولكننا كنا معا طيلة اليوم .. ولم يخبرني بشيء عن هذا السفر !

— أنا أيضا لم أعرف منه إلا في المساء بعد أن عاد إلى المكتب .

— في أية ساعة ؟

— لا أذكر بالضبط ، ولكنها على أية حال بعد التاسعة .

— ألم يقل لك لماذا سافر !؟

— لا .

— ألا تعرفين أنت ؟

— إذا كان لم يقل لي ، فكيف أعرف ؟

— أظن أن هناك أشياء كثيرة نعرفها دون أن نقولها لنا أحد !؟

— أنا لا أعرف أكثر مما يقول لي .

— ما علينا .. ماذا قال لك إذن ؟

— قال لي إنه سيسافر إلى بيروت صباحا في مسألة عاجلة . وأنه سيغيب

بضعة أيام .. ثم حاول الاتصال بك .. فلما عجز عن أن يجده .. كلفني أن

أنبئك بسفره ، وأرجوك أن تراقب العمل في الجريدة حتى يعود .

— هكذا !؟ بمثل هذه البساطة !!

وصمت « سليم » برهة ، لم تعرف فائزة خلالها كيف ترد على تعليقه .. ثم

أردف يقول :

— سبحان الله .. كان فيما مضى لا يرضى أن يترك مكتبه ساعة واحدة خشية

أن يضطرب العمل .

ولم تجب « فائزة » .

لم تعلق بكلمة واحدة كعادتها على سلوك سامي ، وتساءل سليم :

— لماذا تصمتين ؟

— وماذا أقول ؟

— اسمعي يا فائزة .. إن المسألة لا يمكن أن تقابل منك بمثل هذا الصمت

والتجاهل والبسلبية .

— أى مسألة ؟

— المسألة التي تعرفينها .. مسألة علاقته بهدى نور الدين .

وأحست « فائزة » بلسعة من الألم .. وأصابها شيء من الجزع وهى تسمع
« سليم » ينطق الاسم بصراحة ، فأجابت فى إشفاق :
— أرجوك .. لا داعى للحديث فى هذه الأشياء .

وصمتت برهة ثم استرسلت تقول :
— على الأقل فى التلفون .

— سأحضر إليك حالا .. مسافة الطريق .

وأنتهى « سليم » حديثه .. ووضعت « فائزة » السماعة ، ثم عادت تقلب
صفحات الكتاب بعينين زائغتين وذهن شارد .

وما لبثت أن ألقت الكتاب جانبا .. وتركت مقعدها وراء المكتب
الصغير .. واقتربت من المدفأة المعدنية .. التى تشع بالحرارة .. ونظرت من
زجاج النافذة ، ترقب كلبا يتسكع حول عربة طعام انهمك صاحبها فى « قلى
الكبدية وطعمية الحمص » ، وقد أخذ يستعين بجرارة الموقد على تدفئة كفيه .
وأخذ بصرها ينتقل بين العربة .. وعابرى السبيل من صبية تتواهب ..
وكهول تتاقل خطاها .

عاد قول « سليم » يتردد فى مسامعها « إن المسألة لا يمكن أن تقابل منها بمثل
هذا الصمت والتجاهل والسلبية » .

يقول هذا .. وكأنها طرف فى المسألة .. طرف مسئول .. يستغرب منه
الصمت والتجاهل ، ويتحتم عليه أن يتدخل بطريقة إيجابية لحلها .

ولكن ما قيمة أن يظن « سليم » هذا؟! إذا كان صاحب الأمر لا يكاد يحس
بأن المسألة تعنيها من قريب أو بعيد !

إنه لا يأتمنئها على أن تعرف أين يكون عندما يغيب ، حتى تستدعيه إذا ما
تأزمت الأمور .

كيف تستطيع أن تكف عن التجاهل .. إذا كان هو قد فرض عليها الجهل؟!
ولكن .. أتراها كانت تصبح أحسن حالا ، لو أنه منحها المعرفة وأنبأها

ببساطة أين يكون .. وماذا يفعل ؟ وكأن الأمر لا يمكن أن يسيئها أو يتخذش
مشاعرها .

لا .. لا .. إن إنكاره الأمر عليها خير بكثير من التسليم لها بمعرفته .
إنه اعتراف .. بأن لها أحاسيس خاصة .. يكره أن يجرحها .
اعتراف !؟

وأطلقت نفخة ساخرة من أنفها .
ما قيمة الاعتراف بأحاسيسها .. إذا كانت أحاسيسه هو تصبب إلى آخر
قطرة في قلب آخر .

ومع ذلك .. فهي لا تشعر بالغيرة .
وإنما تشعر بالخوف والقلق .. والجزع على هذا المعبود من أن يجرفه التيار ..
وتهوى به العاصفة فيتحطم .
لو أنه وجه أحاسيسه .. لمخلوقة يمكن أن تصونه وتشد أزره .. وتحفظ
قدره !!

حمقاء !؟

لو أنه فعل .. لكدف بها إلى قاع اليأس .. وجعل من مشاعرها حطاما .
إنها لا تغار من هذه المخلوقة .. لأنها تعرف أن حبها ولدومعه معول هدمه .
وأنه يحمل مع جرثومته المصل الواقي منه .. وأنه يحوى في باطنه أسباب
مصرعه .

ولكنها تخشى أن يصرعه قبل أن يصرع .. وأن يقضى على صرحه الأشم قبل
أن ينتهى .

وهي تتمنى لو استطاعت وقايته .. ولكنها لا تعرف كيف .. وهو يصر على
أن يضعها جانبا .. وكأن الأمر لا يمكن أن يعينها .. وهي تكره التدخل حتى
لا يشك في أنها طرف في معركة .. وأنها تصارع من أجل نفسها .. لا من أجله
هو .

وبعد كل هذه الأفكار التي تتصارع في رأسها .. تحس أن ثمة حقيقة لا تقبل الجدل .. وأمر واقعاً لا يحتمل المناقشة .. وهو أنها تحبه في إصرار و صبر وعزم .. وأنه ما من قوة هناك يمكن أن تثنيها عن حبه .. ما دامت هي كائنة .. وما دام هو كائناً .

وأحست بشيء من الراحة والعزاء وهي تستقر على هذه النتيجة .. واتجهت إلى المكتب بعد أن أحست لسعة المدفأة .. وطرق الباب وأقبل رئيس عمال المطبعة يحمل بيده مجموعة من التجارب متسائلاً :

— أين الأستاذ ؟

ومدت « فائزة » يدها لتأخذ الأوراق قائلة :

— دعها هنا .. وسأرسلها لك بعد ساعة .

— إني أريد أن أسأله عن بعض المقالات التي مضى عليها بضعة أسابيع وهي مصفوفة دون أن يأمر بإنزالها إلى المطبعة .

— هل أخذت رأى الأستاذ عابد سكرتير التحرير ؟

— قال لي أرها للأستاذ سامي .

— إذن دعها الآن .. هات لي التجارب التي تريد مراجعتها .

— ولكنها تعطل لنا الحروف .. إما أن تطبع أو نفكها .

وأجابت « فائزة » في ملل :

— قلت لك دعها الآن .. الدنيا لم تطر .

— أريد أن أقابل الأستاذ .

— الأستاذ غير موجود .

— متى سيحضر ؟

— لا أدري .

وتتم الرجل يبضع كلمات ضيق وتبرم ، ثم سلمها ما في يده من أوراق وأولاًها ظهره وانصرف .

ولم يكذب يخرج حتى أقبل الأستاذ « عابد » سكرتير التحرير وهز رأسه بالتحية ثم اتجه مباشرة إلى حجرة « سامي » وأطل برأسه من الباب ثم تساءل :
— ألم يأت الأستاذ بعد ؟!
وهزت « فائزة » رأسها دون أن ترفع بصرها عن الكتاب الذي حاولت أن تعاود قراءته .

واتجه إليها « عابد » وجلس على طرف المكتب متسائلا وهو ينظر إلى الساعة :

— لم يأت حتى الآن!! غير معقول .

وجذب آلة التليفون وهو يواصل الحديث قائلا :

— لماذا لم تسألني عنه في البيت ؟! قد يكون هناك ما عاقه .. إن والدته كانت مريضة منذ بضعة أيام .

وأغلقت « فائزة » الكتاب ثم مدت يدها ، فأعادت التليفون إلى مكانه
قائلة :

— إنه ليس في البيت .

— هل قال لك أين يكون ؟

— في بيروت .

— بيروت ؟! ما شاء الله .. وأنا هنا .. كالزوج آخر من يعلم .. أكثر على سكرتير التحرير .. أن يعلم بسفر رئيس التحرير ؟!

— لقد سافر فجأة .. وكنت أنت قد استأذنت في الانصراف مبكرا ، فلم أستطع إخبارك .. وطلب مني أن أرجوك التصرف في المسائل العادية .. وأن يسير كل شيء كما هو .. وإذا طرأ شيء غير عادي فيمكنك أن تستشير فيه الأستاذ « سليم » . إنه سيبقى في مكتبه طيلة مدة غيابه .

وهز « عابد » رأسه وقال وهو يغادر المكتب :

— لن نحتاج إلى سليم ولا إلى غيره .. كل شيء سائر على ما يرام ..

عشرون سنة والعجلة تسير في الجريدة لم يعطها شيء .. لو قذفوا بالمقالات إلى المطبعة لصفت الحروف نفسها ، وقفزت إلى ماكينة التصوير ، وخرجت الجريدة دون حاجة إلى مخلوق .

ورفعت « فائزة » بصرها إلى رأسه الكبير ، ذى الشعر الأكرت ، والحاجبين الثقيلين ، والجبين الضيق .. وبدا لها كأنه إحدى آلات الطباعة التى تدور بلا وعى .. كان دقيقا منظما ولكنه يكره التفكير .. إنه يعتبر الجريدة حروفا تصف وأوراقا تطبع لتخرج إلى الناس فى موعدها .. بصرف النظر عما تحويه من أفكار .

وكانت « فائزة » تعرف كيف يستفيد « سامى » من دقته وترتيبه وجلده على العمل .. دون أن يمنحه فرصة لإتلاف هذا العمل ، بتدخله بالتفكير أو الكتابة .. وإن كان « عابد » قد استطاع أن يغافله أحيانا ويطل من بين أعمدة الصحيفة ليبدى للقراء رأيا أو ليقول كلمة ، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة . ونظرت « فائزة » إلى الساعة فى يدها ، وقبل أن يساورها القلق لتأخر

« سليم » ، دفع الباب واجتازه إلى الداخل وهو يقول :

— تأخرت عليك !!

— نوعا ما .

ومد يده مصافحا ثم سار بها إلى حجرة سامى وهو يقول :

— تعالى .. لا بد أن نتحدث فى الموضوع بصراحة .. إني أعتبرك المسئولة

الأولى عن سامى .

ورفعت « فائزة » حاجبيها متسائلة فى دهشة ، وقد داخلها إحساس ممتع بأن بعض الناس يحسون بفرط قربها منه لدرجة تحملها مسئوليته .. وهتفت قائلة :

— أنا !!

— أجل .. اجلسى .

وانخذ « سليم » مجلسه أمام مكتب « سامى » وجلست « فائزة » على المقعد

المواجه للمكتب وهى تعاود التساؤل :

— أنا مسؤولة عنه؟! كيف؟

— لا أريد أن أدخل فى جدل معاد .. إني أعرف أن لك معزة فى نفسه ،
ولا أظننى فى حاجة إلى أن أقنعك أنه يمر بأزمة ، قد يعتبرها هو حبا ، وقد نعتبرها
نحن نزوة ، ولكن لا جدال فى أنها أزمة قد تعصف به ونحن فى حاجة إليه .. كنا
فى حاجة إليه .. بطريقة ما ، فهو ليس مخلوقا عاديا ، يمكن أن نتركه لهدى
بسهولة .. هل تعترفين بهذا أم لا ؟

— ثم ماذا؟!!

— قولى أولا .. نعم أم لا .

وأطرقت فائزة وهمست قائلة :

— نعم .

— وأنا لا أريد أن أناقش فى قدرتك على إنقاذه .. حتى لا نعود مرة أخرى إلى
الحلقة المفرغة التى تعودنا أن نجادل فيها .. ولكنى أسألك فقط .. أتضمنين عليه
بشئء يمكن أن يعيده إلى وعيه !

— كيف؟

— دعى هذا الآن .. لا نريد أن نناقش المسألة كيف تكون .. بل نريد أن
نناقش مبدأ قبولك إنقاذه .

— هل تظن أنى أتردد فى ذلك؟!!

— حسن .. هل تعددين بأن تبدلى كل ما تستطيعين .. على ألا يكون به طبعا
ما يسىء إليك ، أو يخدش كرامتك؟

وهزت « فليزة » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :

— سنتدبر الأمر سويا ، بشرط ألا نفترض افتراضات خاطئة .

— مثل؟!!

— كزعمك أنه يجبنى .

- لم أقل إنه يجبك .. ولكنى قلت إنه كان على استعداد لأن يجبك .
— ولا حتى هذا .
— إذن يستلطفك !؟
— لا داعى لأن تبني خطتك على افتراضات فى مشاعر لا يعرفها إلا هو .
— وأنت !؟
— ما أحسست قط بأنى أزيد بالنسبة إليه عن تابعة مخلصه له .
— كاذبة .. أنت تحسین دائما بأنك أقرب الناس إليه .
— فارق بين ما أحس أنا ، وما يحسه هو .
— وهو أيضا يحس بهذا .
— لنفرض أنه يحس بهذا !
— إذا فافعل شيئا .. لا تقفى هكذا مكتوفة اليدين ، ودافعى عن مصيرك .
— مصيرى أنا !؟
— أجل .. مصيرك كمحبة .
— تريد أن أخوض معركة من أجل نفسى ؟
— ليس من أجل نفسك .. بل من أجل نفسه ، ومن أجل مبادئه وعمله ،
وآمالنا فيه وإيماننا به .. من أجل كل الأشياء الطيبة الكامنة فيه ، والأهداف
السامية التى يعمل من أجل تحقيقها .. فهمت ؟
وأجابت « فائزة » بشيء من الحدة :
— طبعا أفهم .. أفهم جيدا .. لكنى لا أعرف ماذا أفعل .. أنا أحس أنى
عاجزة تماما .
— المحب لا يمكن أن يكون عاجزا .
— كلام .. مجرد كلام .. ما أحسست بعجزى كما أحسست به الآن ..
وأننى أحس به ينساب منى ، ومن نفسه .. كما ينساب الماء من بين الأصابع ،
وأنى على استعداد أن أضحى بكل شيء من أجله ، ولكنى لست على استعداد
(جفت الدموع — ج ٢)

- لأن أذهب إليها لكي أرجوها أن تتركه لي .
— لم يقل لك أحد أن تفعل هذا .
— إذن ماذا أفعل ؟
— كوني أكثر إيجابية في حبه .
— أرتمى على قدميه ؟
— بل خوضي من أجله معركة .. كافحي من أجله .
وهزت « فائزة » رأسها في يأس وقالت :
— الأحاسيس لا تكتسب بالمعارك .. كل شيء يمكن أن يكتسب
بالكفاح .. إلا الشعور .
— كل شيء يكتسب بالكفاح حتى الحب . أؤكد لك ...
ودق جرس التليفون ، فقطع « سليم » حديثه .. ثم رفع السماعة متسائلا :
— الو .. من ؟
وأجابته صوت متسائل :
— سامي ؟
— من يريده ؟
— أنا عبد الوهاب .
— أهلا وسهلا .. عبد الوهاب بك .. أنا سليم .
— صباح الخير يا سليم .. ماذا تفعل عندك .. وأين سامي ؟
— سامي .. سافر .
— سافر ؟ إلى أين ؟
— إلى بيروت .
— عجيبة !! لماذا لم يقل لي ؟
— سافر فجأة .. وسألني أن أقوم بعمله حتى يحضر .
— ومتى سيحضر ؟

- بعد بضعة أيام .
- وبدا الضيق في صوت عبد الوهاب بك وتساءل :
- لماذا لم يخبرني ؟! كان يجب ألا يسافر الآن .. ألا تستطيع الاتصال به ؟
- سأحاول .
- اسمع .. تعال إليّ الآن .. يجب أن ندير المسألة بسرعة .
- حاضر .
- أنا في مقر الحزب .
- سأحضر حالا .
- ووضع « سليم » الساعة .. وهز رأسه قائلا :
- ألا تعرفين أين ذهب في بيروت ؟!
- لم يقل لي .
- مشكلة .. إن عبد الوهاب بك يريد الآن .. سأذهب إليه لأرى ماذا يريد ثم أعود إليك .
- ونخرج « سليم » متجها إلى دار الحزب .. وعادت « فائزة » إلى مكتبها ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .. وهى تحس بعجز تام من أن تخوض تلك المعركة التى يسألها « سليم » أن تخوضها . من أجل .. حياها .

استدعاء

لم يمض أكثر من بضعة دقائق حتى كان « سليم » يقف بيباب حجرة « عبد الوهاب بك » يستأذن في الدخول . ورفع الرجل رأسه الأشيب ، ثم قال بصوته الأجهش :

— تفضل ...

وحياة « سليم » ثم اتخذ مجلسه بجوار المقعد الكبير الذى استقر الرجل فيه . وخلع الرجل منظار القراءة وألقى بالأوراق التى كان يفحصها جانبا ، ثم وضع منظارا آخر على يمينه واتكأ بظهره على المقعد قائلا :

— قلت لى إن « سامى » سافر إلى بيروت ؟!

— أجل .

— ظننته لا يستطيع أن يغادر دمشق لأن أمه مريضة .

— إنها مريضة فعلا .. ولكن يبدو أن أمرا طارئا استدعاه للسفر فجأة إلى

بيروت .

— أمرا لا نعرفه ؟ .. كان يجب أن يخبرنى أنا على الأقل .

— ربما كان أمرا عائليا .

— حتى هذا كان يجب أن يخبرنى عنه .. لقد تعود أن يستشيرنى فى كل شىء .

— أعتقد أنه لم يرد أن يزعجك ، فقد سافر فى الصباح الباكر ، ويبدو أنه لم

يعرف بأمر السفر إلا فى ساعة متأخرة من الليل .

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد إلى الأوراق التى نحاها جانبا ، وقطع « سليم »

الصمت متسائلا :

- أهنالك شيء أستطيع أن أقوم أنا به ؟
— أن تحضره حالا .
— ألا أستطيع أن أنوب عنه ؟
— فكرت في ذلك .. ولكن يبدو لي أنه لا بد أن يقوم هو بنفسه به .
— هل أستطيع أن آخذ فكرة عن الموضوع ؟
— طبعا .. لقد وصلني اليوم تلغراف من القاهرة يخبرونني فيه أن موعد عقد اللجنة التحضيرية للمؤتمر الآسيوي الإفريقي قد تحدد في أول الأسبوع المقبل ويطلبون أن يكون مندوبنا هناك على الأكثر بعد غد .. وليس أمامنا إلا اليوم وغدا لكي أبحث معه موضوعات اللجنة وأراجع معه الكلمة التي سيقولها باسم سورية في اللجنة .
وصمت « سليم » برهة ، وهو يحس أن الأمور تتعقد حول « سامي » .. إنه يستطيع أن يخمن سبب غيبته ، ولكنه لا يظن العثور عليه بالأمر اليسير .. وهو قطعاً لا يستطيع أن يعلن تخميناته هذه لأى مخلوق .. اللهم إلا « فائزة » . التي لا يظنها إلا أكثر منه عجزاً في الوصول إلى « سامي » .
وقال « سليم » ، وهو يحاول أن يكسب بعض الوقت :
— ظننت أن « سامي » قد اعتذر عن الذهاب .
— حاول أن يعتذر لمرض أمه .. ولم ألق عليه لاعتقادي أننا نستطيع أن نرسل أحد الإخوان بدلا منه .. وقد فكرت فعلا في إرسالك .
— وماذا حدث ؟
— حدثت بعض المناورات التي حتمت علىّ ضرورة إرساله هو بالذات .
وصمت الرجل ورفع « سليم » حاجبيه ، محاولاً إبداء عجبه .
وما لبث « عبد الوهاب » أن استرسل في حديثه موضحاً في لهجة يشوبها الاعتذار :
— لا أقصد بالطبع أن واحداً منكم يقل عنه كفاءة .

- وابتسم « سليم » قائلا :
- لو كان الأمر بيدى أنا .. لما اخترت غيره .. أنا أو من بصفاء ذهنه وترتيبه
وذكائه .. وفرط إخلاصه .. وشدة جلده .
- مع ذلك فقد كنت على استعداد للتجاوز عن إرساله .. رغم إيماني أنا أيضا
بكل ما ذكرت فيه .. بعد أن أحسست أنه غير متحمس للذهاب .. لولا أنى
أحسست أن إرساله قد أضحى مسألة كرامة .
- وزادت دهشة « سليم » وتساءل قائلا :
- كرامة مَنْ ؟
- كرامتنا نحن .
- كيف ؟
- إن الشيوعيين لا يريدون سفره .
- وله ؟
- لأنهم يعرفون خصومته لهم .
- وما لهم هم بالمؤتمر ؟
- إنهم يريدون له حماسة زائدة .
- عجيبة ؟! وما سر هذه الحماسة ؟
- نفس حماستهم للسلام .. أتعرف منظمات السلام ؟
- أجل .
- إن المفهوم أن لجان السلام فى البلاد الشيوعية هى نفسها لجان التضامن
الآسيوية الإفريقية .. وقد سبق أن عقد مؤتمر آسيوى فى نيودلهى .. دعت إليه
لجنة السلام فى الهند منذ بضعة أعوام .. وقد قرروا فى هذا المؤتمر عقد المؤتمر التالى
على نطاق آسيوى إفريقى .. فى القاهرة .
- وما لنا نحن ، وهذا المؤتمر ؟
- لأنه مؤتمر تضامن للشعوب الآسيوية الإفريقية .

— تنظمه لجان السلام الشيوعية ؟

— أيا كان الذى ينظمه .. إننا نؤيد مبادئه وأهدافه ونؤمن بما يمكن أن يحققه التضامن الآسيوى الإفريقى .. وما تجربة مؤتمر باندونج بعيدة .. ثم إننا يجب ألا نكفر بالمعانى الطيبة لمجرد كفرننا بالناطقين بها .. فمن غير المعقول ألا نؤمن بدعوة السلام لأنها نابعة من مصدر شيوعى .. إن من واجبنا أن نشارك فى كل دعوة طيبة .

— حتى لو كانت ستاراً لبث مبادئ معينة ؟!

— واجبنا فى هذه الحالة يصبح أكثر حيوية حتى نخلص الدعوة الطيبة من كل ما يشوبها ، وحتى نجعلها تسير فى طريقها الحقيقى بدلا من أن تكون مطية .. لهذا المبدأ أو ذاك .. ؟!

— أجل .. معك حق .. لا يجب أن ننصرف عن دعوة السلام لأن منظمات شيوعية تدعو إليه ، بل أن نؤكد دعوة السلام من أجل السلام .. وأن نستفيد من كل جهد يؤيد الدعوة أيا كان مصدره .

— كذلك التضامن الآسيوى الإفريقى .. إننا نؤمن بأهدافه .. نؤمن بأن الشعوب التى تشاركت الآلام والآمال ، والتى تقاوم المستعمر الذى يستغل أراضيها وينهب مواردها .. يمكن أن تتضامن من أجل استرداد حريتها وتحقيق رخائها .. من أجل هذا يجب أن نؤيد دعوة التضامن ، ونؤكد أنها للتضامن لا لغيره .. وألا نسمح لأحد أيا كان أن يستغلها .

— ومن أجل هذا تريد أن ترسل سامى ؟

— ومن أجل هذا أيضا .. لا يريد الشيوعيون هنا أن يرسلوه .

— لأن الدعوة حكر لهم ؟!

— جائز .

وصمت « سليم » برهة .. ثم نهض واقفا وهو يقول فى إصرار :

— سأحضره لك .. أنها كان .

— غدا؟! —

— على الأكثر .

وغادر « سليم » الحجرة .. وانطلق إلى الخارج .
ومضت الساعات وهو يحاول عبثاً أن يعرف أين ذهب سامى وأخيراً عاد إلى
الجريدة .

وأبصرت « فائزة » علامات القلق والاهتمام في ملامحه فتساءلت :

— خيراً ؟ لماذا طلب سامى ؟

— يريد أن يرسله بعد غد إلى القاهرة .

— في اللجنة التحضيرية؟! —

— أجل .

وهزت « فائزة » رأسها في أسف وقالت :

— كدت أذكره بها قبل أن يرحل .

— ولماذا لم تفعل؟! —

— لم أتصور أنه يمكن أن ينساها .

— إنه تناساها !

— لم تكن هناك فائدة إذا من محاولة تذكيره بها .. اللهم إلا إخراجها ..
وكسفتى .

وجلس « سليم » على مقعده .. وحاولت « فائزة » أن تعود إلى حجرتها ؛

ولكن « سليم » أشار لها إلى المقعد وهو يسحب آلة التليفون قائلاً :

— اجلسى .. إني في حاجة إلى معونتك .. لا بد أن نحضر سامى بأى وسيلة

ومن أى مكان .

وبدا الضيق على وجه « فائزة » . وهى تتصور هذا الـ « أى مكان » وقالت

وهى تحاول أن تهتم بالانصراف مرة أخرى :

— وماذا أستطيع أن أفعل؟! —

— تساعديني .. اجلسي .
وجلست « فائزة » وأمسك سليم بالسماعة .. وطلب الترنك قائلا :
— أعطني بيروت .. مكالمة شخصية عاجلة .. للأستاذ سامي كرم .. في
الكابيتول أو برستول أو سان جورج .
والتفت إلى « فائزة » واسترسل يقول :
— لا أظنه سينزل في الجبل وسط كل هذا الثلج .
ولم تجب « فائزة » واستمر « سليم » يقول :
— لقد تعودنا أن ننزل سويا في الكابيتول .. ولكن من يدري ربما قد غير
مزاجه .

وعاد « سليم » يتحدث عاملة التلفزيون :
— أجل مستعجل .. لأجل رقم ٢١٤٠٧ .
ووضع « سليم » السماعة .. ثم وجه القول إلى « فائزة » متسائلا :
— لماذا لا نسأل عليه هناك !؟
وحاولت « فائزة » التجاهل فتساءلت متغابية :
— هناك أين !؟
— عندها .. صاحبة الصون والعفاف .
وبدا الضيق على وجه « فائزة » ولاذت بالصمت .
وعاد « سليم » يسأل :
— ما رأيك !؟
وأجابت « فائزة » في عناد الصبية :
— ليس لي شأن بهذا الأمر .
— إذا سأسأل أنا .. أتعرفين الرقم ؟
وهزت « فائزة » رأسها قائلة :
— لا .

وحاولت « فائزة » مغادرة الحجرة ، وتضاحك سليم قائلاً :
— ما الذى يخيفك؟! إنها « لا تعض » فى التليفون .
وأمسك الدليل وأخذ يبحث عن الرقم قائلاً :
— هدى .. هدى .. هدى نور الدين .. هذا هو الرقم .. أرجو ألا يكون
قد تغير .

ووضع الدليل جانباً ثم أدار القرص بالرقم ، وبعد بضع دقائق سمع صوت
« أم حبيب » يتساءل :

— الو .. من ؟

— من فضلك نحن نريد الأستاذ سامى فى مسألة ...

— الرقم خطأ .

وقبل أن يتمكن « سليم » من تكلمة حديثه .. سمع صوت السماعه توضع
على التليفون .

وهز « سليم » رأسه قائلاً :

— امرأة متمرّنة .. لم تؤخذ بالمفاجأة .

نحاول مرة أخرى .

وأدار القرص .. ورفع السماعه .. وطالت الدقات هذه المرة .. وبدا كأن
العجوز قد صممت ألا ترد .

واستمر الجرس يندق .. حتى ضاقت به .. فرفعت السماعه متسائلة فى
غضب :

— من؟!!

— نحن المسرح .

— السيدة غير موجودة .

— متى تعود؟!!

— لا نعرف .

- وأين ذهبت !؟
— لا نعرف أيضا .
— ألم تذهب إلى بيروت ؟
وردت العجوز في تبرم :
— لماذا تسأل إذا ما دمت تعرف أنها ذهبت إلى بيروت ؟
— أريد أن أعرف أين ذهبت في بيروت .. إن لدينا طلبا عاجلا لها .
— لا أعرف .
— إنها مسألة خطيرة .
— خطيرة .. خطيرة .. ذنبها على جنبها .. ماذا أفعل لها .. إنها لم تعد بعد صغيرة .
— ولكنها ستتضايق لأننا لم نتصل بها .
— لقد قالت لى إنها لا تريد أن يتصل بها أحد .. هي المسئولة .
ودون أن تجيبه العجوز .. وقبل أن تسمح له بكلمة أخرى .. أنهت المحادثة وأغلقت الخط .
ووضع « سليم » السماعية وهز رأسه في حيرة .. ثم قال كأنه يحدث نفسه :
— كان يمكن أن تدلنا عليه .. فلا بد أن تكون قد سافرت معه .. إنه يتصرف بدون عقل كأني به قد جن .. هذا الأحمق المأفون .
وعاد « سليم » يقلب في دليل التليفون وقد شرد ذهنه ..
وبعد برهة تتم قائلًا :
— لماذا لا نطلب المسرح .. لعلهم يعرفون عنها شيئا .
ولم يطل به البحث في الدليل حتى عرف الرقم وأدار القرص وورد عليه صوت غليظ متحد كأنه يتصارع في التليفون :
— من ؟
— السيدة هدى موجودة ؟

— لا .

— أين أجدها ؟

— اسأل عنها في بيتها .. إنها لم تأت من مدة .

— هل أستطيع أن أحدث أحدا من زملائها ؟

وأجاب الصوت في لهجة ضجر :

— يا أستاذ لا يوجد أحد هنا

— متى يحضرون ؟

— في المساء .

ووضع « سليم » السماعة قبل أن يغلقها الرجل في وجهه .. وقال في يأس :

— غير معقول .. يذهب هكذا دون أن يخبر أحدا عن مكانه .. هب حادثا

قد وقع في البيت .. وهو يعرف أن أمه مريضة .. ونوبات القلب قد تفاجئها في

أى وقت .. غير معقول أبدا .

تمط

خطر بيال « سليم » أن يسأل عن « سامى » فى البيت .. وقبل أن يمد يده ليرفع السماعة دق جرس التليفون وسمع صوت العاملة تسأل :

— أطلبتم بيروت ؟

— أجل .

— تريدون الأستاذ سامى كرم !؟

وعاد « سليم » يقول فى لهفة :

— أجل .. أجل .

— لم نجده فى أى مكان .

— أسألت فى الكايبتول ؟

— وبرستول وسان جورج .. أى خدمة أخرى !؟

— شكرا .

وضع السماعة فى يأس .. ثم عاد يطلب البيت .. وردت عليه الخادمة فسألها

عن « سامى » .

فأجابت بأنه قد سافر .

وعاد يسألها :

— إلى أين !؟

وقبل أن تجيبه .. سمع صوت « أم سامى » تسأل صائحة :

— من الذى يتحدث !؟ .

— سيدى سليم بك .

وبعد لحظة سمع صوت « أم سامى » يتساءل فى جزع :

— خير !؟ ماذا حدث « يا سليم »!؟

— لا شىء .. إنى فقط أسأل عن « سامى » .

— ألم يخبرك أنه سافر إلى بيروت .

— لا .

— عجيبة !! لقد ظننت أنك سافرت معه !

— كنت مشغولا بالأمس فلم أره .

— لقد قال إن هناك أعمالا تستدعى سفره .

— ألم يخبرك أين سينزل !؟

— ومنذ متى كان يخبرنى .. إنه لا يحدثنى عن شىء أبدا . وقد طال سهره فى

الأيام الأخيرة حتى بت أحشى على صحته . إنه يرهق نفسه كثيرا بالعمل .

— فعلا .. إننا نمر بأوقات عصبية .

— ولكن صحته لن تحتمل هذا الإرهاق .. إنه ...

وأحس « سليم » أنها ستدخل فى حديث طويل عن « سامى » وصحته

وزواجه .. الحديث المعاد الذى سمعه منها عشرات المرات .. وكان « سليم » قد

عوّدها أن ينصت إليها دائما .. ولكنه أحس أن الوقت الذى يصرفه فى البحث

عن سامى .. سيكون أجدى عليه من الإنصات إلى شكوى أمه من سوء

صحته .. فلم يجد بدا من مقاطعتها قائلا :

— وكيف صحتك أنت !؟

— تزداد سوءا يوما بعد يوم .

وقبل أن تنطلق فى الحديث عن سوء صحتها قاطعها قائلا :

— سأحضر لزيارتك والاطمئنان عليك .. لقد أبلغنى سامى أنك ترهقين

نفسك .. ألا تريدین أى خدمة !؟

— شكرا .. ربنا لا يحرمنا منك ، عندما يحضر سامى سأخبره أنك سألت

عنه .

ووضع « سليم » السماعه وهو يقول لنفسه :
— لا بد أن أعثر عليه .. غير معقول أن يحتفى هكذا .. غير معقول أبدا .
ونظر إلى « فائزة » وهو يقول في يأس :
— ما العمل !! ليس أمامى إلا أن أذهب إلى بيروت لأبحث عنه في كل مكان
يمكن أن يأوى إليه .. أتأتين معى !؟

— أنا ؟ غير معقول !

— لماذا ؟

— لأنى .. لأنى .. لا يمكن أن أسمح لنفسى بمطاردته .

— مسألة كرامة !؟

— سمها كما تشاء .. ولكنى لا أتصور .. أن أذهب وراءها .

— هما ؟ ماذا تقصدين بهما !؟

— لا شيء .

— هل تعتقدين أنهما سافرا سويا !؟

وهزت « فائزة » رأسها في ضيق وقالت :

— لا أعتقد شيئا .

وقبل أن يرد « سليم » دفع الباب ، وأطل وجه « فؤاد عبد الجبار » النائب

ذى الميول الشيوعية وقال ضاحكا :

— حاولت أن أستأذن السكرتيرة فى الدخول .. ولكن لم أجد أحدا .

ونفضت « فائزة » ومدت يدها للتحية وقد بدا عليها الارتباك ، وقال

« سليم » وهو يرد على نظرات فؤاد الوقحة فى شىء من التحدى :

— كنا نتحدث فى موضوع السفر إلى القاهرة للمؤتمر الآسيوى الإفريقى .

— حقيقة ؟. لقد أتيت أنا للتحدث فى نفس الموضوع . سمعت أن جدول

أعمال اللجنة التحضيرية قد أرسل إلى الأستاذ سامى .. هل أستطيع أن أحصل

على صورة منه ؟

ونظرت « فائزة » إلى « سليم » متسائلة كيف تتصرف ؟

ورفع سليم حاجبيه في دهشة متسائلا :

— جدول أعمال اللجنة ؟ وما لك أنت به ؟

ونظر فؤاد إلى سليم نظرة متحدية وأجاب :

— لأنى سأسافر بعد غد لأمثل اللجنة .

— أنت ؟

— أجل .. لقد رشحت للسفر .. لديك اعتراض ؟

— طبعاً .. لأن سامى هو الذى سيسافر .

وفجأة انطلقت قهقهة من فم فؤاد ، ونظر إليه سليم فى غيظ وسأله :

— ما الذى يضحكك ؟

— الظاهر أنك على نياتك جدا .

— ماذا تقصد ؟

— سامى سيسافر لحضور مؤتمر التضامن للشعوب الآسيوية الإفريقية ؟

وانطلق فؤاد يقهقه فى سخرية مرة أخرى .

ونظرت إليه « فائزة » فى غيظ وأشاحت بوجهها عنه إلى « سليم » وسارت

متجهة إلى مكتبها . وصاح به « سليم » ناهرا إياه :

— كف عن هذه القهقهة السخيفة .. وقل ما تقصد ؟

وعاد فؤاد يردد :

— سامى يسافر من أجل مؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى؟! إن لديه

تضامنا من نوع آخر .. يمارسه الآن فى بيروت .. قواه الله .

وضغط « سليم » على نواجذه وقال له وهو يحاول أن يضبط أعصابه :

— احترم نفسك يا فؤاد .. وكف عن هذا الهراء الذى تهذى به .. إن

« سامى » سيسافر إلى القاهرة لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر التضامن .

ورد فؤاد في عناد وإصرار :

— إن سامى لن يذهب يا أستاذ .. لأنه مشغول فيما هو أهم من التضامن الآسيوى الإفريقي .. مشغول مع هدى نور الدين .. لقد قرّ بها هذا الصباح إلى لبنان .

— أنت كاذب .

— أتجب أن أحضر لك من شاهدهما هذا الصباح في نقطة الجديدة .. لقد رأهما عباس مروان الصحفى .. وهما يعبران الحدود في عربة « سامى » .. الدنيا كلها تعرف ذلك . أما زلت مصر اعلّى أنه سيذهب إلى القاهرة لحضور اللجنة التحضيرية ؟

وكانت « فائزة » تجلس في مكتبها في الخارج وقد بدا عليها الألم واليأس وهى تنصت لكلمات فؤاد التى أخذت تندفع من فمه كالطلقات النارية .. لقد كانت تحس أن شيئاً من هذا لا بد قد حدث .. ولكنها تمنّت أن يبقى مستترا . ولم تعرف كيف ينوى أن يتصرف سليم .. وأخذت تنصت لما يوشك أن يرد به .

ومضت برهة قبل أن يستطيع « سليم » أن يلم أعصابه ثم قال فى هدوء :
— اسمع يا فؤاد .. سامى سيذهب إلى اللجنة التحضيرية . فأرح نفسك وكف عن هذا الضجيج الذى تحدّثه والإشاعات التى تنثرها .
— إشاعات !! أما زلت تصر على أنها إشاعات ؟
— أجل .

— إذا أتحدّك أن تجعله يذهب إلى اللجنة .

— أتحدّك أنا .. إنه سيذهب .. أما زلت تريد شيئاً ؟

— أريد جدول أعمال اللجنة .

— لن تأخذه .

ورفع حاجبيه وتساءل فى حنق :

- هكذا ؟
- أجل هكذا .
- انقعه واشرب ماءه .. سأعرف كيف أحصل عليه من أى مكان آخر .
- واستدار فؤاد وغادر المكان دون أن يلقي على أحد كلمة تحية .
- ولم يكذب يغادر الباب .. حتى نادى سليم قائلاً :
- فائزة .
- واقتربت « فائزة » من مكتبه فى خطوات متناقلة وقد بدا عليها الأسى .
- وفى لهجة حزم وإصرار قال لها :
- سأذهب إلى بيروت .
- لتضرب فيها على غير هدى !؟
- لا بد أن أجدّه .. سأمر قبل ذهابى على بيت « هدى » .
- وتساءلت « فائزة » فى دهشة :
- بيت هدى ؟
- أجل سأقابل هذه الخادم العجوز .. وسأحاول أن أعرف منها أين ذهبت .
- سيدتها .
- أتظن أنها تعرف ؟
- أعتقد ذلك .
- وستخبرك ؟
- محتمل .. إذا قلت لها السبب بكل صراحة .
- وفى الصباح انطلق « سليم » فى عربته متجهاً إلى بيت « هدى » .
- وبعد بضع دقائق كان يدق جرس الشقة .
- وفتحت « أم حبيب » الباب ثم نظرت إليه فى تساؤل قائلة :
- نعم !؟
- أنا سليم جبرى .. صديق سامى .

- أهلا وسهلا .
- هل أستطيع أن أتحدث إليك بضع كلمات ؟
- ونظرت « أم حبيب » في تشكك وتساءلت :
- من أجل ؟
- من أجل سامي .
- وما لي أنا به ؟
- أرجوك .. إنه في مأزق وأنا أريد أن أحصل عليه بأية وسيلة .. إنها مسألة خطيرة .
- وكيف أعرف أين هو ؟
- أنا أعرف أنه سافر مع السيدة هدى إلى بيروت ولا بد أن أتصل به لأحضره لأمر هام جدا .
- ونظرت إليه المرأة نظرة فاحصة .. وأحست منه نوعا من الطمأنينة فأفسحت له الطريق إلى الداخل قائلة :
- تفضل .
- وخطا خطوتين إلى داخل القاعة .. وأغلقت العجوز الباب وهي تشير إلى أحد المقاعد قائلة :
- اجلس .
- إنني في عجلة .. ليس هناك وقت .. لا بد أن أسافر الآن إلى بيروت .
- ولكن ...
- وصمتت العجوز برهة وعاد سليم يتساءل :
- لكن ماذا ؟
- ولكن ماذا ستقول سيدتي إذا عرفت أنني أعطيتك العنوان ؟
- لن أخبرها أنني عرفت منك .
- إنها ليست بلهاء .. إنها تعرف أنني الوحيدة التي تعرف مكانها .

وصمتت العجوز برهة ، و حار « سليم » .. ماذا يفعل بها ؟ ولكنها ما لبثت أن رفعت رأسها قائلة وهي تتحدق فيه :

— اسمع .. من أجل سيدى سامى سأخبرك بما تريد .. إني أحبه وأكره أن أتسبب فيما يضايقه .. أو يؤذيه .. ولكن كيف أثق فيك ؟

— ألم تثقى فى حتى الآن ؟

— لقد أحسست بأنك إنسان طيب .

— إذا قولى وأمرك إلى الله .. وأؤكد لك أنك لن تندمى .

— لقد ذهبت السيدة إلى صوفى فى بيت السيدة « علىة » الراقصة .. وقد سمعتها تقول إنه على السفح قبل الفندق .

— فى صوفى !! أوثقة أنت ؟!

— طبعا .

ومد سليم يده يهز يدها شاكرا وهو يقول :

— شكرا .. لن ينسى لك سامى هذا الجميل .

وأطلقت العجوز نفخة ساخرة من أنفها وقالت :

— أرجو أن يكون جميلا حقا .

وتركها « سليم » واندفع يهبط السلم ، وبعد لحظات كان يتطلق بالعربة فى

طريق بيروت .

حرية الأبناء

أمسك « سامي » كف « هدى » وأخذ يتحسسها بشفتيه قائلاً :
 ـ أما زلت تحسین بالبرد ؟
 ـ قليلاً ..

وكانت « هدى » تتمدد على أريكة منخفضة في غرفة الجلوس ، وقد جلس
 « سامي » أمامها ، وأشارت « هدى » إلى مدفأة كهربائية وضعت في ركن
 الحجرة قائلة :

- ـ قُرب هذه المدفأة .
- ـ ليس في سلكها طول يسمح بتقريبها .
- ـ لعل هناك بريزة في مكان قريب ؟
- ـ لا أظن .
- ـ إذن نقرب نحن منها .
- ـ أجز الأريكة ؟
- ـ بل نجلس نحن على السجادة بجوارها .
- ـ ونهضت « هدى » .. فجلست على حرف السجادة الحمراء بجوار المدفأة
 وأشارت لسامي قائلة :
- ـ أجل .. هنا تحس بالدفء جيداً .
- ـ ولكن « سامي » ظل واقفاً في مكانه .. وهو ينظر إلى المدفأة الحجرية
 المواجهة للأريكة متسائلاً :
- ـ لماذا لا نوقد هذه المدفأة ؟

— تحتاج إلى حطب وجهد .. تعال .. تعال .
— إلى أحب منظر النار بألسنتها الحمراء المتراقصة في جوفها .. إن منظرها
يوحي بالدفء أكثر من هذه المدفأة الجامدة .. سأذهب لأبحث عن حطب في
المطبخ .

وذهب « سامي » إلى المطبخ ووقف يبحث حوله عن وقود .. ولكنه لم يجد
سوى المنضدة والأرفف والثلاجة وموقد الغاز .. وفتح باب المطبخ المؤدى إلى
الحديقة .. بعد أن دفع الثلج المتراكم خلفه .. وأحس بلسعة البرد تلمح وجهه ..
وخطا بضع خطوات فوق الثلج بعد أن ضم أطراف السترة الصوفية حول
صدره .. واتجه إلى حجرة خشبية منخفضة ملاصقة للمظلة التي وضع العربة
أسفلها .. وأطل من نافذتها الزجاجية بعد أن أزاح طبقة الثلج التي كست
سطحها ، فاستطاع أن يتبين في أحد أركانها أثاثا محطما ، وفي ركن آخر كوما
من الحطب .

ودفع « سامي » باب الحجرة بعد أن أزاح الثلوج المتراكمة أسفله .. وحمل
بعض قطع الحطب واتجه بها إلى البيت .. ودخل حجرة الجلوس حاملا الحطب ثم
ألقاه بجوار المدفأة قاتلا في مرح :

— عثرت على كنز من الحطب ، سأريك كيف تكون التدفئة .. سأهدى
لك قطعة من جهنم .

وردت « هدى » ضاحكة :

— يا ساتر يا رب .. أليست عندك هدية خير من هذه ؟

— وسط هذا الكوم من الثلوج الذي يحيط بنا لا أظن هناك هدية أفضل من
النار .

ولم تمض لحظات حتى كان « سامي » ينفخ في ألسنة اللهب المتصاعدة من
جوف المدفأة ليزيدها اشتعالا .

ووقف يفرك كفيه أمام المدفأة .. وقد بدا شبحة طويلا .. عريض المنكبين .

ثم اتجه إلى « هدى » فالتحى عليها ورفعها بين يديه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ومدت شفتيها فمست شفتيه وتساءلت :

— إلى أين ؟ ..

— سأرقدك بجوار المدفأة .

— ثم ؟ !!

— أبدأ عملية نشاط ضخمة في أنحاء البيت .

— مثل !!

— أجهز الحمام .. وأعد الطعام .. و ..

— وتكنس الأرض وتمسح البلاط ؟!

— لا .. لا .. الأرض يمكن احتماؤها هكذا .

وكان « سامي » قد استقر بحمله على الأريكة المواجهة للمدفأة .. ولكنها ما

لبثت أن وثبت واقفة ودفعت على الأريكة قائلة :

— ارقد أنت أمام المدفأة .. كل ما ذكرت من صميم اختصاصاتي .

— لم نأت إلى هنا لنتنازع الاختصاصات .. إن اختصاصك الوحيد في هذه

الفترة هو أن ترقدى وتستريحى .

وأشارت « هدى » إليه بيدها مهدئة .. وردت وهى تسير متجهة إلى

الحمام :

— ومن قال لك إنى لست مستريحة ؟! .. أتظن هذه الأعمال تستدعى جهدا

خارقا .. سأريك كيف أعد الحمام فى ثوان .

— والطعام ؟ !!

— سيكون معدا بمجرد أن تغادر الحمام .

وعبرت « هدى » القاعة إلى الحمام .. ووقفت أمام أسطوانة البوتاجاز

وأدارت المفتاح ثم حركت يد الجهاز وأشعلت الثقباب ووضعت داخل الفتحة ..

ثم مدت يدها ففتحت صنبور المياه الساخن فتدفقت المياه وأشعلت الجهاز .

ونظرت « هدى » إلى البخار المتصاعد من المياه المتدفقة في « البانيو » وقالت ضاحكة وهي تضع السدادة في البانيو :

— هي شغلانة يا أستاذ .. لقد جهز الحمام .. بعد برهة سيمتلئ البانيو .. وتستطيع أن « تبلط » فيه كما تشاء .. حتى أكون قد أعددت الطعام .

— غير معقول .

— اسمع الكلام .

— لا أريدك أن تتعبى .

— قلت لك إن هذه أشياء لا تتعبني أبدا .. إنها تمتعنى . كم مرة تظن الفرصة ستتاح لى لكى أخدمك .. وأتصرف معك كأنك ملكى .
وضمته إليها .. ثم همست فى أذنه :

— إنها فرصة العمر .. فدعنى أستمتع بها كاملة .. دعنى أحميك .. وأطعمك .. وأريحك . دعنى أنسى أن أحدا سينزعك منى مرة ثانية .. دعنى أتصرف كأنى أعيش معك أبدا .

— ولكنك ستعيشين معى أبدا .

— أحلام .. وأمان .. دعنا نصدقها ونستمتع بها ..

دعنى أعيش معك حياقي فى هذه الأيام .. إن المرء لا يعيش حياته مرتين .
وضمها « سامى » إلى صدره فى لفة قائلا :

— بل سنعيشها مائة مرة .

وتركت « هدى » نفسها تسترخى على صدره .. وصوت المياه يتدفق من الصنبور .. مثيرا طبقة من الضباب أخذت تنتشر فى أنحاء الحمام تاركة على جدرانه طبقة من البخار المتكاثف كأنه العرق .

وانفلتت « هدى » من بين ذراعيه قائلة :

— عندما تنتهى من الحمام ناد علىّ .

وخرجت « هدى » .. لتعد الطعام واستعانت بمقعد فى المطبخ بعد أن

أحست أن الوقفة قد أجهدها .. وأخذت تفتح علب الطعام وتضعها في الأطباق .. وأوقدت فرن البوتاجاز حتى تسخن ما يتطلب التسخين .. ثم بدأت تنقل الأطباق لترصها على منضدة مستديرة منخفضة أمام الأريكة في مواجهة المدفأة .

واستلقى « سامى » فى الماء الساخن والبخار يتصاعد من حوله .. وأغمض عينيه وأرخى أعصابه وأحس كأن كل شيء من حوله قد سكن واسترخى .. وحاول جهده أن يمسك بذهنه ليضع به وسط ذلك السكون والاسترخاء فلا يجعله يفلت منه ليشرد به ويجرّه بعيدا إلى المتاعب والمشكلات والهموم . واستكان الذهن فأغفى وتمطى .. ولم يحاول أن يتعدى ذلك النطاق المريح فى البيت الهادئ المحاط بالثلوج .. الدافع القلب بألسنة النيران المتراقصة فى جوف المدفأة ، والبخار المتكاثف بين جدران الحمام .

ولم يوقظ الذهن المسترخى إلا طرقات خفيفة على الباب وصوت رقيق يهتف :

— الطعام جاهز .

وفتح « سامى » عينيه ليجد الوجه الجميل قد أطل عليه بعد أن فتح الباب وقد اتسعت الابتسامة على شفتيه وشاعت السعادة فى وجهه .

وابتسم « سامى » قائلا :

— لم أجد ألد من استرخاء الماء الدافئ فى يوم زمهرير .

وردت « هدى » عاتبة :

— استرخاء الماء الدافئ !!

واستدرك « سامى » قائلا :

— والحضن الدافئ .

وضحكت « هدى » قائلة :

— إنه فى انتظارك .

وأغلقت « هدى » الباب وعادت إلى الحجر لتلقى نظرة أخيرة على المنضدة .. وفي طريقها مرّت بالبار الزجاجى الذى وضع فى ركن البهو وتوقفت أمامه وفتحت ضلفته وألقت على رفوفه نظرة سريعة .

ومدت يدها فأمسكت بإحدى زجاجات الويسكى .

وبدا عليها التردد برهة ، ولكنها لم تلبث أن جلبتها وحملتها إلى منضدة الطعام .. ثم اتجهت إلى الثلاثية فأخرجت قوالب الثلج من « الفريزر » ووضعتها فى طبق بللورى صغير ، ولم تجد أثرا للصدودا فجذبت زجاجتى كوكاكولا وسارت إلى حجرة المدفأة .

وخرج « سامى » وقد لف المنشفة حول رأسه ، وضم « البرنس » حول جسده ، ووقف أمام المنضدة يفحص محتوياتها ، وبدت الدهشة فى عينيه وهو يجد زجاجة الويسكى وتساءل قائلا :

— ما هذا ؟

— أتساءل .. أم تستنكر ؟

— شكل الزجاجة لا يحتاج إلى سؤال .

— استنكار إذن ؟

— ليس بالضبط استنكارا .. ولكنه فقط استفسار .

— عم ؟

— عن من أين أتيت بها .. ولمن .. ولماذا ؟

— من البار .

— صدفة إذن ؟!

— طبعا لأنى لم أحضره معى .

— ولمن ؟

— لى ولك .

— ولماذا ؟

— لى .. لأنى أريده .. ولك .. لكى تجربيه .

— أنا لا أحبه .

— وأنا لا أتمسك به .. لكننى تمنيت دائما أن أشربه معك .. كنت إذاً ما جلست وسط الحفلات بين الناس وأكرهونى على الشرب .. واحتسيت أول كأس .. طار ذهنى إليك .. وتمنيت لو كنت جليسى .. كان حلما أن أشرب معك .. كم وضعتك أمامى بعين الوهم .. وتناولت منك كأسى .. وناولتك كأسك .. ورشفتها سويا .. رشفة رشفة ، وعيناك تتطلعان لى .. وعيناى ترنوان إليك .. وأترك الكأس وأهمّ بأن ألقى على صدرك رأسى .. ثم أفيق . أفيق لأجد آخر على مقعدك .. وأجدك قد تطايرت وتبددوهى فيك .. أفهمت لماذا أريد أن أشرب معك ؟!

— أكاد أفهم .

— إننى أمارس معك كل أحلامى .. أحميك وأطعمك . أمتلكك بلا شريك .. وأتناسى الوقت من حولى .. وأتناسى الناس والظروف .. وأحس أنى وإياك .. قد بتنا على ظهر الأرض وحدنا .. فلماذا لا أشرب معك ؟! أتكره الشرب ؟

— لا أسيغه .

— ولكنك تشربه فى الحفلات .

— عندما أجده ضرورة .. لا مفر منها .

ومدت يدها بالزجاجة وهمت برفعها قائلة :

— لا أحب أبدا أن تفعل معى .. شيئا لا مفر منه .

ومد يده بسرعة وأمسك يدها وأعاد الزجاجة قائلا :

— سأشرب معك .

— كشىء لا مفر منه ؟

— ولم لا أو إذا كان حبيك نفسه لا مفر منه .

— هكذا !!؟

— طبعا .

— هل حاولت الفرار منه ؟

— لم أحاول .. لأنى أعرف أنه شيء لا فرار منه .

— هل يضايقك هذا ؟

— أبدا .. لا شيء يمتعنى كإحساسى .. أن جينا شيء باق . لا نهاية له ..

ولا مفر منه .

ورفعت « هدى » الزجاجاة وأفرغت الويسكى فى كأسه وردت متسائلة :

— ستشرب من أجلى ؟

— أجل .

— وأنت متضايق ؟ ..

— بالعكس .. لا يسعدنى قدر أن أفعل ما يسعدك .

وصبت فى كأسها قدرا مائلا ثم وضعت الزجاجاة وتساءلت :

— لم أجد صودا . أيضايقك أن تشربه بالكوكاكولا . أم تفضله بالماء ؟!

وضحك « سامى » قائلا :

— تسأليننى كأتى خبير .. أنت أدرى .. بم تفضلينه أنت ؟

— أفضله بالكوكاكولا .

— وأنا أيضا .. على الأقل حتى أضيع طعمه وأحس أنى أشرب كوكاكولا .

ومدت يدها بالكأس إليه وتساءلت :

— قل كيف تراه ؟

ورشف « سامى » رشفة ثم قال ضاحكا :

— محتمل .

ورشفت من كأسها رشفة .. وأغمضت عينها وبدا عليها كأنها تستمتع

جيدا برشفتها ، وتهدت قائلة :

— بماذا كنت تشعر عندما يضطرك الأمر إلى الشرب ؟

ورشف « سامى » رشفة طويلة أخرى قائلا :

— بلا شىء .

— كيف !! ألا يؤثر عليك الشرب !؟

— بتاتا .

— ألا تتأثر من الكأس الأولى ؟

— ولا الثالثة .. فقد اضطررت إلى أن أجامل في إحدى الحفلات .. ثلاثة

أصدقاء .. فى ثلاث كئوس .. وضايقتنى طعمها .. ولكنها لم تؤثر فى أكثر مما

تؤثر ثلاثة أكواب من الماء .

— ألم تدخ منها !؟

— لم أدخ إلا مرة واحدة .. من كأسين من فودكا فى حجم « الكستبان » .

وضحكت « هدى » وهى تتصور سامى « دائخا » من كأس فودكا وسألته

قائلة :

— صف لى كيف حدث ذلك .

— كنت فى طريقى إلى مجلس النواب ومررت بالقنصل الروسى لأترك بطاقة

ردا على زيارته .. فوجدت ابنته .. ودعتنى إلى أن أشرب شيئا .. فحاولت أن

أشكرها ، ولكنها ألحت ، ثم قدمت لى كأسا صغيرة من الفودكا .. وعندما

حاولت أن أعتذر بأن الشراب يؤثر على معدتى .. أكدت فى حماس أن الفودكا

هى أحسن علاج للمعدة .. ثم دفعت لى بالكأس .. ورفعتها إلى شفتى ودفعتها

إلى فمى .. فأحسست بأنى أشعلت فى جوفى لها ، ولكنى لم أملك إلا أن أرسوم

على شفتى بسمه رضاء ، وأن أؤكد لها أنى استمتعت بالكأس وأن معدتى قد

أصبحت كالحديد ، ولم أكد أهم بالانصراف ، حتى وجدت القنصل قد عاد ..

ورحب بى الرجل وأصر على استقبائى .. لكى يقوم بواجب الضيافة ، وقدم لى

كأسا من الفودكا .. وحاولت أن أعتذر له ، ولكن الكأس كانت أقرب إلى

ولا تزمت .. فتشرف نفوسهم .. وترهف أحاسيسهم .. وتتضاعف قابليتهم
للانفعال .. تضحكهم أتفه النكات .. وتزعجهم أخف الآلام .. ويفصحون
عن خبايا صدورهم .. من أقل إثارة .. ولأوهى سبب .. ذلك ما تفعله نشوة
الكأس .. مجرد حالة .. يمكن أن يوحى به من غير كأس .

ورفعت « هدى » الكأس إلى شفيتها ، وهي تحتسيها في ببطء واستمتاع
قائلة :

— ربما .

— هل تستمتعين حقا .. بطعم الويسكى ؟
— لا أظن .. إنى أستمتع باحتسائه ، وليس بطعمه .. لأننى قد عودت نفسى
على طعمه .

— أنا لم أعودها بعد .

— إذا قمتهل فى الشرب حتى تتعودها .. ولا تجرعها هكذا كالدواء .. لماذا
لا تمنحنى متعة الشرب معك ؟

وضحك « سامى » ثم مد يده بالكأس قائلاً :

— لا تغضبى .. سأشرب هذه الكأس كما تريدن .. سأستمتع بها ..
وأمتعك .

وملأت كأسه بعد أن أفرغت فيها بقية زجاجة الكوكاكولا . وبدأ
« سامى » يرشفها في ببطء واستمتاع . وتساءل ضاحكاً وهو ينظر إلى الأشعة
الحمراء المتراقصة فى المدفأة :

— أيعجبك هذا ؟!

— أيعجبك أنت ؟!

ووضع الكأس على المنضدة .. ثم مال حتى اتكأ برأسه على كتفها ومس
عنقها بشفتيه وقال :

— لا يعجبنى سواك .. أيتها الغبية أنت أمتع ما فى الوجود .. أمتع من

الخمر .. وأدفاً من نيران المدفأة ، ومن بخار الحمام .. وأبهر من سنا الثلج الأبيض .. كل هذه الأشياء الممتعة التي حولنا .. أنت أمتع منها .. ما أحسست أبداً بالملل منك .

ومد يده فجذب مجلة ملقاه بجواره ، وقال لها ضاحكا .. وهو يشير بأصبعه إلى جزء من إحدى صفحاتها :

— اقرئي هذا .

— ماذا به ؟!

— اقرئي .

— خير عني ؟

— لا .. لا . سأقرأ لك أنا . اسمعي .. اسمعي .. « لكي تعرف ما إذا كنت تحب إنسانا ما .. حاول أن تقضى معه سبع ساعات .. فإذا استطعت أن تجلس وإياه وحيدين بلا ملل .. فأنت بلا جدال تحبه » .
وتساءلت « هدى » ضاحكة :

— سبع ساعات فقط .. أجنون هذا الكاتب ؟!

— لا جدال في أنه لم يجرب الحب .. إني أحس بعد أن أقضى معك سبع ساعات .. أن أسوأ ما يحدث لي هو أن أنتزع منك .

— إن السبع ساعات تمر بنا كأنها السبع دقائق .

— لقد مرت بنا عشر ساعات .. وكأننا لم نصل إلا هذه اللحظة .

— عشر ساعات !! مرّت بنا عشر ساعات ؟! لماذا يعدو بنا الزمن هكذا ؟!

لماذا لا يتمهل ؟!

— دعك من الزمن الآن .. دعيه يمر كما يشاء .. إننا على الأقل .. لن نقف

بالباب ليودع أحدنا الآخر .. ولن يفر أحدنا من بين ذراعى الآخر ليرى

الساعة ، ثم يعدو ليرتدى ملابسه وينطلق في ظلمة الليل .

— ليرتك الآخر يتقلب وحده في الفراش ويحتضن الوسادة .

— بل سنظل أمام المدفأة ، يطبق كل منا على صاحبه .. ويستمتع بأنفاسه ..
حتى يطبق النوم أجفاننا فننام .. ونستغرق في النوم .. دون أن نكلف أنفسنا
حتى مشقة الذهاب إلى الفراش .. ودون أن نخشى أن يسرقنا النوم ..
سنسترخي عندما يحلو لنا الاسترخاء .. وننام عندما يهاجمنا النوم .. ونستيقظ
عندما تتمطى ونثاءب ، ونحس بأننا أحرار في أن ننام .. أو نستيقظ .. ونتحرك
في الفراش ببطء .. لننام ونستيقظ ثانية ، وننعم بكل ما نملك من حرية الأحياء .

انكحار

مرت الليلة الأولى « بسامى وهدى » .. وهما يستمتعان بما سماه سامى « حرية الأحياء » .. واسترخى الاثنان على الأريكة المنخفضة أمام المدفأة ، متعانقين .. كأوثق ما يكون العناق .. وأحر ما تكون اللففة .. وأشد ما يكون الارتباط والحب .. وأهدأ ما تكون السكينة والطمأنينة .

واستيقظ « سامى » خلال الليل .. فوجد المكان غريبا عليه لأول وهلة .. وحاول أن يتحسس موضعه من الحجر كما تعود أن يفعل في حجرته في البيت .. أو في حجرة « هدى » في دارها .. حاول أن يتصور باب الحمام ومكان التسريحة والدولاب .. ولكن معالم المكان بدت غريبة .. ومرت برهة وهو يحاول أن يتذكر أين يكون .. دون أن يميز مما حوله .. إلا الوجه الرقيق المختبئ في صدره .. والذراع الحانية التى تضمه في رفق .. وجمرات حمر تشع بضوء خافت في أقصى المكان كأنها مصابيح آخر الليل .

ورويدا رويدا .. عادت إلى ذهنه تفاصيل المكان بالجمرات داخل المدفأة الحجرية .. والأريكة المنخفضة والبيانو في ركن الحجر .. وباب الشرفة الزجاجي وقد تساقطت عليه الثلوج وبدا من وراءه زجاجه ضوء السماء الشاحبة وقد تكدست فيها السحب .

وتملكه إحساس ممتع بالسكينة وهو يشعر بما يمنحه له المكان من طمأنينة واستقرار داخلي وخارجي .. ودفء لقلبه وروحه وجسده .

وضم « هدى » إليه . ثم مس شفتيها في رفق .. فرمت شفتيها ترد القبلة على غير إدراك منها وبلا إرادة .. كما تتقلص عضلة النائم لصد الوخزة بغير وعى

ولا يقظة .

وزادت « هدى » انكماشا في صدره .. واشتد ضغط ذراعها عليه .. كأنها تقاوم قوى تبغى انتزاعه منها . وقابل « سامى » ضميتها بضمة أشد يؤكد بها أنه موجود وأنه باق .. وأنه أشد تشبثا بها وإصرارا عليها .

واسترخت « هدى » بين أحضانها ، وما لبثت حتى أرخى ذراعيه حولها ، ثم استسلم للنعاس وأغفى فى هدوء وسكينة ولم يعرف كم طال به النوم .. حتى استيقظ مرة أخرى وكأن يدا تدفعه فى عنف .

وفتح عينيه هذه المرة وهو على أتم الوعى بما حوله .. ليقع بصره على الحجرة واضحة فى ضوء النهار الذى تسرب من زجاج الشرفة فأظهر معالمها وأخفى وهج الجمرات الحمر القابعة فى جوف المدفأة متشحة بالرماد الأبيض . ولم يعرف ماذا أيقظه حتى عادت الطرقات تدق الباب فى شىء من الإلحاح والعنف .

وفتحت « هدى » عينيهما ونظرت إليه فى وجل المفزوع من نومه ، لتجده قد نهض بنصفه الأعلى وقد بدت فى وجهه علامات القلق والدهشة .
وتساءلت « هدى » فى جزع :

— ما بالك ؟

— طرقات على الباب .

وأنصت « هدى » ، وكان الطرق قد كف .. وبدل سامى كأن الطارق قد أصابه اليأس فانصرف ، واسترخت « هدى » فى الفراش وهى تحيطه بذراعيها قائلة :

— لا بد أنك واهم .

وقبل أن يجيبها « سامى » ، رد عليها الطارق بمزيد من الطرقات الملحة .
وأزاح « سامى » الغطاء ، وهمّ بالنهوض .. ولكن « هدى » تشبثت به

متسائلة :

— إلى أين ؟

— أفتح الباب .

وعادت « هدى » تتساءل في دهشة وسخرية :

— لماذا ؟ .. أنتتظر أحدا .

وهز « سامى » رأسه وتساءل بنفس السخرية :

— أنتتظر أحدا هنا ؟

— إذن لماذا تريد أن تفتح ؟

— أنتركه يدق إلى ما شاء الله ؟

— ... بل إلى ما شاء هو .. أو ما شاءت تلامته .. ثم .. لا أظنه إلا الزبال ..

يطلب الزبالة .

— زبال هنا ؟ في هذا المكان المقفر !

— ولم لا !! أبصر دخان المدفأة .. فظن بالبيت ناسا .. وظن للناس

مخلفات .. فأتى ليحملها ويسترزق .

وعاد الطارق يدق في إلحاح ، وزاد الانزعاج على وجه « سامى » .. ووثب

من الفراش دون تردد وهو يقول :

-- حتى لو كان زبالا .. فلماذا لا نصرفه بالحسنى حتى يكف عن طرقاته

المزعجة .

وقبل أن يترك « سامى » الغرفة وثبت « هدى » من الفراش متسائلة في

جزع :

— وإذا لم يكن زبالا ؟

وتوقف « سامى » في مكانه وردد سؤالها وهو يلتفت إليها :

— إذا لم يكن زبالا ؟

— أجل .. إذا لم يكن زبالا .. أو بائع صحف أو بائع لبن .. أو أحدا من

طارقي أبواب الصباح .. أعنى إذا كان طارقاً أخطر من هؤلاء .. أمن الحكمة أن
نفتح ؟

— أخطر من هؤلاء .. مثل من ؟

— أى إنسان يلاحقنا .

— أتوقعين أن يلاحقنا إنسان ؟

— ولم لا .

— يلاحقك أنت .. أم أنا ؟

— أو نحن معا !!

— لا أظن أحدا يعرف أين نحن .. على الأقل من ناحيتي أنا .

— ولا أحد يعرف أيضا من ناحيتي أنا .. اللهم إلا أم حبيب ، ولست

أحسن الظن بها حتى أتصور أنها تلاحقنا هنا .

— إذن من نخشى ؟

— من يدري ؟

وعاد الطارق يدق .. وقد بدا مصرا على ألا ينصرف .

وأمسكت « هدى » بذراع سامى وجذبه داخل الحجره وهمت هى

بالخروج قائلة فى إصرار :

— سأفتح أنا .. ابق أنت داخل الغرفة .

وأعادها « سامى » إلى الحجره ورد قائلا :

— ما هذا !؟ تخرجين أنت لتفتحي وأبقى أنا هنا .. أنت مجنونة ؟

— ولم لا .. إذا كان الزبال سأصرفه .

— وإذا كان واحدا ممن تتصورينهم ؟

— سأصرفه أيضا .

— كيف ؟

— أخبره أنى أفضى هنا دور النقاهاة .. وأنى أريد أن أستريح .

— وتخيّلين أنه سينصرف ؟

وبدت الحيرة على وجه « هدى » .. واسترسل « سامى » قائلا :
— أتظنين أنه قد أتى من دمشق إلى هنا .. لكى ينصرف بمجرد أن يعلم أنك
هنا للنقاهاة .. كأنه لا يعرف .. أن هذا أدعى لبقائه .

وازدادت الحيرة بهدى .. وصمت « سامى » برهة وهو يرقب انفعالاتها ثم
قال فى شيء من السخرية :

— اللهم إذا كنت تنوين استضافته معنا .

ونظرت إليه « هدى » فى لوم قائلة :

— كف عن هذا المزاح السخيف .

وجذبها « سامى » وضمها إليه ثم دفعها نحو الفراش وقال فى لهجة أكثر مرحا
وأشد طمأنينة :

— اجلسى هنا .. سأرى هذا السخيف الذى يلح على الطرق كأن حياته
معلقة بالدخول .. وسأعرف كيف أصرفه أيا كان .

واتجه « سامى » إلى البهو .. وبعد لحظة كان يدفع المزلاج ويفتح الباب ليجد
أمامه سليم وقد تساقط الثلج على شعره وفوق كتفيه .

وهتف « سليم » وكأنه يلقى بحمل من فوق كتفيه :

— أخيرا .

ومضت برهة وسامى ينظر فاغرا فاه وقد ارتسمت على ملامحه أقصى معالم
الدهشة ، وهو يتساءل :

— سليم !! ماذا أتى بك إلى هنا ؟! كيف عرفت ؟

ونظر إليه « سليم » وهو ينفذ عن رأسه الثلج الذى تساقط على أنفه وقال
وهو يمد يده ضاحكا :

— أتتوى أن تتركنى هنا وسط الثلج .. أم ستسمح لى بالدخول ؟

— طبعا .. طبعا .. !! تفضل .. ادخل .

وجذبه من يده إلى الداخل ، ورأسه يموج بالأفكار والبساوس والأوهام .
وقبل أن يستقر « سليم » على المقعد .. أمسك « سامى » بذراعه وسأله في
جزع كأنما انتابه خاطر مفاجيء :

— هل جرى لأمى شىء ؟ .

وهز « سامى » رأسه مؤكدا :

— أبدا .. أملك بخير .. لقد حدثتها بالأمس وهى فى أتم صحتها .

— ما الذى أحضرك إذن ؟! وكيف عرفت ؟! وماذا ؟

— يا أختى .. دعنى ألتقط أنفاسى .. سأخبرك بكل شىء .

— أريد أن أطمئن .. ألم يحدث شىء مزعج ؟

— حتى الآن .. لا .

— إذن ماذا أحضرك ؟

— حضرت لأخذك .

— من أجل ؟

— السفر إلى القاهرة .

— له ؟

— لحضور المؤتمر الآسيوى الإفريقى .

ونظر إليه سامى فى غيظ ودهشة وتساءل كأنه لا يصدق :

— المؤتمر الآسيوى الإفريقى !! أمعقول هذا ؟

— ولم لا !

— لأنى أولا .. قد اعتذرت عن الذهاب .. وثانيا .. لأن موعد الاجتماع

لم يكن بعد .

— اعتذارك لم يقبل .. وموعد الاجتماع بعد باكر ، ولا يد من أن تسافر

غدا .

— لا بد !! ماذا تعنى بلا بد ؟

— أعنى كل ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمة .
— تبغنى أنى سأسافر أردت أم لم أرد؟! ألا تعرف أنى لا أقبل قط أن يرغمنى
أحد على شىء .

— ليس هناك إرغام .. ستسافر لأن هناك ضرورة قصوى لسفرك .
— لست أرى هذه الضرورة القصوى .
— عندما أقص الظروف التى تلايس الموضوع سترى بنفسك مدى ضرورة
سفرك .

— ولكن هذا غير معقول .. هب أنتى مت مثلا .. ماذا ستفعلون ؟
— لا داعى لهذه الافتراضات الصبيانية .. لأنك ما زلت على قيد الحياة ..
وتستطيع السفر .
— لكنى لن أسافر .

ورفع « سليم » كفيه مسلما فى يأس :
— أمرك !! كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أنقل لك المسألة بمخاديفها ..
وأنت وشأنك .. تذهب أو لا تذهب .. إذا كنت تصر على أن تتخلى عن
واجبك .. من أجل متعة بضعة أيام .. فهذا شأنك أنت وحدك .. لقد فعلت أنا
كل ما استطعت لكى أعتز عليك وأبلغك حديث عبد الوهاب بك .
— ماذا قال عبد الوهاب بك ؟

وقبل أن يجيب « سليم » سمع « سامى » حركة فى حجرة الجلوس وأحس
بما يمكن أن يكون قد أصاب « هدى » من قلق .. فاتجه إلى باب الحجرة قائلا
لسليم :
— عن إذنك .. دقيقة .

وفى الحجرة وجد « هدى » وقد ارتدت ثوبها الرمادى الفضفاض الشبيه
بالروب ومشطت شعرها ووقفت بجوار المدفأة وقد بدت عليها أمارات الضيق
والقلق .

وأقبل عليها « سامى » قائلاً فى صوت خافت :

— إنه سليم .

— أعرف .

— لقد حضر لكى يطلب سفرى إلى القاهرة لكى ...

وقاطعته « هدى » وهى تنهد فى يأس :

— سمعت كل ما قال .

— وما رأيك ؟

— رأى .. أنتى إنسانة منحوسة !! حتى بضعة أيام .. أحاول أن أحيا

فيها .. كما يحيا الأحياء .. ياباها على القدر !! لم أطلب أكثر من بضعة أيام ..

ينسانى فيها القدر .. والناس .. والشقاء .. والمتاعب .. يغفلون خلالها

أعينهم .. وذاكرتهم .. وينسون أنى كائنة .. فأبوها على .

وأحس « سامى » بما فى صوتها من لوعة .. فأجابها هامسا وهو يتحسس فى

حنان عنقها وخذها وأنفها وشفتيها :

— لا تأخذى المسألة بمثل هذا اليأس .. إن العمر أمامنا طويل .. ولن نعدم

فيه أياما آخر .. تضمنا بعيدا عن الناس والمتاعب .

ورفعت إليه عينين كستهما طبقة تترقرق من الدمع وسألته فى يأس :

— ستذهب إذن ؟

— سأستمع إليه .. لأعرف تفاصيل المسألة .

— ثم تذهب ؟

— إذا كان هناك ضرورة فلا بد أن أذهب .

— أضاقت الدنيا كلها إلا عنك .. لماذا لا يرسلون أحدا بدلا منك !

— لو استطاعوا لفعلوا .. ولما تكلف سليم مشقة البحث عنى والمجئء إلى

هنا .

— إنهم يلقون عليك كل شئ .. لم أر إنسانا يقسو على نفسه من أجل الغير

مثلك .. أليس من حقك أن ترتاح !

— ليس هذا وقته يا هدى .. سأستمع إلى تفاصيل الموضوع من سليم ..
وسأرى ما يجب أن أفعله .. تعالى لتسلمي عليه .

— إني أكرهه .. لقد كان دائما ضدى .

— اكرهيه كما تشائين .. ولكنى أظن أنه من اللائق أن تسلمى عليه .. حتى

لا يظن أنى أخفيك عنه .. تعالى .

وخرج « سامى » من الغرفة تتقدمه « هدى » .. ورفع « سليم » رأسه
ليواجه وجهها .. ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤخذ بجمالها .. رغم روح
الخصومة التى كانت تسيطر على كل مشاعره نحوها .

كان يتوقع أن يرى وجه غانية .. أضاع الرقاد عن وجهها مساحيق الزينة
وأصباغها .. فغدا لونها أصفر شاحبا .. ومسح الخطوط عن حاجبيها والكحل
عن رموشها ، ونفخ النوم جفونها ، فغدا وجهها أقرع « كالبطاطس » .

كان يتوقع أن يرى وجهها أذبله السهر والجهد .. ولم يبق من جماله سوى
تقاطيع تحتاج إلى قناع دائم من الأصباغ لكى يبرز جمالها .

ولكنه أخذ عندما أبصر وجهها صبوحة .. صافى البشرة .. مورد
الوجنتين .. كأنه وجه طفلة حلوة .. ولمح بياض أسنانها وهى تبتسم محيية إياه
بابتسامة يشوبها شىء من الحياء لم يتوقعه منها .

وانتخذت « هدى » مقعدها أمامه .. وجلس « سامى » بجوارها ، وتملك
« سليم » إحساس بالاضطراب والارتباك ، وهو يشعر أنه قطع على عاشقين
خلوتهما .. وأحس أن عليه أن يقدم نوعا من الاعتذار بعد أن هزت
« هدى » .. بمجرد شكلها وأسلوبها فى اللقاء والتحية .. إحساس الخصومة
والتحدى من نفسه ودفعت فيه ميلا إلى التعاطف والفهم .

وتمت سليم محاولا الاعتذار :

— أنا متأسف على ما فعلت من إقلاق .

وأخذت « هدى » باعتذاره ولهجته الآسفة .. وأحست أنها قد بالغت في تصور خصومته .. وأجابت في لهجة رقيقة :
— أبدا .. يسعدنا دائما أن نراك .
وضحك « سليم » وهو يرى مدى ما في قولها من مجاملة منافية للواقع ، ورد قائلا :

— جائز أن يسعدكم لقاىى .. ولكن ليس في هذا الوقت أو في هذه الظروف .
وصمت برهة يستجمع أفكاره ، ثم استرسل قائلا :
— إلى أعرف جيدا .. مدى ما في زيارتي من إزعاج ، ولكنى أعرف أيضا أن المسألة تستدعى أن أقوم بهذا الإزعاج .. وأعرف أيضا أنك تحرصين على مصلحة سامى أكثر مما تحرص عليها جميعا .
وتنهدت « هدى » وهى تتمتم قائلة :
— طبعا .

واستمر سليم يقول :
— لقد سأل عبد الوهاب بك عنك ، ودهش من غيابك المفاجئ .. ثم طلب منى الذهاب إليه ، وهناك أخبرنى أن موعد الاجتماع قد قرب ، وطلب سفرك بصفة عاجلة .. وقد عرضت عليه الذهاب بدلا منك .. ولكنه أصر على ضرورة سفرك أنت بالذات إلى المؤتمر .. لأن الشيوعيين يصرون على ألا تسافر .

وهتف « سامى » متسائلا فى دهشة :

— الشيوعيون .. لماذا ؟

— لأنهم لا يثقون بك .

— وأنا أيضا لا أثق بهم .

— إنهم واثقون من هذا .. وهم يعتبرون المؤتمر منطقة نفوذ لهم .. ونحن نريد أن يكون المؤتمر .. منطقة نفوذ للشعوب الآسيوية الإفريقية .. ومن أجل هذا

قال عبد الوهاب إن الرضوخ لهم وإقصاءك عن المؤتمر معناه التسليم بما يريدون .

ونظر سامى إلى سليم متشككا .. ورفع حاجبيه متسائلا :

— أتقول هذا لتحمسنى للذهاب إلى المؤتمر ؟!

— بل أقوله كحقيقة واقعة .. أكدها حضور فؤاد عبد الجبار لمكتبنا ومحاولته

أن يحصل على جدول أعمال الاجتماع قائلًا إنه سيحضر الاجتماع .. ثم سخر منى

عندما قلت له إنك ستذهب .. وأكد أنك لن تذهب .

— هو قال هذا ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لأنه .. لأنك ...

وصمت « سليم » وقد بدا عليه التردد .. وعاد « سامى » يتساءل في

إلحاح :

— لأنى ماذا ؟!

— لأنك قابع هنا بين أحضان هدى .

ورفعت « هدى » عينها في دهشة ثم أطرقت .. وتساءل « سامى » في

غضب :

— هو قال هذا ؟! من أدراه ؟

— قال إن الدنيا كلها تعرف .

— كيف ؟

— صحفى رآكم في الحدود عند الجديدة فأشاع الخبر في كل دمشق .

وأحس « سامى » بخليط من الغضب والضيق واليأس يعتم نفسه ، وتملكه

الوجوم ، فلم ينبس بكلمة وأخذ يطرق الأرض بقدمه في عصبية .

وكان « سليم » أول من قطع الصمت بقوله :

— من أجل هذا حضرت إليك .. لا بد أن تعود وتقطع ألسنة السوء ..

وتقضى على كل هذه الشائعات التى يحاول فؤاد إثارتها .. إن مجرد وجودك فى دمشق اليوم وذهابك غدا إلى القاهرة كفى بأن يسكتهم .

وتتهد « سامى » وتساءل فى صوت خافت وهو يحس أن المسألة أخطر مما تصور :
— أتظن هذا ؟

— بل أؤكدده .

ونظر « سليم » إلى « هدى » التى التزمت الصمت وقد خيمت على وجهها سحابة أسى :

— ما رأيك يا هدى ؟

وازدردت « هدى » ريقها وقالت فى صوت خافت :

— إنك على حق .. لا بد أن يعود .

— وأظن من الخير أن يعود وحده .. خشية أن يراكم أحدا معا .. وسنلحق به فى عربتى .

وأحست « هدى » كأن يدا قاسية تلوى عنقها وتجذب « سامى » بعيدا عنها .

إن هذا يعنى الفراق العاجل .. الآن .. حتى وحشة الطريق .. لن يؤنسها وجوده .

وتخيلت العودة بدونه .. وحيدة فى هذا الطريق الطويل مع الثلوج التى تبدو كأنها أكفان تلف الكون .

عجبا لنفوسنا .. كيف تقلب .. الحلاوة مرارة .. وكيف تجعل من الحليب الأبيض .. أكفانا بيضا .

ولم تجد « هدى » معنى للمقارنة .. وجمدت الكلمات على شفيتها .. فلم تملك إلا أن تقوم وكأن عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .. وتحركت تجاه الحجر كأنها حطام معركة تجر جر أذيال الاندحار .

ونفض « سامى » وهو يتمتم معتذرا لسليم :

— بضع دقائق حتى نرتدى ملابسنا .
ثم توقف قائلاً :

— أأعد لك فنجانا من الشاي ؟

— لا داعى .. نخشى أن يضيع الوقت .

ودخل « سامى » وراء « هدى » إلى حجرة النوم ، وفي صمت حزين ارتدى كل منهما ملابسه ، وحزم حقييته .

ووقف أمام جمرات المدفأة التى حجب الرماد وهجها ثم مد يده فجذب دورق المياه وسكبه فوق الجمرات .. وتصاعد البخار منها ، وتعالت الفقاقيع ، وما لبثت أن خمدت .

وتهد « سامى » وهو يرقب فى المدفأة قطع الفحم السود ثم نظر إلى « هدى » .. فإذا بها تقاوم طبقة من الدموع جعلت تسيل من عينيها ، وتنساب على خدها حتى جانب شفيتها ، وكعادتها مدت طرف لسانها فلعلقت دموعها ، ولم يطق « سامى » النظر إلى دموعها ، وخشى أن تجر معها دموعه .. فهمس بها وهو يتجه إلى خارج الغرفة حاملا الحقييتين :
— هيا بنا .

أكثر علكة؟

انطلق « سامي » بعربته إلى دمشق ، وبعد برهة كانت « هدى » تستقر في
عربة « سليم » بعد أن أغلقت باب البيت .

وتحرك « سليم » بعربته في صمت ، وهو يحس كأن سحابة خانقة من الحزن
والياس قد خيمت عليهما .

وطال الصمت الحزين ، وهو حائر كيف يقطعه .. كان يشفق على جاراته أن
يثير في نفسها شجنا كامنا .. ولكنه كان يحس أن ثمة أشياء في نفسه يجب أن
تقال .. وأن هذه هي فرصتها .

وهبت موجة من الضباب .. أو الغطيطة .. أعتمت الطريق .. فلم يستطع
« سليم » أن يرى أكثر من بضع خطوات أمام العربة .. فهدأ السرعة ..
ووجدها فرصة سانحة لأن يقول شيئا يقطع به الصمت ولو كان غير ذي
موضوع .

وسألها ، وهو يمد عنقه ليكتشف مزيدا من الطريق المعتم :

— هل تحبين الضباب ؟

وأحس بمدى ما في سؤاله من بلاهة فاسترسل يقول :

— أنا أحس بشيء من المتعة ، وأنا أسوق في الضباب .. كمن يحاول أن
يفوص في أعماق البحر ليكتشف شيئا .

كلام فارغ .. كان يمكن أن يقول خيرا منه .. ولكن ذهنه لم يسعفه ..

ولم يبد عليها أنها قد فهمته .. فقد أدارت رأسها ورمقته بنظرة تائهة ، ثم

كأنها تحاول أن تسكته :

— يجوز .

ولم يعرف ما هو هذا الذى يجوز .. ولكنه أحس بأن الكلام— حتى ولو كان بلا قصد ولا معنى — خير من هذا الصمت المطبق الذى يدفع بأحاسيس من اليأس تريد أن تتسلل إلى أعماقه مع ذرات الضباب المطبق عليه .

وحاول أن يرد بشيء يسترسل به فى الحديث .. ولكن ذهنه لم يسعفه حتى بالكلام الأبله .. وأحس أن عليه أن يركز كل انتباهه إلى تلمس طريقه وسط الضباب ، فأخذ إلى الصمت .

ولم تنته موجه الضباب إلا قبيل ظهر البيدر عندما لاح لعينيه المبنى العتيق لنقطة الشرطة ، وقد تراكت الثلوج على سقفه وغطت شرفاته وحروف نوافذه . واعتدل « سليم » فى جلسته ، وهو يرى الطريق واضحا أمامه .. دون حاجة إلى الانحناء على عجلة القيادة ومد العنق نحو زجاج العربة .

ومرة أخرى عاوده التفكير فى تلك الأشياء التى يجب أن يقولها .. وخشى أن ينتهى الطريق وتضيع عليه الفرصة الوحيدة التى يمكن أن ينتهزها .. وفجأة .. وبلا مقدمات التفت إلى « هدى » قائلا :

— اسمعى يا « هدى » .. أريد أن أحدثك فى موضوع حيوى .. كنت أتمنى دائما أن أجد الفرصة لكى أحدثك فيه . لقد كنت أود أن أقول لك رأى ... والتفتت إليه « هدى » ، وقد كست وجهها مسحة همّ ، ثم قاطعته فى مرارة :

— أظن أنى أعرف جيدا رأيك فىّ ؟

— كيف ؟

— من كل ما قلته « لسامى » عنى !؟

— كانت مجرد آراء عابرة قلتها بمناسبات .

— آراء تنم كلها عن كرهك .. وسوء ظنك .

— لا تأخذها على هذا الوجه .. ليس هناك ما يدعونى أبدا لكرهك .. على

النقيض .. أنا من أشد الناس إعجابا بك كفنانتة .

— فنانة فقط ؟

— تلك هى الزاوية التى استطعت أن أعرفك من خلالها .. كواحد من

آلاف المستمعين إليك ..

— لماذا إذن تجاوزت موقفك وتطوّعت لإبداء رأيك فى من زوايا أخرى

لا أظنك تدرى عنها شيئا ؟

— لم أبد عنك رأيا كشيء مستقل .. أبدا .

— شيء مستقل ؟

— أجل .. مستقل بذاته .. ولا علاقة له بأحد .

— لا أفهم .

— أعنى أنى لم أبد فيك رأيا إلا كشيء متعلق « بسامى » يمكن أن يودى به ..

ويدمره .

— أنا .. أنا أدمر « سامى » ؟ .. هذا يؤكد منتهى سوء فهمك لما بيننا .

— أنا لم أتعرض لما بينكما .

— كيف إذن تحاول أن تبدى رأيك فى كشيء متعلق به .. دون أن تفهم

حقيقة ما بيننا ؟

— أنا أبدى فيك رأيا من زاوية قد لا ترينها أنت .. زاوية لا أظن أنه يعيننا فيها

حقيقة ما بينكما بقدر ما يعيننا ما يمكن أن تؤدى إليه هذه الحقيقة .

وهزت « هدى » رأسها فى ضيق وأجابت :

— لا أفهم ماذا تعنى ؟

— إذن دعينى أشرح لك الوضع على حقيقته .

— دعنى أنا أولا أدفع عن نفسى تلك التهم التى ألصقتها بى .

— أنا ألصقت بك تهما ؟

— أجل .. قلت إنى امرأة بلا قلب .. لا أجرى إلا وراء المنفعة .

- الأحق الغيبي .. قال لك هذا ؟
— وأكثر من هذا .
— على أية حال .. لم أقل ما قلت إلا كنوع من أسلحة الدفاع ضدك .
— ضدى أنا .. ولماذا ترانى خصما ؟
— لأنك فعلا خصم لكل من يعلق آمالا كبارا .. على « سامى » .
— إنكم تظلموننى .. أنا لم أحاول قط .. أن أسى إليه .
— أنت تسيعين إليه دون محاولة .. إن مجرد علاقته بك إساءة إليه .
— لماذا !؟ من أجل تلك الإشاعات التى يطلقونها حولى !! من أجل هؤلاء العشاق الذين تختلقهم الأوهام والذين ينثرون الذهب من حولى .. لكى يمنحونى حياة البذخ والترف التى تسجها خيالات الناس لى .. ماذا فى حياتى يستوجب كل هذا !؟ إنى أحيأ أقل من أى امرأة متوسطة فى دمشق .. معظم أيامى لا يوجد فى بيتى من الطعام أكثر مما يوجد فى أى بيت عادى .. والدجاجة قد تبقى فى الثلاثة أربعة أيام حتى تنتهى .. و« ملابسى » قد أعدت تصليحها كلها حتى تلائم المودة .. وتبدو كأنها جديدة .. لم أحاول أن أصنع ثوبا واحدا هذا العام .. لست أجد أبدا فى حياتى شيئا من البذخ يستلزم عشاقا ينفقون .
وتلمل « سليم » فى مقعده ، وهو يحس بأسف لما سببه لها من مرارة دفعتها إلى الإفضاء بهذه الأقوال الخاصة عن حياتها .
وتتم « سليم » فى شبه اعتذار :
— أنا لم أقصد أن أجرحك .. أو أتهمك بشيء .. ولكنى فقط أحب أن أترح لك جانبنا من المسألة .. يبرر ذلك الموقف الذى اتخذته منك .. والذى أصرّ على اتخاذه رغم ما قد يبدو عليه من مظهر العداء .. إنى أجد من واجبى أن أوضح لك ذلك الجانب .. فلعلك تفهمينه وتقديره .
وتنهدت « هدى » ثم قالت فى مرارة :
— ليتكم تفهمون أنتم وتقدرون .

- أنت تعرفين « سامى » جيدا .
— أعرفه أكثر مما يعرفه أى واحد فى هذا العالم .
— تعرفين مدى إيمانه بمبادئه السياسية .
— لم أحاول قط أن أناقشه فيها .. أو أثنيه عنها .
— إذن دعينى أنا أعطيك فكرة عنها .. إننا نمر فى هذه الفترة من تاريخنا بأدق مرحلة .. إننا نقف فى مفترق طرق .. أو فى مهب ريح .. وعلى الدفعة التى ستدفعنا فى هذه المرحلة إلى أى أحد هذه الطرق ما نتوقف حياتنا و حياة الأجيال القادمة .. ومن بين هذه الطرق العديدة التى يمكن أن ندفع إليها .. طريق واضح مستقيم .. يحقق لنا الوصول إلى كل ما نرجو من أهداف طيبة .. وكل ما نأمل من مستقبل مشرق .. ملئ بالرخاء والطمأنينة والسلام .
وهزت « هدى » رأسها فى نوع من الملل كأنها تحس أن كل هذا لا يهمها ..
ولا يدخل فى الموضوع ، وقالت تتعجله :
— وماذا بعد ؟!
— اصبرى علىّ .. إذا لم تفهمى هذه الأشياء .. فسيصعب عليك أن تفهمى حقيقة الوضع الذى أحاول أن أوضحه لك .
وحاولت هدى أن تتمسك بأهداب الصبر فردت قائلة :
— ها !
— هذا الطريق .. الذى يحقق لنا الشخصية القوية المستقلة هو طريق القومية العربية .
— ما لى ، ولهذا كله .. لقد سمعت عن القومية العربية مئات المرات .. وأنا لست ضدها .
— قلت لك اصبرى علىّ .. لا بد أن تمنحني الفرصة لكى أقول كل ما أريد .. أحب أن أسألك سؤالاً بسيطاً .. كيف يمكن أن تتصورى أمريكا .. إذا انفصلت ولاياتها .. وأصبحت كل ولاية دولة مستقلة .. دولة كنتكى

مثلا .. ودولة كاليفورنيا .. ودولة .. نيويورك .
ونظرت إليه « هدى » في دهشة وتساءلت :

— ما المناسبة !! لماذا يحدث هذا ؟

— ولماذا لا يحدث .. لقد حدث هذا عندنا .. قطعت الأمة العربية ..
خرط .. خرط .. كما تقطعين « صينية البسبوسة » .. لكى يقتسمها ..
الآكلون .. حتى تصبح سهلة الاتهام .. ولم يكن هناك مبرر لتقسيمها سوى ..
هذا .. كانت تماما « كصينية البسبوسة » .. نفس العجينة . ونفس النضج ،
ونفس الطعم بلا حدود تفصل بينها .. سوى الخطوط التى رسمتها سكين
الآكل .

وابتسمت « هدى » لأول مرة وقالت :

— وماذا تريد أن نصنع بصينية البسبوسة ؟

— نعيدها كما كانت .

— ولكن صينية البسبوسة !؟

— إنها مجرد تشبيه يا « هدى » .. لنعد إلى الأصل .. قلت لك تصوّرى
الولايات المتحدة .. وقد تفرّقت .. ثم تصوّرى الأمة العربية ، وقد اتحدت ..
بكل ما تملك من إمكانيات يكمل بعضها البعض .. ولكل ما بينها من تكامل فى
الناحية الاقتصادية .. فإن الأمة العربية يمكن أن تكون وحدة اقتصادية كاملة ..
لا تنافس فى داخلها .. بلادها رعوس أموال فى حاجة إلى استثمار .. وبلاد تحتاج
إلى رعوس أموال لكى تستثمر طاقاتها المعطلة .

ونظرت إليه « هدى » .. وقد بدا عليها الشرود ، وكأنها لم تعد تعنى
بما يقول .

وأحس « سليم » أن أقواله تذهب هباء .. ولم يجد بدا من أن يلتم حديثه
السياسى ويصل بسرعة إلى ما يعنىها من كل هذا الذى يحاول شرحه وهو
سامى .. وصمت لحظة ، ثم استرسل يقول :

— ذلك هو طريق القومية العربية .. الذى يؤمن به « سامى » .. يؤمن به .. لا كورقة يلعب بها أو وسيلة حزبية توصله إلى الحكم كما يؤمن بها بعض رجال الحزب .. بل يؤمن به كطريق الخلاص للشعوب العربية كلها .. يحقق لها الخلاص من كل سيطرة خارجية كانت أو داخلية .. يؤمن به .. كطريق يحقق للشعوب القوة لكى تتحرر من كل تبعية .. ويمنحها الحرية لكى تحقق لنفسها العدالة الاجتماعية .

وهزت « هدى » رأسها فى ضيق وقالت :

— وما لى أنا بكل هذا .. أنا لست ضده .

— إنك تقفين ضده من حيث لا تدريين .. إن الدفعة فى هذا الطريق تحتاج إلى قوة كبرى لمقاومة الدفعات المضادة .. تحتاج إلى قوة لمقاومة قوة الشيوعية المحلية .. التى تريد أن تدفع بنا إلى نوع من التبعية وتفرض علينا نظاما لا يمكن أن يلائم طبيعتنا .. تحتاج إلى قوة لمقاومة قوة الاستعمار الغربى الذى يصر على أن ينظر إلينا كغنيمة يجب ألا يتركها تضيع بين فكى الشيوعية .. نحتاج إلى قوة لمقاومة قوى الرجعية التى تريد أن تجمدنا .. لكى لا نتقدم خطوة إلى الأمام حتى تظل القلة المتخومة .. تمتطى الكثرة الجائعة .. هذه القوى المقاومة المخلصة يجب أن توجد فى جميع البلاد العربية لتدفع بها إلى الطريق السليم .. و« سامى » هو أحد عمد هذه القوة عندنا .. هو الذى يقود الشباب ويملؤهم إيمانا وعزما .. والقوى المضادة تتلمس له الهفوات والخطايا .. لكى تبدد إيمانهم به .. وتشكك فى كل ما يدعوا إليه .. وأنت من حيث لا تريدان قد تصبحين .. أو قد أصبحت فعلا .. إحدى وسائلهم فى هذا .

وصمت « سليم » برهة يلتقط أنفاسه .. وما لبث حتى استرسل متسائلا :

— هل أدركت حقيقة الوضع؟! هل عرفت الجانب الخطير من المسألة؟!!

هل فهمت كيف يمكن أن تكون خطورتك على « سامى »?!!

ولم تجب « هدى » .. وبدا الشرود فى عينيها .. وكانت العربة قد دخلت إلى

الحدود اللبنانية .. وأوقف « سليم » العربية وهبط ليخوض في الثلوج البيض التي كست وجه الأرض .. قائلاً :

— عن إذتك يا « هدى » دقيقة واحدة .

واختفى « سليم » في بناء الجوازات ، ولم تطل غيبته طويلاً حتى عاد إلى العربية .

واستمر الصمت حتى عبرت العربية ممر الجمرک ، ونظر « سليم » إلى وجه « هدى » فوجدها شاردة تائهة وحولت « هدى » بصرها إلى « سليم » .. ثم زفرت زفرة حارة وسألت في صوت خافت :

— والمطلوب ؟

وازدرد « سليم » ريقه ولم يجرؤ أن ينطق بما يتحتم طلبه منها كنتيجة لازمة لكل ما قال ، بل تساءل دون أن يلتفت إليها :

— أفي حاجة أنت إلى أن أذكر لك ما يتحتم عليك فعله .

— أن أتركه؟! أليس كذلك ؟

— أجل .

وصممت « هدى » برهة .. وعادت تطلق بصرها .. في المراح الأبيض الذي امتد على مدى البصر .. ثم التفتت إليه قائلة :

— لقد أمضيت نصف ساعة أنصت إلى حديثك عن مفترق الطرق الذي

نقف فيه .. وعن « صينية البسيوسة » والقومية العربية .. وولايات أمريكا المنفصلة .. وانتهيت من حديثك إلى وضع ينبغي أن أسلم له ببساطة كنتيجة حتمية لمنطق حديثك .

— لا يمكن لأحد أن يرغمك على شيء .

— مفهوم .. ولكن المفروض .. كإنسانة لها ضمير .. أن أسلم بما طلبت .

— أعتقد هذا .

— ولكن .. ألا تجد من حقى أن أبدى وجهة نظري في الموضوع ؟

— أكاد أعرفها .

— لا أعتقد .

— أعرف على الأقل مشاعر سامى نحوك .

— ولكنك لا تعرف مشاعرى نحوه ... أنت تعرف أشياء كثيرة عنه ..

وعن كفاحه .. وعن دوره السياسى .. تعرف أشياء كثيرة .. عن القومية

العربية .. والشيعوية .. والرجعية .. و .. و ... ولكن عنى أنا ، لا أظنك

تعرف أكثر من هذه الشائعات التى تبني عليها خصومتك لى .

— ولكنى ..

— اصبر علىّ ، كما صبرت عليك .. أليس من حقى عليك أن تسمعنى كما

سمعتك !؟ أنا طرف فى المسألة ويتحتم علينا قبل أن نصدر أحكاما أن نلم بجميع

أطراف القضية .. ألا تجد من الضرورة لك ، أن تعرف المسألة من وجهة

نظرى .. أنا التى أمثل الطرف الآخر .

— طبعا .

وتهدت « هدى » قبل أن تبدأ حديثها ثم أسندت ظهرها على المقعد وألقت

برأسها إلى الوراء قائلة :

— أنا لست شريرة كما يمكن أن تتصور ، لست بلا قلب . ولست نفعية ..

ولست .. ولست .. من سلسلة هذه التهم التى حاولت دائما أن تلصقها بى .

— أنا متأسف .

— لا أقول لك هذا لكى تأسف .. ولست أظننى فى حاجة لأسف أحد ..

ولكنى أقوله لك كحقيقة واقعة ينبغى أن تثق فيها .. وتضعها قاعدة لكل ما أنوى

أن أقوله لك من حقائق .. وإلا فلا ضرورة للحديث مطلقا .

— تكلمى .. إنى أعتذر بحق عن كل ما قلت .. سواء قبلت الأسف أم لم

تقبله .

— أنت تعرف أن من حقنا فى هذه الحياة أن نحب .. هذا ألزم اللوازم لنا فى

هذه الحياة .. ومن أشد ما يمكن أن نذنب به في حق أنفسنا ، وأن نخرجها من هذه الحياة صفر القلب واليدين من الحب .. هذا إذا صح .. أنه يمكن لأي إنسان أن يأتي إلى هذه الدنيا ويخرج منها دون أن يجب .

— ما منا من أحد إلا أحب .. ولكن المهم أن نحب الإنسان الملائم .

— تتفلسف .. نحن لا نختار .. لكى ننتقى الملائم ونترك غير الملائم .. إننا نحب هذا الشخص أو ذاك .. لا لأنه يلائم أوضاعنا الاجتماعية ، ويسد حاجتنا في الحياة .. وإنما نحبه لأن ثمة أشياء داخلية لا يمكن مقاومتها تدفع كلا منا إلى الآخر .. وأقول داخلية لأنها بلا مقاييس ولا معايير .. قد يتشابه توءمان في كل شيء ، ولكنك تحب أحدهما .. دون أن تحب الآخر .. كما أننا لا يمكن أن نقبل في الحب .. مبدأ البديل .. مهما كان وجه الشبه ، ومهما كانت الأفضلية .
— حقيقة .

— وأنا كمخلوقة في هذه الدنيا .. لها الحق في أن تحب .. لا أريد أن أستدر عطفك على بسرد ماضى حياتي ، ولكن ألخص لك أيامى الماضية ، بأنها ضياع أو عدو في صحراء جافة محرقة .. أبحث عن ظل أو ماء .

تزوجت وأنا صببية صغيرة .. تزوجت لأخرج من حصار أمى ، أقبلت على الزواج في فرحة الطفلة .. ترتدى ثوب العرس وتلعب بالدمى .. لم أعرف أن هناك شيئا اسمه الحب يمكن أن يربط بين اثنين ، وعشت حياتي مع زوجي ، كواجب ارتبطت به ، لا بد من أدائه ، تماما كما أتعاهد للغناء في صالة أو مسرح ولا بد أن أفي بمدة العقد ، ولم تطل مدة العقد .. مات زوجي .. وبدأت أتسم الحرية ، وأخذت أمارس مع الحرية تجاربي مع جميع أنواع الرجال .. وانتهيت إلى نتيجة ، هي أن الحرية زادتنى اختناقا وأضاعت إيماني بالإنسان .. الإنسان النظيف .. النقى القلب الذى تستطيع أن تتلمس فيه الأشياء الجميلة في الإنسان .. الحب والرقه ، والوفاء ، دون أن تكتشف فجأة أنها أصباغ وطلاء ، وسرت ، وفي حياتي نوع من اليأس الذى يجعل المرء يقذف بأعبائه وبمسئوليته

ولا يحس لأى مشكلة من مشكلات الغير بإحساس جاد ، وتبدد إيماني بالحقائق الطبية ، حتى كدت أفقد كل ما فى باطنى من أشياء خيرة ، وأنت تعرف معنى ما أقول ، حتى لقيته .. ولم ألق فيه مجرد رجل ، ولكنى لقيت الأشياء الجميلة التى كنت أبحث عنها والتي افتقدتها من قبل حتى خيل إلى أنها غير موجودة .. فجأة أحسست أن الضائعة الصادية المرهقة التى أرهقها السير فى الحر والجفاف .. قد استقرت عند نبع تحت ظل الشجرة .. لم يكن هذا النبع سرايا ، ولم تكن تلك الشجرة شبحا ، ولكن نبع حقيقى ، وشجرة خضراء وارفة .. وبجواره أحسست بأن الطمأنينة والسكينة قد عادت إلى .. أحسست أنى أشبه بطفلة تستقر على صدر أمها ، وعادت إلى نفسى كل الأحاسيس الجميلة التى كادت تذوى وتجف ، أصبحت أحب كل الناس من أجله ، أصبحت أحس بمشكلاتهم وآسبهم .. لم أشعر أنى أخاف عليه وحده من البرد والمرض ، بل شعرت أنى أخاف أيضا على « أم حبيب » الخادمة ، وعلى بواب البيت وأولاده .. وأحسست أنه منحنى أشياء كثيرة طيبة ، لا يحس بها الغير .. فمنحته كل شئ .. ولم أحاول أن أطلب منه تلك الأشياء التى تصر المرأة على طلبها — كحق لها أمام الغير .. لم أكن جاهلة بوضعه فى المجتمع — كنت أعرف مجمل ما حدثتنى عنه ، دون أن أدخل فى تفاصيله ، ومن أجل هذا بذلت ما أملك لكى أسترحبنا ، ولكيلا أحمله عبئا لا يطيقه .. بل حاولت أن أخفف عنه أعباء حياته ، ومتاعب عمله .

وأعتقد أنى نجحت .. كنت أمنحه كل يوم ساعات من الراحة والسكينة لم يكن له غنى عنها ، ومنحته الحب الذى كان فى حاجة إليه .. بمثل ما كنت أنا فى حاجة إليه .. فعلت من أجله كل ما أستطيع ، وأنا على استعداد لأن أفعل المزيد . لقد قبعت فى باب حياته الخلفى .. بلا تبرم ولا ضيق .. وأنا على استعداد لأن أبقى فيه دون أن أطمع فى أكثر من أن أراه .. عندما يستطيع هو .. دون أن أحمله أى عبء .. أو أربطه بأى قيد .. هل هذا كثير على ؟

وأحس « سليم » بأن صوتها قد أوشك يخنق بالبكاء .. ولم يجب .. فقد كان عليه أن يصمت برهة حتى يزيل عدوى البكاء التي أوشكت أن تنتقل إليه .
وزفرت « هدى » زفرة حارة .. وعادت تتساءل بصوتها المخنق :

— لماذا لم تجب !

وهز « سليم » رأسه ، وقد شرد بصره في الطريق الذي تكاثفت من حوله الثلوج .. وقال في أسى ومرارة :

— لست أدرى كيف أجيب .

وازدرد ريقه ليخفى بحة البكاء وقال كأنه يحدث نفسه :

— معك حق .

وصمت برهة ثم عاد يقول :

— مشكلة .

الناس طيبون

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف صباحا ، وسحابة ثقيلة سوداء تزحف من الأفق الغربى منتشرة فى صفحة السماء منذرة بيوم معتم ، وعربة « سامى » قد وقفت بباب مبنى الجريدة على أهبة الذهاب به إلى المطار . وجلست « فائزة » بمكتبها تتشاغل بترتيب بعض الأوراق .. تنتظر أن يخرج « سامى » من مكتبه لكي تصطحبه إلى المطار وقد تملكها شعور خليط من الراحة والضيق ، والسكينة والقلق .

لقد أراحها بلا جدال .. عودة « سامى » وذهابه لحضور المؤتمر بالقاهرة .. وقضاؤه على الشائعات التى أطلقها خصومه بأنه قرّم مع عشيقته إلى بيروت وأنه لن يذهب إلى المؤتمر .

أراحها أنه عاد سالما آمنا .. إلى موضعه الحقيقى .. وإلى مكانه القيادى فى المعركة التى يؤمن بأهدافها .. دون أن يستسلم للنزوة الطارئة التى جذبتة منها . أراحها .. ابتعاده عن مصدر الداء ولو إلى حين .. فقد يهب له ذلك فرصة مقاومته .. والخلاص منه .

ولكن الراحة .. التى استشعرتها .. كان يشوبها قلق الشك فى حقيقة الوضع الذى اجتذب إليه سامى .. والمدى الذى بلغه فى الارتباط بهذا الوضع .. والحيرة فى مكانها هى من هذا التيار الغريب .

ولم تلبث حتى رأت الباب يفتح و« سامى » يخطو إلى مكتبها ، فنهضت تستعد لاصطحابه إلى المطار .. ولكنه أشار إليها بيده قائلا وهو ينظر إلى الساعة :

— ما زال أمامنا ساعة ونصف على قيام الطائرة .. سأذهب لقضاء أمر هام وأعود بعد نصف ساعة .

ولم يستعص على « فائزة » أن تخمن هذا الأمر الهام .. وازداد بها الإحساس بالضيق والشك والحيرة والخوف .. ولكنها لم تملك سوى التمسك بالصمت .. والاستمرار في خطة التجاهل التي اتبعتها من بداية الأمر .

و غادر « سامي » المكتب متجها إلى بيت « هدى » ، وبعد دقائق كان يقف أمام باب الشقة ، ولم يدق الجرس ، بل دفع المفتاح في ثقب الباب .. وخطا إلى الداخل في صمت .. ووقف برهة حتى تعودت عيناه على ظلمة البهو ، ثم تقدم إلى الممر المفضي إلى حجرة النوم .. ولكنه لم يكذب بخطو بضع خطوات حتى أبصر « هدى » وقد جلست مطرقة أمام المائدة وقد أسندت ذقنها إلى كفيها وشردت ببصرها في البخار الذي يتصاعد من فنجان الشاي الموضوع أمامها .
ورفعت « هدى » رأسها وقد بوغتت به يقف أمامها وهتفت صائحة في فرحة :

— سامي !!

ونفضت إليه مادة ذراعها في لهفة .

واقترب منها « سامي » فضمها إلى صدره قائلا :

— ظننتك في الفراش .

— أرتق من الفجر .. وحاولت البقاء في الفراش فلم أطق .. كنت أنتظر

تليفونا منك .

— فضلت أن أفاجئك بالحضور .. لأودعك قبل السفر .

ووجمت « هدى » وشاع اليأس في قسماتها وهتفت قائلة :

— أستسافر اليوم ؟

— في طائرة العاشرة .

وعادت تضمه في خوف كأنما تخشى أن ينتزعه السفر منها وهمست في

حنان :

- هل ستطول غيبتك ؟
— بضعة أيام .
— هذه أول مرة نفترق فيها .
— لن تطول الفرقة .
— أكره بعدك مهما قصر .. إلى أحس بطمأنينة وأنت هنا على مقربة منى ..
أسمع صوتك عندما أريد .. وأشعر أن في يومى شيئا جميلا .. أنتظر الحصول عليه .. شيئا يجعل لحياتى معنى .
وجذبها « سامى » إلى المقعد المواجه للنافذة الزجاجية العريضة .. واستقر بها فوق المقعد وضمها إليه وهو يهمس :
— لا يستحق الأمر كل هذا الحزن .
— جائز .. ولكنى مع ذلك أحس كأن هذا الرحيل .. سينزعك منى .
— ما الذى يدفعك إلى هذا التشاؤم ؟
وأخفت « هدى » رأسها فى صدره وأطلقت زفرة طويلة حارة ، وتحسس « سامى » شعرها فى رفق وهمس بها :
— ما بالك .. يا هدى .. ماذا حدث ؟
— لا شيء .
وصمت « سامى » برهة ثم تساءل فجأة :
— هل قال لك سليم شيئا ؟
— قال أشياء كثيرة .
— مثل ؟
— لقد حاول إقناعى بأن علاقتنا يجب أن تنتهى .
— هذا ليس شيئا جديدا عليه .. ألم أفض إليك بما كان يردده دائما !
— كنت آخذه دائما على أنه إحساس بخصوصية .

— والآن ؟

— أحسست أنه يتحدث عن إيمان بك وبمصلحتك .

— مصلحتى أنا أعرفها خيرا منه .

وضمها إليه هامسا :

— انسى كل ما قاله .. إنك أشد ما أحرص عليه فى حياتى .

ومضت الدقائق تعدو سريعا وهى قابعة بين ذراعيه .. وأحست به يخلص

يسراه لكى ينظر إلى الساعة .. وأضاعت حركته شعور السكينة التى أخذت

تعاودها وهى مسترخية فى أحضانه ، وشدت أعصابها ووثبت من فوق ساقيه

قائلة فى مرارة :

— هل حان الوقت ؟

— لم يبق إلا ثلاثة أرباع الساعة .. والمفروض أن أعود إلى المكتب ثم أذهب

إلى المطار .

— لماذا تعود إلى المكتب ؟

وتردد « سامى » برهة قبل أن يجيب :

— لقد تركت فائزة تنتظرنى هناك .

— ولماذا تنتظرك ؟

— لأمضى بعض الأوراق .

— هل ستذهب معك إلى المطار ؟

— أيضايقك هذا ؟

وهزت « هدى » رأسها وتنهدت .. وعاد « سامى » يسأل :

— ماذا يضايقك من فائزة ؟

— ألا يضايقنى أن أكون الوحيدة فى هذا العالم التى لا تملك حق وداعك ..

أو مصاحبتك .. أو التعبير عن مشاعرى نحوك أمام الناس .

وأحاطها « سامى » بذراعه وأجابها برفق وهو يتجه إلى الباب الخارجى :

— أنت اليوم مرهقة .. أنت تحاولين مضايقة نفسك .
— معك حق .

— أنت الوحيدة في هذا العالم التى أحس أنى أمارس معها مشاعرى
الحقيقية .. ليس هناك من يملك إسعادى أو إشقائى غيرك .
وألقت برأسها على صدره وأجابت فى لهجة حزينة :
— آسفة على كل ما قلت .. اعذرنى .. إنها لحظات ضعف .
— أبدا .. إنه حقتك .

ومرة أخرى نظر « سامى » إلى الساعة ثم ضمها ضمة أخيرة .. وخطا إلى
الخارج وأغلق الباب خلفه .

وأخذ يهبط الدرج فى بطء وقد شرد ذهنه ، واجتاز الباب الحديدى وسار فى
الطريق بضع خطوات ، ثم أدار رأسه فجأة ورفع بصره إلى الشرفة .
وكانت المرة الأولى أن يحاول التلفت خلفه وهو يغادر شقتها .. كان دائما
يسير بسرعة دون أن يحوّل بصره يمنة أو يسرة .. كأنه يحس أن عيون الشك
وأصابع الاتهام تشير إليه .. مؤكدة أنه عشيق « هدى » .. ولكن فى هذه المرة
أحس بأن شيئا يدفعه إلى الالتفات إلى أعلى .. حيث الشرفة المطلة على الطريق .
ولمخها تقف هناك .. وكانت لأول مرة منذ عرفها .. تخرج إلى الشرفة لترقبه
يسير فى الطريق .. غير عابئة بما يمكن أن تثيره من انتباه .

وعجب لذلك الشيء الذى دفعه إلى أن ينظر خلفه .. ويتطلع إلى الشرفة ..
وكأنه واثق أنها هناك .. واقفة لترقبه وهو يحتفى عن عينها .. وأسعده ألا
تكذب ظنه .. وأن تكون موجودة دائما .. حيث يتطلع إليها .. ويتمنى أن
توجد .. وأسعده أيضا .. أنه أحس بوجودها وتطلع إليها .. ورد على نظرة
وداعها .. الحزينة اليايسة .

ورفعت كفها فى خفة وأشارت إليه .. وبلا وعى ولا تفكير .. رفع كفه
ورد الإشارة .. غير عابئ بالمارة .. والباعة ، وأخذ يلتفت إليها فى كل خطوة

حتى وصل إلى العربية .
وانطلق بالعربة إلى المكتب ، ليجد « فائزة وسليم » وقد وقفا أمام الباب
الخارجى لمبنى الجريدة وقد بدا عليهما القلق .. وسرعان ما قفز إلى العربة وصاح
به سليم :

- كان المفروض أن تكون في المطار الساعة التاسعة .
- ما زال أمامنا وقت كاف .
- كيف والساعة التاسعة والربع ؟
- عشرون دقيقة كافية لحملنا إلى المطار .
- وإجراءات المطار ؟
- لن تأخذ أكثر من ربع ساعة .
- وقبيل العاشرة .. كانت المضيقة تعلن في المذيع أن طائرة القاهرة أوشكت
على القيام .. وتطلب من الركاب أن يتجهوا إليها .
- ومد « سامى » يده ليشد على يد « سليم » قائلاً :
- وصيتك الجريدة .. وفائزة .
- وضحك « سليم » قائلاً :
- لا أظن واحدا منهما سيحتاج إلىي .
- وابتسمت « فائزة » ابتسامة باهتة وأجابت :
- نحن لا نستغنى عنك أبدا يا أستاذ سليم .
- ومدت « فائزة » يدها إلى سامى ، وهى تحاول أن تبتلع مرارة وداعه قائلة
وهى تتضحك :
- إذا احتجت إلىي أرسل تلغرافا وسأكون عندك في أول طائرة .
- ورد سامى :
- أنا دائما في حاجة إليك .
- وابتسمت شاكرة وصوتها الداخلى يقول في مرارة :

— كلام .. إنك لم تعد في حاجة إلى أبدا .
واتجه « سامى » إلى الطائرة و« فائزة وسليم » يلوحان له . ولم يحاول أن يلتفت ليراهما .. فقد ارتسمت في ذهنه صورة لوداع لم يستطع وداع المطار أن يجهبها .. كانت إشارة الشرفة أثبت في ذهنه من كل ما عداها .. وكان يتحرك إلى الطائرة وصوت « هدى » يهمس في أذنه :
« آسفة على كل ما قلت .. اعذرني إنها لحظات ضعف » .
واسترخى « سامى » على مقعده في الطائرة .. وألقى برأسه على حافة المسند ، ومرت به المضيفة تنبيه إلى شد الحزام .. وتمنحه قطعة من الحلوى .
و شد الحزام حول وسطه ببطء .. وأخذ يلوك قطعة الحلوى بين شذقيه وتملكه إحساس بالراحة ، والطائرة تخلق به في الجو ، ومد عنقه إلى زجاج النافذة المستديرة وأخذ يرقب الدور تتضاءل ورقعة الأرض تتباعد لتصبح كالخريطة .
ودارت الطائرة دورة حول دمشق ، لتكسبها ارتفاعا يمكنها من اجتياز الجبال القائمة في طريقها إلى بيروت ، وبدت دور دمشق كالدمنى تحيط بها رقعة الغوطة الخضراء المتكاثفة الأشجار ، واتجهت الطائرة نحو الجبال البيض التي بدت كأنها ككوس الجلاس قد غطت الكريمة الذائبة حوافها وافتрشت كل ما حولها .
واستمرت الطائرة تجتاز الجبال البيض حتى بدت بيروت بين حضن الجبل والساحل وبدت مياه البحر بأمواجها مجمعة كأنها ظهر السمكة .
وأعاد « سامى » رأسه إلى المسند .. وأخذت الأفكار تختلط في ذهنه ..
« هدى » بنظراتها الحزينة وأفكارها المتشائمة ، « وفائزة » بصمتها المخير واستسلامها العاتب .. ودوامه الأحداث التي تلف البلد فتجعل كل ما فيها متأرجحا مهتزا .. ينتظر أحداثا .. والأحداث تقف متربصة بالباب ، تأبى الدخول .. ولا تريد أن تنصرف .. وهذا المؤتمر الذى ينتظره في القاهرة .. أى تيارات يمكن أن تتجاذبه؟! إنه لا يستطيع أن ينكر حقيقة موقف البلاد الشيوعية .. لأن صداقتها واضحة .. وتأيدتها مؤكدة .. واتخاذها الجانب (جفت الدموع — ج ٢)

البطولى فى معاونة البلاد المكافحة من أجل استقلالها ضد الاستعمار الغربى أمر لاشك فيه .. ولكنه يخشى استغلال الشيوعيين المحليين للموقف كى يزجوا بالبلاد إلى نوع من التبعية يجعل العملية كلها تبدو كقطع .. يجر الصيد إلى الحظيرة .. والموقف يحتاج إلى دقة فى التصرف .. ووعى بحقيقة الأمور .. وإيمان بالطريق المستقيم والهدف الواضح .. طريق القومية .. وهدف الحرية الوطنية والعدالة الاجتماعية والسلام العالمى .

وفتح « سامى » عينيه على صوت المضيففة تعلن أن الطائرة تمر ببورسعيد ، ومد رأسه إلى النافذة ، وألقى ببصره على المدينة الباسلة .. أو المعول الذى فتح الطريق لتيار الحرية لكى يجرف معاقل الاستعمار ، وبدت المدينة وكأن العمران قد بذر فى أرضها فمحا آثار الدمار ، وبدت القناة مستقيمة تشق الرمال والبحيرات على الجانبين .

وبدت المزارع الخضراء تشققها القنوات .. وتتناثر وسطها القرى .. وأعاد « سامى » رأسه إلى المسند .. واستغرق فى التفكير مرة أخرى .

هذه الأرض قد صعدت قوى الطغيان ، لم تصدها فقط عن نفسها .. بل صدها عن العالم المكافح .. الذى يتنسم بعضه أنسام الحرية .. والذى يهفو إلى تنسمها البعض الآخر الذى ما زال يرسف فى القيد .. إن المعركة ليست معركة بلد واحد ، بل معركة عالم بأسره .. معركة قديمة مستمرة .. يخوضها كل بلد بوسيلته .. وعندما حدث الاصطدام هنا .. فى هذه الأرض ، تطلعت الأبصار ، وأرهفت الأحاسيس .. وأحس العالم المكافح أن مصيره يتقرر هنا فى هذه المعركة .. وأن تحطيم القيد هنا .. إيذان بتحطيمه فى كل مكان يرسف الإنسان فى أغلاله .. فصمم على أن يعاون الشعب المكافح ، وانتصرت الحرية .. وأشعلت هذه الأرض شرارة المعركة المشتركة .. فى العالم كله .. بين طالبي الحرية ومغتصبها .

وعلا صوت المضيففة تطلب من الركاب شد الأحزمة والامتناع عن

التدخين .. وأخذت الطائرة تهبط حتى أحس « سامى » بالطرقات الخفيفة لارتظام العجلات بالأرض .

وفى المساء حضر « سامى » أول اجتماع بين الوفود العربية لتنسيق أعمالهم كوحدة واحدة فى المؤتمر .. ثم بدأت الاجتماعات العامة طوال اليوم التالى .. وشرح « سامى » الموقف فى سوريا .. وأوضح التهديد الغادر على حدودها الشمالية من الحشود التركية التى تحشدتها سياسة أمريكا العدوانية للملء الفراغ الموهوم .

ونجح « سامى » نجاحا تاما فى إقناع الوفود بحقيقة الوضع الراهن فى سوريا .. واستطاع رغم مناورات المندوب التركى أن يحصل على قرار بالإجماع يدمغ تركيا وأمريكا .. ويطلب الأمم المتحدة بوقف التهديد الموجه إلى سوريا من القوات المحتشدة على حدودها .

وفى المساء عقب انتهاء الاجتماع اتجه « سامى » إلى فندق سميراميس لتناول العشاء بدعوة من الوفد السوفيتى .. وفى البهو ضمه مع بعض أعضاء الوفد جلسة خاصة لم يدر أكانت وليدة صدفة أم بنت تدبير .. وكان يجلس معهم صديقه « أحمد عبد الهادى » ، عضو الوفد المصرى .

وبدأ النقاش هينا لينا .. بتهنئة حارة من الزميل السوفيتى بالنصر الذى أحرزه « سامى » فى جلسة اليوم .

ونقلت المترجمة الروسية المتوردة الوجدتين كلام الزميل بنفس الحرارة والحماس .. مضافا إليهما ابتسامة رقيقة عذبة .

وأحنى « سامى » رأسه فى تواضع وخجل وأجاب بالرد التقليدى :
— ما أظننا نستطيع أن نحقق أى انتصار إلا بمعاونة إخواننا المحيين للحرية والسلام .

ونقلت المترجمة حديثه إلى الزميل السوفيتى الذى بدا على وجهه الارتياح .
وأجاب بحماس مفرط :

— إن هدف الاتحاد السوفيتى وبقية الدول الاشتراكية هو معاونة الشعوب المكافحة فى سبيل الحصول على حريتها والقضاء على الاستعمار .. إننا نمد يد العون إليها بلا قيد ولا شرط .

وأجاب سامى :

— إننا واثقون من موقف الدول الاشتراكية ونقدر حق التقدير كل ما تقدمه لنا من معونة وتأييد .

وابتسم الزميل السوفيتى عندما نقلت إليه المترجمة كلام « سامى » ثم قال وهو يهز رأسه هزة ذات معنى :

— إننا أحيانا نحس برغبة أكثر فى الاقتناع بتلك الثقة وذلك التقدير .

وصمت « سامى » وهو يسمع الرد من شفتى المترجمة من خلال ابتسامتها الرقيقة .. وأحس بأن الرد يعنى شيئاً ، ولم يعرف إذا كان من المستحسن أن يفتح الباب للاستمرار فى المناقشة أم يغلق الباب بكلمة مجاملة لا تقدم ولا تؤخر ، ولم يسعفه زهده فى الجدل ولا وجد من الوقت متسعاً له ولا من الظروف ما يلائمه ، فرد الابتسامة بابتسامة أرق قائلاً :

— إننا لا نكن إلا إحساس الصداقة والمودة للاتحاد السوفيتى ولجميع الشعوب الصديقة التى تمد لنا يد العون .

وعاد الرجل يبتسم وهو يسمع رد « سامى » . وبدأ عليه كأن شيئاً فى ذهنه يجب أن يفتح الباب ليقول .. وبين الابتسامات الحلوة عاد يحاول فتح الباب قائلاً :

— تحدث بعض أشياء تدهشنا وتشككنا فى مدى فهم حقيقة موقفنا .
وبدا أن الباب الذى يحاول « سامى » غلقه قد أبى إلا أن يفتح على مصراعيه .. فقد مد « أحمد عبد الهادى » عنقه فى المناقشة الدائرة وتساءل فى شىء من العجب :

— مثل !؟

والتفت إليه الزميل السوفيتي قائلاً ، وكأنه وجد المنفذ الذى ينفذ منه إلى المناقشة :

— مثل .. موقفكم من الشيوعيين هنا .. بعد كل ما قدمناه إليكم من مساعدات .. تحاكمونهم وتضعونهم فى السجون .

وهز « عبد الهادى » رأسه وهو يرفع حاجبيه متسائلاً :

— وماذا فى ذلك ؟! أى دخل لمساعدتكم بالشيوعيين الذين هنا ؟

وبدا التساؤل والاستنكار على وجه الزميل السوفيتي .. وقبل أن ينطق

بكلمة عاود « عبد الهادى » الحديث قائلاً :

— إن هناك حقيقة يجب أن تفهموها . وعلى مدى فهمكم لها يمكن أن تقام

علاقة الصداقة بيننا وبينكم .

وهز الزميل السوفيتي رأسه مستوضحاً هذه الحقيقة ، فرد عبد الهادى

قائلاً :

— إننا كأى شعب .. لنا أهداف طيبة نريد أن نحققها لأنفسنا .. نريد أن

نحقق مستقبلاً تتوفر فيه الحرية والرخاء والعدالة والسلام .

وكغيرنا من الشعوب قد رسمنا طريقنا إلى تلك الأهداف .. وحددنا

وسيلتنا .. كما رسمتم أنتم طريقكم وحددتم وسيلتكم ، وكما تعتبرون أنتم الخارجين

على الطريق .. المناهضين للوسيلة .. هدامين معرقلين يجب تنحيهم عن

المجتمع .. نعتبرهم أيضاً كذلك .. وإذا كان من حقكم وقاية نظامكم المحقق

لأهدافكم ، فمن حقنا أيضاً أن نفعل ذلك .. وإذا كان من حقكم أيضاً أن

تحددوا صفات الهدامين عندكم .. فمن حقنا أيضاً أن نحدد صفاتهم عندنا ..

والمسألة نسبية .. تتوقف على نوع النظام المحقق للأهداف .

فالشيوعيون الذين يعتبرون أسس البناء فى نظام شيوعى ، قد يكونون سبب

الهدم لنظام غيره .. وإذا سلمنا بأن الشعوب هى التى تختار بنفسها النظام

الملائم .. وإذا سلمنا أنه ليس من حق شعب أن يفرض على شعب آخر نظامه

مهما كان مناسباً لنفسه .. فبديهي أيضاً أنه من حق الشعوب أن تحدد صفات الخازجين على ذلك النظام ومن حقها أن تجنب نفسها شرهم ، وليس من حق شعب مطلقاً أن يدس أنفه لبيين لشعب آخر ما يجب عمله وما لا يجب تجاه بعض مواطنيه الذين يرى منهم تهديداً لنظام حكمه أو هدماً لوسيلته .. فالشعب هو المستول الأول عن أهدافه ووسيلته وعن الطريقة التي يمنع بها تهديد هذه الوسيلة ومحاربة تلك الأهداف .

وصمت عبد الهادي برهة ثم سأل الزميل الذي أخذ ينصت إلى ترجمة المترجمين وقد بدت على وجهه علامات الدهشة .

— هل تقبلون أن نسألكم عن تصرفكم إزاء بعض الروس المناهضين للشيوعية في بلادكم .. لأنهم مثلاً مسلمون ؟
وهز الرجل رأسه بالنفي .. فاسترسل سامي قائلاً :

— إذن لماذا تسألوننا عن المصريين الشيوعيين .. وهم مواطنون مصريون قبل كل شيء .. إنهم منا أولاً .. وإذا كان قد أصابهم ضمير ، فمصر هي المستولة عنهم .. وليس الاتحاد السوفيتي .

وقبل أن يجيب الرجل أطلق سامي نفخة من أنفه ثم ابتسم قائلاً :
— الواقع أن هناك مسألة يجب عليكم أنتم أن تنظروا إليها بعين الاعتبار .. يجب عليكم أن تغيروا أساليبكم في التعامل مع الغير .. يجب أن تطوروا طريقة معاملتكم مع الشعوب .

وهز الرجل السوفيتي رأسه وتساءل وهو يحس أنه يستمع إلى كلام جدير بالانتباه :

— كيف .

— لقد كنتم فيما مضى داخل ستار حديدي .. وكنتم تحشون على نظامكم من الريح الخارجية .. وكان الناس خارج الأسوار ينظرون إليكم في شك وارتياب .. كانت سفارتكم هنا مثلاً مكاناً محرماً .. وكنتم تعيشون في عزلة

خارج أسواركم .. وكنتم تعتمدون في نشر مبادئكم واكتساب ثقة الناس وصدقاتهم على التنظيمات السرية المتسللة وكنتم تأملون أن تنجح هذه التنظيمات وتقوى بحيث تصبح هي الشعوب نفسها ، أليس كذلك ؟
وهز الرجل رأسه وابتسم قائلاً :
— أكمل .

— ولم تكن هذه التنظيمات السرية كلها تقتصر على المخلصين فقط لمبادئكم ، بل كان معظمها مبنياً على النهازين .. ولم تكونوا أنتم تستطيعون تحديد صفات المتعاملين معكم .. لأنكم في حاجة إلى كل من يقبل التعاون معكم .. تلك هي خطتكم .. وهي خطة يفرضها وضعكم داخل الستار وريبة الناس فيكم .. أما الآن فما حاجتكم إليها .. والشعوب تمد إليكم أيديها في ثقة ومحبة .. ما حاجتكم إلى تنظيماتكم الشيوعية التي كانت تعمل تحت الأرض .. إذا كانت الشعوب كلها تمد إليكم يدها مرحبة .. فوق الأرض .. لم تعد سفاراتكم هنا مكاناً معزولاً .. ولم يعد زوّاركم يزورونكم سرّاً .. ولم تعد أفلامكم تمنع .. ولا منشوراتكم تسبب التهم .. لقد بتم تتعاملون جهاراً مع كل الشعوب .. فلماذا تحاولون التمسك بعلاقات غير واضحة مع البعض .. لقد كسبتم صداقة الشعوب .. بالمعونة والصراحة .: فلماذا تحاولون هدمها .. بالتسلل والتآمر ؟

إن العالم كله يؤمن بالاشتراكية .. وتكافؤ الفرص بين جميع الأفراد .. ووقف الاستغلال والاحتكار .. فلماذا لا تتركون الحرية لكل شعب ينفذ أهدافه بوسائله الملائمة .. فتكسبوا صداقة جميع الشعوب .. بدل أن تحاولوا التسلل بتنظيمات شيوعية فتتهموا بمحاولة طرد الاستعمار الغربي لفرض استعمار شرقي .

وانتهت المترجمة المتورّدة الوجدتتين من ترجمة الحديث بهذا الحماس .. ولم يعرف « سامي » إذا كان حماسها نوعاً من الأمانة في الترجمة .. أم نوعاً من

الرضاء عنه .. ولكنه لم يستطع أن ينكر الابتسامة الراضية التي ارتسمت على شفيتها .

وهز الزميل السوفيتي رأسه .. وصمت .. وقبل أن يهم بالحديث اقترب أحد زملائه ليعلن بداية العشاء .. ونهض الجميع وأمسك الرجل بذراع سامي في صداقة وقال له :

— سنكمل حديثنا في فرصة أخرى .

وصمت برهة ثم استرسل يقول :

— إننا على أية حال ، نفضل الرجال الأمناء .. فإنهم أقدر على دعم الصداقة

بين شعبينا .

واتجه الجميع إلى مائدة العشاء .

وبدأ العشاء بشرب الأنخاب .

وجلس المترجمة بين « سامي » وبين أحد أعضاء الوفد السوفيتي ..

ولاحظت أن « سامي » يشرب عصير البرتقال فسألته ضاحكة في دهشة :

— لماذا لا تشرب شيئا يستحق الشرب ؟

— ألا يستحق هذا الشرب ؟

فرفعت كأس الفودكا قائلة :

— الذي يستحق هو هذا .

وضحك « سامي » وتساءل :

— أهذا يدخل في عملية الترجمة ؟

وأجابت المترجمة في ابتسامة عذبة :

— إني أتحدث الآن لحسابي .

وتذكر « سامي » إلحاح « هدي » عليه في أن يشرب كأس الويسكي

وتذكر قولها « إني أريد أن أشرب معك مرة واحدة .. لأنني لا أكاد أجلس

لأشرب حتى أذكرك » .

وعادت المترجمة تسأل ضاحكة وهى تمسك زجاجة الفودكا :

— ألا تشرب كأسا ؟

وردّ « سامى » فى رفق :

— لم أتعودّ الشرب .

وبصوت أرق هتفت :

— من أجلى !

وأدهشت « سامى » لهجتها .. وأحس كأن ثمة خيطا إنسانيا يمكن أن يجمع بين شعوب الأرض قاطبة على اختلاف مذاهبها وأجناسها .

وقبل أن يفتح شفتيه بالرد .. رفعت المترجمة الزجاجة وملأت له كأسه

قائلة :

— هذه الفودكا تذيب الهموم وتنعش الأرواح .

وجرعت كأسها دفعة واحدة ثم أنزلته وهى تقول :

— وتغسل الأوجال السياسية .. من أذهان الناس .

وضحك « سامى » .. وسألها قائلا :

— أتجيب الناس ؟

— الناس طيبون فى كل أنحاء العالم .. أتشرب كأسا أخرى ؟

— لا أريد أن أذهب إلى الفندق محمولا على الأعناق .

وهمت بالرد .. عندما تحدث جاراها فبدأت تباشر عملية الترجمة لحساب

الجار .

الإساعة .. إلا موضعها

انتهى العشاء .. وعاد « سامى » إلى حجراته في فندق شبرد ، وضمته الغرفة الدافئة المطلّة على النهر العريض ، وأحس لأول مرة بشيء من السكينة والاستقرار ، واستطاع أن يركز ذهنه لأول مرة في أحب مجالات التفكير إلى نفسه .. بعد أن كان يختطف التفكير اختطافا وسط تلك الدوامة من المناقشات والبيانات والخطب والقرارات .

واسترخى « سامى » في المقعد الكبير بعد أن جذبته نحو باب الشرفة الزجاجى ومد ساقيه ، وشرّد بصره نحو أضواء الطريق التى انعكست فى مجرى النيل ، وتملكه إحساس عجيب بالحنين .. وخيل إليه أنه يكاد يسمع حفيف أنفاس رقيقة يسرى دفؤها بين أحضانه ، ومد يده إلى الحقيبة فأخرج من كيسها الداخلى صورة صغيرة أخذ يتأمل بسمتها الحلوة ، ثم قرّبها من شفّتيه ومسها فى رفق وما لبث أن أعادها إلى موضعها وهو يحس كأنها جزء من كيانه .

وملأته رغبة فى أن يحدثها ويستمع إليها .. أن يقول لها أشياء كثيرة جميلة .. أن يذكر لها قيمتها فى نفسه .. ومعزّتها عنده .. وأحس براحة وهو يجذب كراسة الاجتماعات ويقلبها على صفحة بيضاء ، وأمسك بالقلم . ومضت برهة وهو يقرض طرفه بأسنانه وقد بدا عليه الشرود والحيرة .. حتى بدأ الكتابة :

« هدى ..

أتعرفين أن الكتابة إليك مشكلة .. وأنى ظللت أتلهف عليها وأحضر لها فى ذهنى .. حتى أمسكت القلم .. وبدأت الكتابة ، فإذا بى أقف أمامك عاجزا .. تماما كما كنت أحضر لك الحديث ثم ألقاك .. فإذا بكل ما فى ذهنى قد تبدد ، وإذا

بنا تبادل الصمت بدل الحديث ، وإذا بكل منا يحملق في الآخر ويتسم في سداجة .. كصغار التلاميذ ، ومحدثي الحب !
مشكلة أن أكتب إليك .. كيف أناديك ؟ إن نطق ألفاظ التذليل سهل .. ممتع .. ولكن كتابتها قد تمسخها ، وتضيع رقتها وحلاوتها ، والمناجاة الحلوة الهامسة التي نتبادلها .. قد يكون لترديدها حلاوة في الأذن ، ولكني أخشى لو وضعتها على الورق أن تكون جافة معادة ، وألا يزيد وقعها في النفس .. عن وقع العلامات الموسيقية لنوتة مكتوبة .. وشتان بين وقع اللحن في الأذن ، وأثر علامات النوتة على البصر .

أيمكن أن أخص حديثي إليك .. بعد هذا العجز والحيرة في أن بي لهفة عليك وشوقا إلى لقائك !! وإن كنت — فيما بيني وبين نفسي — لا أدري لهذه اللفهة مبررا .. فطيفك يروح ويغدو أمامي .. في إصرار .. كأن الدنيا قد خلت لإلامنه . أو كأنه يفرض عليّ نوعا من الرعاية ، أو الحماية ، أو ربما الرقابة . وصورتك في ثوبك الرمادي الفضفاض .. وبردى ينساب أسفل الشرفة ، وأنت تلوّحين بيدك .. قد انطبعت في ذهني لتحجب كل ما عداها ، وتقف حائلا بينها وبين غيرها من المرئيات .

بي لهفة عليك رغم حالة الاحتلال التي فرضتها عليّ .. والحصار الذي ضربته حولي .. ولا أظن هناك محتلا .. قد اشتاق إلى مستعمره كما اشتقت إليك .

تري ماذا أهاج حنيني إليك .. وملأني باللهفة على الحديث معك ، ودفعني إلى أن أمسك القلم لأكتب إليك !؟

أهو المقعد المريح واسترخائي فوقه .. بمحضن فارغ .. وذراعين لا تضمنا سواي ، وأنفاس إخالها تتردد .. ثم أنصت فلا أسمع غير حفيف الأشجار تهزها نسيمات الليل ؟

أم تراه الأفق الممتد بأضوائه المنعكسة في مياه النيل الزرقاء .. إخالها من فرط

الشوق مصاييح الطريق تتلأأ في مجرى بردى ؟
أم هي الساعات الطوال التي مرت بي وأنا أنطلق في بيداء العمل وأنت واقفة
بباب الذهن .. أتطلع إليك خلصة .. حتى خلوت بنفسى ، فاندفعت إليك
اندفاع الصادى إلى غدیر .
أيا كان سبب الحنين .. لقد وجدت نفسى أجلس لأفكر فيك ، ثم أمسكت
بالقلم لأكتب إليك .

ثم .. وقفت بعد ذلك حائرا مشدوها .. لا أعرف ماذا أقول .
فالكتابة إليك مشكلة .. إن لددى الكثير مما أود قوله . ولكن هذا الكثير لو
قلته لبدا كأحلام الشعراء .. هل أصف لك القمر يتسلل من وراء السحب ..
والنهر العريض تلونه المصاييح المترنحة على صفحته ؟ .. هل أحدثك عن الشوق
والحنين ، وكل ما يصطبخب في نفسى من أحاسيس هفى عليك .
كيف أصوغه ؟! كيف أكتبه على الورق ؟!
كلام كالذى يكتبه الناس !

هراء .. فى هراء .. إنه أكبر كثيرا مما يكتبه الناس .. أكبر كثيرا من الكلمات
الضيقة التي تحملها بوصفه ما لا طاقة لها به .
بل .. كيف أصفك أنت نفسك .. لو حاولت .. أنفك الدقيق .. وعيناك
الصافيتان ، وسماتك النبيلة .. و .. و .. وماذا .. ؟!
أهذا حقا كل ما بك ؟!

هراء .. أيضا .. فى هراء .. أنت شيء أكبر كثيرا من الإطار الذى تصنعه
تلك الكلمات التي تحدد شكلا جميلا .. قد تتساوين فيه مع غيرك من
الجميلات .. أنت شيء معنوى ترجح كفته .. كل ما فى حياتى من معنويات
مهما بدا من قيمتها وأهميتها .

هل استطعت أن أشعرك بحقيقة موقعك فى نفسى .. بل فى حياتى ؟!
ولكن أتمسكين أنت بحاجة إلى هذا التعبير والتقويم ؟!

ألم تعرفي موقعك عندى بعد ؟
عن نفسى أنا .. أحس بالرغبة الدائمة فى أن تؤكدى موقعى عندك .. وأن
تحدثينى دائما عنه .

أحس فى كل لحظة بأنى أكاد أهتف :
موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندى موقعك
هل أقف من حياتك كما تقفين من حياتى .. فى القمة ؟!
هل تشعرين بحصارى كما أشعر بحصارك ؟!
هل أغمضت عينيك عن كل ما عداى .. كما أغمضتهما عن كل ما عداك ؟
هل يلازمك طيفى كما يلازمنى طيفك ؟ هل .. وهل .. ؟
أسئلة كثيرة تطوف بذهنى .. وأود لو سمعت ردها همسا من شفطيك ..
ولكن أعجز ما فى الكتابة أنها تريق مناجاتنا ومشاعرنا على الورق وكأنها صبيحة فى
واد .. لا نسمع لها حتى رجع الصدى .. إننا نبيع الحب فيها .. بثمان مؤجل ..
الله وحده يعلم متى نقبضه .

أتفلسف عليك ؟!

ولم لا ؟!

فى جلستى هذه .. والحنين لا يعيدك .. والشوق لا يردك .. والسحب
تعدو على وجه القمر .. والماء ينساب على وجه المصابيح .. ولا شىء يؤنس
وحشتى سوى هذا الحفيف الذى يخدعنى فى هبات أنفاسك .

ماذا أملك غير أن أكتب لك وأناجيك .. وأتفلسف عليك ؟
وأقول لك إن الكتابة إليك مشكلة .. ثم أكتب إليك أربع صفحات ..
تملؤها الحروف من أولها إلى آخر سطر فيها .

ماذا إذن .. لو لم تكن الكتابة إليك مشكلة ؟!

أتدرين الحق ؟!

ليست مشكلة أبدا .. أن أحدثك أو أكتب إليك .

فما أحبيت شيئاً في حياتي .. ككل ما أفعله معك .. من النظرة الصامتة ..
إلى الضمة الحلوة .. إلى الثرثرة البلهاء .

وبعد .. أبقى شيئاً لم أتحدث عنه !؟

الكثير .. الكثير جدا .. فما أظنني بعد كل ما قلت ... قد قلت شيئاً .
ولكن لماذا لا أحتفظ به حتى ألقاك .. لقد أخذ تعب الليل يتسلل إلى
جسدي .. وأود أن أتمطي ، ثم أسترخي على الفراش .. وأتخيل جمرات المدفأة في
صوف تلمع في ركن الغرفة .. وأنصت إلى البرد يتساقط على زجاج النافذة ..
وأضم ذراعي فأجد جسدي منطويًا في صدري .. وأنفاسك تتردد دافئة على
عنقي .

وأغمض عيني .. على ليلة .. كأنها حلم في الدجى .. أو خلسة المختلس ..
وأكاد أسمع من حفيف الشجرة .. صوتاً يهتف :

قد يهون العمر إلا ساعة أو تهون الأرض إلا موضعاً
« سامي »

محاولة لثأر

ألقت « هدى » نظرة على صندوق البريد .. وأصابتها رجفة .
فقد تعودت أن ترقبه منذ أن سافر سامى .. كانت تنتظر منه كلمة تخرجها
من هذا الفراغ الذى تعيش فيه .

متى سيأتى؟! كيف يعيش؟! أما زال يذكرها؟! أما زال يحبها?!
كانت تود أن تسمع منه كلمة تطمئننها عليه ، وعلى نفسها .
ومضت بها الأيام القلائل ، وكأنها دهور .. لم تكن تعرف قط أن الزمن
ذو وجهين ، وجه يمر بنا فى اللقيا كأنه البرق ، ووجه يتهادى بنا فى الفرقة
كالسلفحفاة .

لم تتخيل « هدى » قط أن عقرب الساعة ، الذى كان يعدو بها بين
أحضانها .. هو نفسه .. المتعد المتعطى .. المتناوم فى غيابه .
لقد بدا لها الزمن المتعجل ، وكأنه قد انتهز فرصة بعده ، وحصل على
إجازة .

وراحت تستعثر الأيام المتباطئة .. وهى تبحث فى الصحف عن أخباره ،
وتنصت إلى الإذاعة عليها تلتقط نبأ عنه .. وتدق له التليفون عليها تفاجأ
بصوته ، وتحملق فى صندوق البريد آملة فى رسالة منه .. وهمت ذات مرة أن
تسأل عنه « سليم » .

ووسط كل هذه « الدوخة » لمحت رسالته فى صندوق البريد ، ففتحت
الصندوق فى لهفة ، واختطفت الرسالة لتجد طابع البريد المصرى عليها ..
فانطلقت تعدو بها إلى أعلى .

ورأتها « أم حبيب » تتجاوز حجرة المائدة ثم تتجه مسرعة إلى حجرة النوم ،
فهمتف بها متسائلة :

— أنجهز الغداء ؟

وفي عجلة سمعت ردها :

— بعدين . بعدين .

ودخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب .

كان الخطاب في حد ذاته .. وجبة .

وفتحت الظرف ، وقلبها يدق .. وأبصرت خطه .. فرفعت الرسالة إلى
شفتيها ، وضغطت فيها وجهها كأنها تضمه ، وأخذت تشم الورق كأنها تشم
أنفاسه .

ومضت برهة وهي تمسك بها ، دون أن تحاول قراءتها .. كأنها سعيدة بمجرد
إمسакها ، وتحسسها .

وهدأت أعصابها قليلا .. فبدأت القراءة، واستمرت تقرأ .. وتقرأ .. حتى
دقت الساعة أربعا .

وهزت « أم حبيب » رأسها وهي تغادر المطبخ متجهة إلى حجرة النوم وقد
أصابها القلق لعدم طلب « هدى » الغداء .

واقتربت من الباب فلمحتها مستلقية على وجهها في الفراش وقد أمسكت
الرسالة بين يديها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة وشاعت السعادة في
قسماتها .

وهمست « أم حبيب » لنفسها :

— إلهي يعدها لك .. كل هذا من أجل رسالة .. والله لو كان بها مليون ليرة
لما منحتك كل هذه السعادة .

وأحست « هدى » بهمسها فرفعت رأسها متسائلة :

— نعم يا أم حبيب !

— نعم الله عليك .. ألا تريد الغداء ؟
— الغداء !؟

قالتها وكأنها نسيت أن الإنسان يتناول شيئاً اسمه الغداء .
وأطرقت « أم حبيب » وقالت في هدوء :
— أجل .. الغداء .

— طبعا .. طبعا .. سأتى حالا لتناوله .
ثم قفزت من الفراش متسائلة في فرحة :
— ماذا أعددت اليوم يا أم حبيب ؟

ولم تتوقف « أم حبيب » للإجابة ، بل سارت إلى المطبخ كأنها قطار سكة الحديد وهي تتمتع :

— أعددت طعاما من الذى تأكلينه كل يوم .. هل أنت دارية بشيء من حولك ، ما دام حبيب القلب غائبا !

وسارت « هدى » إلى حجرة المائدة وهي تدندن بالغناء ، وقبل أن تستقر على المقعد دق جرس التليفون ، ومدت يدها فرفعت السماعة قائلة :
— هاللو .

وسمعت صوت رياض يجيبها متسائلا :
— هدى ؟

— أهلا وسهلا .

— أهلا بك .. كيف حالك ؟

— الحمد لله .

— ماذا تفعلين ؟

— أوشك على الغداء .

— الآن .. لقد كنت أخشى أن أوقظك من النوم .. ماذا أخرك حتى الآن ..

أتعرفين كم بلغت الساعة ؟

ونظرت « هدى » إلى الساعة فوجدتها الرابعة والربع فأجابت قائلة :
— الواقع أنى حضرت من الخارج متعبة .. ففضلت أن أستريح ثم أتناول
الغداء .

— سأحدثك بعد الغداء إذن .
— لا .. لا .. إن أم حبيب لم تجهز المائدة بعد .. ثم إننى أستطيع أن أحدثك
وأنا أتناول الطعام .

— ماذا ستفعلين بعد الغداء؟!
ولم تكن « هدى » تحس بارتباط بموعدها .. فى غياب « سامى » .. كانت
تحس بأنها تعيش فى فراغ عريض .. فقالت بلا تفكير :

— لا أظننى سأفعل شيئاً .
— إذن أزورك لنشرب الشاى سوياً .

— أهلاً وسهلاً .

— فى أى ساعة؟

— وقتما تريد .

— السادسة؟

وقبل أن تجيب تذكرت موعدها مع الطبيب فى السادسة فأجابت :
— لكن السادسة والنصف .. لأن لى موعداً فى السادسة مع الطبيب فى
عيادته .

— حسن .. سأكون عندك فى السادسة والنصف .
ووضعت « هدى » السماعة بعد أن ردت تحيته .. وبدأت تتناول الطعام ..
وذهنها ما زال يستعيد رسالة « سامى » .

ولم تستطع زيارة « رياض » أن تحوّل تفكيرها .. أو تعكر صفوه فقد
تعوّدت فيه تلك الزيارات ، واستطاعت أن تروضه على وضعها الجديد ..
والقائم على أساس وجود « سامى » كشيء حيوى فى حياتها .. ولم يجد هو بدا

من التسليم به .. والرضاء بأن يتخذ هو وضع الصديق الذى لا حق له فى غيرة أو مناقشة أو حساب .. ولم يصعب عليها أن تفهم « سامى » حقيقة وضعه .. كصديق قديم كبير .. لا وجه مطلقا للخشية منه .. وأقنعتة مخلصه أنها على أتم استعداد لقطيعته فى اللحظة التى يطلب منها ذلك .. وصارحته بكل زيارة لها وكل زيارة له .

وكانت على ثقة تامة من اقتناع « سامى » بحقيقة وضع « رياض » .. وبعدم ضيقه منه أو كرهه له ، ولكنها لم تعرف بالضبط إلى أى مدى كان اقتناع « رياض » بوضع « سامى » ، وإلى أى مدى قد سلم به ورضخ له .. لم تعرف حقيقة باطنه ، وإن كانت قد اقتنعت بما أبداه من رضاء لم يملك هو أن يبدى غيرة .. ما دام قد أضحى عليه أن يختار بين الحرمان منها أو التسليم به ... وقبيل السادسة كانت قد استعدت للذهاب للطبيب لإجراء فحص كان عليها أن تقوم به بعد مدة معينة من إجراء العملية وقبل أن تعاود حياتها الطبيعية وتباشر عملها .

وقبل أن تخرج نادى على « أم حبيب » من المطبخ قائلة :
— سأذهب إلى الطبيب وأعود بعد نصف ساعة .
— بالسلامة .

— لا تغادرى البيت حتى أعود لأن « رياض بك » سيأتى فى السادسة والنصف وأخشى أن يحضر قبل أن أعود فلا يجد أحدا ..
— وماذا سأفعل إذا أتى قبل أن تعودى ؟
— أدخليه وأعدى له الشاى .

وتتمت « أم حبيب » بكلمات غير مفهومة .. ولم تحاول « هدى » أن تفهمها وإن كانت قد حاولت أن تتأكد من أن كلامها هى قد بات مفهوما للعجوز المتمتة فعادت تساءل :
— أفهمت يا أم حبيب ؟

— فهمت .. وإن كنت أفضل أن تأتي مبكرة حتى تستقبله .. لم يعد في نفس مجالسة الناس .

— لم أطلب منك أن تجالسيه .. فقط قدمي له الشاي .. حتى أحضر ...
— إنه يحب الثثرة والتساؤل والمجالسة .

— قلت لك مائة مرة لا تجيبي على أى سؤال يوجه لك . على أى حال سأعود قبل أن يحضر .
— مع السلامة .

وخرجت « هدى » متجهة إلى الطبيب .. ولم تكن عيادته تبعد عن بيتها كثيرا .. وفي السادسة تماما كانت تعبر بابها محيية الممرض وهى تسأله :
— الدكتور موجود ؟

وأقبل عليها الممرض مرحبا مهللا :
— أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. تفضلى .. لا بد أنه آت فى الطريق .
وجلست « هدى » فى حجرة الانتظار .. ومضت بضعة دقائق ثم سمعت وقع أقدام تدخل القاعة فهمت بالnehوض .. ولكنها لم تجد القادم أكثر من زائر ، فعادت إلى مقعدها .

وأخذت الدقائق تمر .. وبدأ القلق ينتابها .. فأمسكت بإحدى الصحف الملقاة على منضدة أمامها وأخذت تتشاغل بقراءتها .. وجذب التفاتها عنوان عريض عن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الآسيوى الإفريقى فأقبلت على قراءة الصفحة فى لهفة .. وأخذت تكرر السطور عليها تعثر على اسم « سامى » .
ولم يصعب عليها العثور عليه .. فقد تكرر فى الصفحة عدة مرات ، وحاولت أن تقرأ الموضوع بأكمله .. ولكنها لم تستطع أن تتبعه حتى النهاية .. كان كل ما يهمها أن تعرف الأشياء الخاصة بسامى .. ماذا فعل وماذا قال .. وماذا يقولون عنه .

وانتهت من القراءة .. ثم نظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت السادسة

والنصف ، فوثبت من مقعدها متجهة إلى الخارج .. وكان الزوّار قد تكاثروا في حجرة الانتظار .. ووقف الممرّض بالباب ينتظر وصول الطبيب ، وقد بدا عليه القلق .. وعندما أبصر « هدى » تهم بالخروج .. اعترض طريقها معتذرا في لهجة آسفة :

— آسف على هذا التأخير .. ولكن لا بد أن يكون قد حدث طارئ آخره ..
— إنه لم يتعوّد أن يتأخر .. ولا بد أن يكون في الطريق .. لأنه لم يعتذر في التليفون .
— لقد انتظرت أكثر من نصف ساعة .

— خمس دقائق أخرى .

— إن لدى موعدا في السادسة والنصف ولا بد أن أذهب إليه .

— سيتضايق الدكتور جدا .. إذا حضر ولم يجدهك .

وابتسمت « هدى » قائلة :

— دعه يتضايق حتى يكف عن التأخير عن زبائنه .

— لا بد أن يكون آتيا في الطريق .

— منذ نصف ساعة ، وهو آت في الطريق .. لعله لا يكون آتيا من حلب .

— أبدا .. أبدا .. إنه آت .. من ...

ولم يكمل الرجل حديثه فقد اقتحم الطبيب الباب ، وهو يجفف عرقه قائلا :

— هدى هانم .. آسف جدا .. لقد دعيت لعملية طارئة .. تفضلى .

— سأتى لك في وقت آخر .

— غير معقول .. تفضلى .. تفضلى .

— إني على موعد في السادسة والنصف .

— لن أؤخرك أكثر من خمس دقائق .. تفضلى .

ولم تملك « هدى » إزاء إلحاح الطبيب إلا أن تفضل .. لقد تأخرت فعلا عن

موعد « رياض » .. ولكن إذا كان قد استطاع أن ينتظر خمس دقائق .. فلا شك

أنه يستطيع أن ينتظر أكثر .. والبركة في « أم حبيب » .. إنها تستطيع أن تسليه

بثرثرتها .. رغم ادعائها أنها تكره المجالسة .

ولكن « أم حبيب » كانت في ذلك الوقت قد انهمكت فعلا في إعداد الشاى .. فقد وجدت في إبريق الشاى واقيا لها من أسئلة الرجل .. واقيا لسيدتها من شر ثرثرتها معه .

وجلس « رياض » وحده في حجرة الجلوس .. وقد بدا عليه الضيق .. فقد كان يتوقع بعد أن أجمت « هدى » الموعد حتى السادسة والنصف أن يجدها في انتظاره .. ولكنه أحس بالخيبة ، وهو يجد « أم حبيب » تفتح له الباب وتعود إلى الداخل وتجبره أن سيدتها قد ذهبت إلى الطبيب وستأقى حالا .

ومرت الدقائق بطيئة مملة ، وحاول « رياض » أن يتشاغل بالاستماع إلى الراديو فوجد به برنامجا للأطفال فأسرع بإغلاقه ونهض إلى جهاز التسجيل فأخذ يتشاغل بفحص الأشرطة .. ثم أمسك بواحد منها ، ووضعها في الجهاز وأخذ في إدارته .

ودار الشريط بأغنية راقصة .. وزادت الأغنية من ضيق « رياض » . واتجه إلى الجهاز لتغيير الشريط .. عندما وجد الأغنية قد توقفت ، ثم استمع إلى صوت رجل يهمس في الشريط :

— هيا .

وأحس بأعصابه تتوتر وبسمعه يرهف عندما سمع صوت « هدى » ترد هامسة :

— قبلنى أولا .

ووصلت إلى مسامعه صوت قبلة أعقبها صوت « هدى » ليقول في نشوة :

— قبلنى أكثر .. وأكثر .

ورد عليها الصوت الآخر الذى لم يشك في أنه صوت « سامى » هامسا في رفق :

— يا حبيبتى .. لقد بت أقصى ما أريده في هذه الحياة .. بت أقصى أمانى ومنتهى آمالى .. لا أريد من حياتى شيئا أكثر من بقائك معى .

وردت عليه « هدى » هامسة في صوت ذائب :
— نفس ما أحس به .
ثم تعالت دقات البيانو .. واسترسلت « هدى » في الغناء بصوت حزين
تكاد الدموع تقطر من نبراته .
واستمر « رياض » ينصت حتى انتهت الأغنية .
ثم سمع صوت « هدى » يهمس قائلا في لهجته الذائبة .
— أحبك ولا أريد فقدك .
ورد عليها « سامي » :
— أفقد روعي قبل أن أفقدك يا حبيبتى .. يا أعز الناس .. « هدى » ..
أحبك .
وهمست به « هدى » .
— سامي .. قل لى لى سَأُجِدُكَ دائما عندما أناذيك .. لا أريد أن أناذيك
فيجيبني الصمت .
— سأرد عليك دائما ، دائما .. ما دام فى نفس يردد .. هدى ...
— سامي !!
وانتهى الشريط .. وأحسن « رياض » بشيء يطبق على صدره .. ويلوى
أمعاءه .. وتصاعد الدم إلى وجهه حتى أحس أنه يوشك أن يختنق ، ونظر إلى
الجهاز .. وكان خصمه اللدود يكمن داخله . وتمنى لو استطاع تحطيمهما
معا .. وود لو أمسك بالشريط فمزقه إربا .. لعله يسكت بذلك صوت صاحبه
إلى الأبد .
إذا فهى تجبه كل هذا الحب .
لماذا؟! .. أى شيء يميزه عنه .. هو الذى قضى السنين الطوال يكاد يركع
عند قدمها .. إنها رضيت به عشيقا .. ولم ترض به هو زوجها .. وهى تريده أن
يسلم بهذا .. ويبقى بجوارها راضخا مستسلما .

ولقد حاول هو أن يفعل هذا .. أن يسلم بمجرد رؤيتها .. وظن أنه رَوْض نفسه على الصبر حتى يغير الله ما بينهما .

ليس هناك شيء في الوجود يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية .. أمر لا بد أن يحدث .. لينته هذا الشيء الذى يربطهما .. وبهذا الأمل استطاع أن يصبر ، وأن يتجلد ، وأن يقاوم نوبات اليأس المدمر الذى كان ينتابه من حين إلى حين . أما الآن .. وهو يستمع إلى هذه المناجاة الخائفة .. فقد أحس أن صبره قد نفذ .. شيء ما لا بد أن يفعله حتى ينفس عن ذلك الحقد الذى يغلى في جوفه .. فيكاد يقتله .

يدمر الجهاز .. أو يمزق الشريط .. أو يقتلها ، أو يقتله ، أو يفعل كل ذلك معا .

وبعد .. ما النتيجة؟! أيستطيع هو أن يقتل أحدا؟!!

كلام فارغ .. إنه لا يجرؤ أن يذبح دجاجة .

وإذا مزق الشريط .. وحطم الجهاز .. أسمنع ذلك صاحب الصوت أن

يكسر الحديث .. ويعيد المناجاة؟!!

وأمسك بالشريط ، وخلعه من الجهاز .. وقد طاف بذهنه خاطر مفاجئ .

كيف طاف بذهنه أن يمزق هذا الشريط .. أن يضيع هذا الكنز؟!!

إنه لا يقضى على صاحبه .. لو حاول أن يمزقه .. إنما القضاء عليه بإذاعته

وليس بإسكاته .

أجل .. أجل .. إنه لقطعة .

ترى ماذا يقول فؤاد لو استمع إليه !

وفي لمح البرق رفع سماعة التليفون ، وطلب نادى الشرق وسأل عن فؤاد ..

وبعد لحظات كان صوت فؤاد يجيبه قائلاً :

— أهلا « رياض » .. كيف حالك؟!!

— اسمع يا « فؤاد » .. لقد عثرت لك على شيء لا يمكن أن يخطر ببالك .

- ما هو؟! —
— وثيقة يمكن أن تدفع من أجلها الشيء الكثير .
— قل ما هي وخلصنا؟! —
— شريط مسجل بصوت صاحبك .
— من؟! —
— « سامي » .
— ماذا به؟! —
— مناجاة بينه وبين صاحبتنا .. تثبت كل ما بينهما من علاقة .
— أتتكلم جادا؟! —
— طبعا .
— وكيف حصلت عليه؟! —
— مجرد صدقة .
— وما الذي دفعه إلى تسجيله؟ —
— لكي يخرب بيته .
— أمتأكد أنه بصوته؟! —
— طبعا .
— من أين تتكلم؟ —
— من بيتها .
— بيت « هدى »؟ —
— أجل .
— غير معقول .. أتقول كل هذا من بيتها؟ —
— إنها غير موجودة .
— اسمع .. أستطيع أن تحضر الشريط؟ —
— طبعا .

- متى ؟!
- الليلة .. عندما أنتهى من مقابلتها .
- أين ؟
- فى بيتى .. سأسمعه لك عندى على جهاز التسجيل .
- فى أية ساعة ؟
- الثامنة ؟!
- سأترك كل ما لدى .. وآتى إليك .. لقد وقع فى شر أعماله .. سيفيدنا جدا هذا الشريط .
- ماذا تنوى أن تفعل به ؟
- دع الأمر لى .. سأعرف كيف أقضى على كل ما حققه فى القاهرة ..
- سأعرف كيف أثار مما فعله بنا .. سأأتى إليك فى الثامنة .. مع السلامة .
- ووضع « رياض » السماعة وأخفى الشريط فى جيب معطفه الموضوع على الأريكة .. وخطت « أم حبيب » خطوطها الأولى بعد أن طال انتظارها بالبواب ، وهى تحمل صينية الشاى وتنصت إلى الحديث الذى دار فى التليفون .
- ووضعت الصينية فى صمت .. وهى تنقل بصرها بين الرجل .. والشريط المطوى فى المعطف .
- ووقفت تنتظر أن يدق الجرس لتدخل سيدتها لتتخذ الشريط من بين يديه .
- وفجأة تناول الرجل المعطف ، ثم أسرع متجها إلى الخارج قائلا :
- قولى لسيدتك إنى انتظرتها ، حتى الساعة .. واضطرت إلى الانصراف لأن لدى موعدا هاما .
- ألا تنتظر حتى تحضر .. إنها لا بد آتية فى الطريق ؟
- سأتصل بها فى التليفون .
- وقبل أن ترد العجوز ، سمعت صوت الباب يغلق ، والرجل يهبط السلم مسرعا .
- ولم تملك إلا أن تضرب كفا بكف .. وقد بدا عليها العجز والذهول .

مطاردة

لم تمض بضع دقائق على خروج « رياض » حتى دق جرس الباب .. وسارت « أم حبيب » لتفتحه .. فانفلت منه « هدى » في عجلة وتساءلت لاهثة :

— هل أتى رياض بك؟!

وردت « أم حبيب » بلهجة هادئة لا تخلو من التهكم :

— وخرج .

— خرج؟! لماذا؟

— لماذا؟! لأنه لم يجدهك .. ألم يكن موعدك معه في السادسة والنصف!

ونظرت « هدى » في ساعة يدها فوجدتها قد جاوزت السابعة فقالت في ترم

وملل :

— تأخرت عليه نصف ساعة .. ولم أكن أظن أن لديه من جلائل الأعمال ما

يمنعه من الانتظار .. فلماذا لم ينتظر؟!

— لقد انتظر بما فيه الكفاية .. وأخذ يتسلى بالاستماع إلى جهاز التسجيل .

ولم تبعاً « هدى » بقول « أم حبيب » وهزت كتفها وقذفت بحقيبة يدها على

الأريكة ثم اتجهت إلى التليفون .

واسترسلت « أم حبيب » في حديثها وهي ترقبها في هدوء :

— ويبدو أن أحد الأشرطة أعجبه .. فأخذه وهرب .

وتوقفت « هدى » .. وقبل أن تمد يدها إلى شماعة التليفون التفتت إلى

العجوز متسائلة :

— أحد الأشرطة أعجبه؟!

- أجل .
- وأخذه ؟
- وهرب .
- واستدارت « هدى » إلى العجوز ، واقتربت منها وقد بدت عليها الدهشة
- وتساءلت في غيظ : .
- أتمزحين ؟
- بل أقول ما حدث .
- أتعنين أنه سرق أحد الأشرطة ؟
- بل خطفه .
- ولماذا لم ينتظر حتى أعطيه له .. وأنا لم أكن لأضن عليه به .
- ونظرت إليها العجوز في غيظ وتساءلت :
- تعطينه له ! هكذا !. بمثل هذه البساطة !
- وفجأة برقت الحقيقة في ذهن « هدى » .. وصاحت :
- لا أظنك تعنين الشريط الذى ...
- بل هو ما أعنيه .
- وبدا الدهول على وجه « هدى » وهتفت كأنها تحدث نفسها :
- غير معقول .. غير ممكن .
- وبسطت العجوز كفيها في حركة استسلام يائسة وقالت :
- معقول أو غير معقول .. هذا هو الذى حدث .
- ووقفت « هدى » تتمم كالمأخوذة :
- ولكن كيف جرؤ ؟! كيف تجاسر ؟!
- ثم وجهت الحديث إلى « أم حبيب » تحاول التأكد منها لعلها تكون مخطئة :
- أو أمانة أنت من أن الشريط به كلام ؟
- واسترسلت « أم حبيب » تكمل سؤال « هدى » مؤكدة :

— بينك وبين سيدى سامى بك ..

وانفجرت « هدى » صائحة :

— ولماذا تركته يأخذه ؟

وكانت العجوز تعرف كيف تواجه انفجاراتها فأمسكت بذراعها فى رفق

وأجابتها بهدوء :

— لم أكن أستطيع أن أمسك بخناقه .. أو أعدو وراءه .. أو أطلب الشرطة ..

لم يخطر ببالي قط أنى أملك مثل هذا التصرف مع ضيوفك . ثم ...

وهزتها فى شىء من العصبية وأردفت لائمه :

— أمثل هذا الشريط .. يترك هكذا نهبا للأسماع !؟ كنت أظنك أشد حرصا

من هذا .

وانهارت « هدى » على الأريكة وأجابت فى صوت خافت :

— كنت أستعيد سماعه صباح اليوم .. وتركته مع بقية الأشرطة .. لم يخطر

ببالي أن أحدا سيدخل البيت .. لكى يستمع إليه ثم يأخذه ويهرب .

وعادت تصر على أسنانها صائحة فى غيظ :

— ولكن لماذا يأخذه؟! ماذا يهمه منه ؟

— أظنه فى حاجة إلى أن يسمعه لبعض الناس .

وقفزت « هدى » من مقعدها كمن لسعتها أفعى ، وأمسكت بذراعى

«أم حبيب » تهزها فى عنف صائحة :

— ماذا تقولين ؟ يسمعه لبعض الناس ؟

— أجل .

— كيف عرفت ؟

— سمعته يتحدث فى التليفون إلى شخص اسمه فؤاد .. وواعده على اللقاء فى

بيته .. ثم وضع الشريط فى جيب معطفه .. واندفع إلى السلم .

وضغطت « هدى » على ضروسها وهتفت وهى تحاول أن تقاوم نوبة بكاء

توشك أن تعصف بها :

— المجنون .. السافل .. المنحط .. كان يجب أن أكون أكثر حذرا منه .
ثم اندفعت إلى الباب كالقذيفة .. دون أن تترك فرصة لأم حبيب لكى تسألها
إلى أين تذهب .. ولا امتى تعود .

ولم تعرف كيف هبطت السلم .. ولا كيف جلست فى السيارة وأدارتها
وانطلقت بها .. كان ذهنها يدور فى حركة صاخبة .. تذكرت حديث سليم عند
عودتهما من صوفر .. تذكرت آماله فى سامى وخوفه عليه منها .. وخشيته من
أن تكون سببا لتدميره .. وتبديد إيمان الناس به .. وتذكرت سخريتها من
حديث سليم .. وعجزها عن أن تفهم كيف يمكن أن تسمى إلى سامى أو
تخدشه .

وتصوّرت ما يمكن أن يفعله هذا المجنون الذى يأكل الحقد قلبه .. بمثل هذا
التسجيل .. لو سلمه إلى خصوم سامى .

كيف يمكن أن يستغلوا مناجاتهما المقدسة ، فى السخرية منه والهزاء به ؟
تصوّرت أى كارثة يمكن أن تحل به .. لو أقدموا على إذاعته بين أنصاره بدل
أحد أحاديثه .

وأحست بمرارة أليمة .

هذه الحياة الساخرة !! لماذا تجعل من أجمل مشاعرنا سببا لسخرية الناس
بنا .. وخجلنا من أنفسنا !!

لماذا لا يفهم الحب غير أصحابه .

لماذا تأبى الحياة إلا أن تبديه بوجهيه المتناقضين .. وجه القديس لأصحابه ..

ووجه المهترج فى عيون الناس .

لماذا تأبى إلا أن تجعل الحب عورة يجب سترها .. حتى لا تفضح أمام الغير ؟!

ولكن .. هل كل الحب عورة ؟!

أم حبها فقط .

وهزت رأسها كأنها تحاول أن تسكت ذلك الطنين الذى يصطخب في داخلها .. ولكن الهزة لم تستطع أن توقف حركة التروس الدائرة في ذهنها ، والتي تتوالت عليها الأفكار ، متشابكة متداخلة .
أجل .. إن حبها هو العورة التي يجب سترها .
ولكن .. أترى الناس .. يحترمون الحب عندما لا يباشرونه .. حتى ولو لم يكن .. مثل حبها .. عورة يجب أن تستر !!
لا تظن ...

الناس قساة .. تملأ الأنانية قلوبهم .. لا يقيسون الأمور في الحياة إلا بمقاييسهم الخاصة .
الحب الحياة .. إذا ما أحبوا .. فإذا ما أحب الغير .. أضحى الحب خيلا ، وهبلا .

ومع ذلك .. ليقبل الناس ما يقولونه .. إنها تحب .. وتحس بقيمة هذا الحب في حياتها .. ولا تملك إلا أن تقيسه بمقاييسها المرهفة ، وقلبها الخافق الملهوف ، وتقومه بأحاسيسها كأثمن ما في الوجود ، وأجمل ما في الكون .
ولا تملك إزاء هذا إلا أن تتمسك به بكل ما تملك من قوى ، وتصونه من كل شر ، وتقيه من كل عدوان .

ووقفت العربة أمام بيت « رياض » ، ووثبت « هدى » منها .. وملؤها التحفز للعراك ، والإصرار على أن توقف تلك الحماقة التي يوشك أن يرتكبها هذا الحاقد المجنون .

ودفعت باب الحديدية فانفتح ، ولمت ياقة المعطف حول عنقها وهي تحس برطوبة الليل تلسع وجهها .. ورفعت رأسها فلم تبصر أنوارا في النوافذ تدل على وجود أحد في البيت .. واقتربت من الباب الداخلى ودقت الجرس .. ومضت فترة قبل أن تسمع خطوات الخادم يقترب ليفتح الباب .

ولم يكد الخادم يبصرها حتى فتح الباب على مصراعيه وهتف مرحبا :

— أهلا وسهلا .. تفضلي يا ست « هدى » .
وخطت « هدى » إلى الداخل وهي تحاول جهدها أن تتالك وتكبت
انفعالها ، وتضبط أعصابها .. واستطاعت أن ترسم على شفيتها ابتسامة ترد بها
على الترحاب الذى لقيها الخادم به .. ثم سألت بقدر ما استطاعت من هدوء :
— البيه موجود ؟

— خرج منذ ساعة .. تفضلى .

— والست « هناء » ؟

— توشك أن تحضر .. لا أظنها ستتأخر أكثر من ذلك .
وسارت « هدى » إلى البهو .. وأعصابها تزداد توترا .. وذهنها يزداد
صخباً .. كان المفروض أن يصل هذا الجنون إلى البيت قبلها .
على أية حال لتنتظره برهة ، فربما قد مر فى طريقه بمكتبه ، أو بالسوق ..
ولاشك أنه فى طريقه إلى البيت . فموعده مع صاحبه هنا فى البيت كما قالت
« أم حبيب » .

ولكن .. هب « أم حبيب » أخطأت الإنصات أو أخطأت الفهم !
هب الموعد كان فى بيت الرجل الذى حدثه ، أو فى النادى أو فى مكان آخر !
لماذا تأخذ كلام « أم حبيب » قضية مسلما بها ؟
ولكنها أخذته من البداية على أنه كلام لا يقبل المراجعة أو الشك .
حماسة؟! !إنها تعرف أن نصف كلام العجوز فارغ .. وتعرف مدى عجزها
عن النقل الدقيق لكل ما يقال لها . بل تعرف كيف تحوّر فى أسماء الذين يطلبونها
فى التليفون .. وكيف تحوّر فى أحاديثهم .

لماذا إذن اندفعت فى تصديقها فى كل ما قالت ؟
ألا يجوز أن الرجل لم يأخذ شيئا معه .. وأنه ملّ الانتظار .. فأبت عليه
كرامته إلا الرحيل ؟

ثم .. ألا يجوز أن يكون فعلا أخذ شريطا .. ولكنه ليس الشريط المقصود ..

بل شريطا لبعض أغان أعجبته .. كما تعود أن يفعل دائما ؟
لماذا لم تراجع العجوز في أقوالها ؟
ولكن كيف عرفت « أم حبيب » أن هناك شريطا به حديث بينها وبين
« سامى » .. لعلها سمعته ذات مرة .. أو لعلها هى التى أوحى إليها بذلك .
يجب عليها أن تتروى فى مواجهة « رياض » .
يجب ألا تلقى التهمة جزافا .
خير لها أن تستدرجه فى الحديث .
ولكن لماذا لم يأت حتى الآن ؟
أيمكن أن يكون قد ذهب إلى صاحبه مباشرة ؟
ولم لا ؟ .. كل شىء جائز .
هى تجلس هنا فى انتظاره .. وهو يجلس هناك للاستماع إلى التسجيل وحوله ثلثة
العجر .. يسخرون منه ما شاءت لهم خستهم وأحقادهم .
وكان الخادم قد اقترب بصينية الشاى ووضعها على المنضدة ، ووقفت
« هدى » وراء الباب الزجاجى العريض الممتد بعرض الحجرة والمفضى إلى
الحديقة بعد أن أزاحت عنه الستار .
وبدت أشباح الأشجار من وراء الزجاج جرداء تتسلل الريح بين فروعها .
ورصل إلى سمعها خرير الجدول ينساب بجوار سور الحديقة .
وازداد بها القلق .. وهى ترهف السمع لأصوات العربات التى تنطلق فى
الطريق مارقة بباب الدار .. حتى سمعت صوت عربة تقف .. وبابا يغلق .. ثم
خطوات تقترب من الشرفة !. وبدا « رياض » يسير بخطوات متناقلة نحو الباب
الرئيسى .. ولكنه لم يكده يلمح ضوء البهو يبدو من باب الشرفة الزجاجى حتى
اتجه إليه فى شىء من الدهشة وحب الاستطلاع .
وفوجئ رياض بهدى تقف وراء الزجاج .. وتملكه إحساس اللص يواجه
الشرطة فجأة وهو عائد بغنيمته إلى البيت .. ولكنه ما لبث أن تمالك
(جفت الدموع — ج ٢)

واستضحك ورفع يده ملوّحا بالتحية .

وبحركة عصبية فتحت « هدى » الباب الزجاجى وتضاحكت قائلة :

— سأوفر عليك مشوار الباب ودق الجرس .. تفضل .

وأوهمته ضحكة « هدى » أنه بالغ في أوهامه .. وأنها بلا جدال لم تكتشف

بعد مسألة الشريط ، بل قد لا تكتشفها أبدا .. إذا استطاع هو أن ينقله على

شريط آخر ثم يعيده إليها .. قبل أن تفتقده .. وهتف بها صائحا في دهشة :

— هدى .. ما هذه المفاجأة المدهشة !؟

وحاول رياض أن يستعيد رباطة جأشه .. وسيطر على أعصابه ويخفى

ما يجيش في نفسه من انفعالات حادة متباينة .. ولكن صوت المناجاة انطلق يطن

في أذنه .. يثير كوامن شجنه وغيرته وحقده .

وملأت نفسه المرارة والحسرة وهو يتطلع إليها كشيء عزيز قد انتزع منه ..

وهو أحق الناس بامتلاكه .. وأحس بأنه يود أن يشدها إليه في عنف .. ليمنع

أحدا من مسها أو الاقتراب منها .

ولم تدع له « هدى » فرصة الاسترسال في أوهامه .. ومدت يدها مصافحة

وهي تحاول أن تكسو وجهها ما استطاعت من هدوء وهتفت مرحبة :

— أهلا رياض .. مساء الخير .

وأجاب رياض وهو يشد على يدها :

— مساء النور .. أهلا بالهاربة التى لا تعرف المحافظة على مواعيدها .

— اضطررت إلى التأخر عند الطبيب .. ولم أتصور أبدا أنك ستقلق وتغادر

البيت .. فلما لم أجذك .. صممت على أن آتى أنا لزيارتك .

— انتظرتك أكثر من نصف ساعة وخشيت أن تكونى قد نسيت الموعد .

— نسيت موعدك !؟ غير معقول !

— ولم لا !! ما دمت قد نسيتنا فلم لا تنسى مواعيدها !

— أنتم الذين نسيتمونى .. منذ أسبوع ولم يسأل على أحد .. لآنت ولا هناء .

ليلة حافلة

كانت « هدى » تلقى بأحاديثها السطحية الهادئة ، وهي تحس بغليان في جوفها ، وعيناها لا تتحوّلان عن جيب المعطف الذي أخذت ترقبه منذ أن وقع بصرها عليه ، وهو يقترب من الباب الزجاجي متدثرا به .

وبحركة لا إرادية وضع « رياض » يده في جيب المعطف فاصطدمت بالشريط .. وأحس برجفة .. وود لو استطاع أن يتخلص منه ، ومن المعطف ، في أقرب فرصة ليجلس وإياها .. بغير إحساس بالتلبس بالذنب والخوف في كل لحظة من اكتشافه .

ورسم على شفثيه ابتسامة عريضة وقال معاتبا :
— نحن الذين لا نسأل عليك؟! .. وكلما سألنا .. لا ننجذك إلا خارجة أو نائمة .. أو رافعة السماعة .. أو شاغلة السكّة .

واسترسل في حديثه ، وهو يتجه بخطوات بطيئة خارج الغرفة قائلا :
— حتى كدنا نياس من الحصول عليك .

وعندما اقترب من باب الغرفة همّ بأن يغادرها قائلا :
— عن إذنك دقيقة واحدة .

ولكن « هدى » اعترضت طريقه ، وهي تمسك بذراعه قائلة :
— أريد أن أحدثك في أمر هام قبل أن تأتي « هناء » .. تعال .

وأشارت إلى الأريكة قائلة ، وهي تهتم بالجلوس :

— اجلس .. لماذا لا تخلع المعطف ؟

وأجذ « رياض » يخلعه ، وهو يحس بدوامة تدور برأسه .. ماذا تريد

« هدى » بالضبط؟! أتراها عرفت أنه قد أخذ الشريط؟! لماذا تتصرف إذن بمثل هذا الهدوء؟! لماذا لم تترفيه .. وتطلب إعادته؟! لعلها لم تعرف .. لماذا إذن حضرت .. أ مجرد الاعتذار عن تأخيرها عن موعدها؟! ربما .. ولكن ما هذا السر الذى تريد أن تحدثه فيه قبل وصول « هناء » .. لعلها فى أزمة وتريد نقودا .. جوائز جدا .. وأراحه هذا الخاطر .. وهو يخلع المعطف . وهمم بدق الجرس لمناداة الخادم حتى يأخذ المعطف ويخلصه منه ويريجه من وساوسه وشكوكه .

ولكنها عادت تجره إلى الأريكة قائلة :

— ضعه هنا .. حتى أتم حديثى .. اجلس .

ووجد « رياض » نفسه والمعطف بينهما على الأريكة كأنه فأر فى مصيدة .. أو سجين فى قفص ، ومعه جسد الجريمة .

ومع ذلك لم يملك إلا أن يلتم أعصابه .. ويرسم على وجهه أوسع ابتسامة

قائلا :

— خير .. ما الحكاية ؟

وأحست « هدى » بأنفاسها تتلاحق ، وهى تجد المعطف بجوارها والشريط فى متناول يدها ، وعادت تقول بقدر ما استطاعت من هدوء :

— آسفة أولا على تأخرى .. إني أعتذر للمرة الثانية .

— أبدا .. أبدا .. ليس بيننا عتاب . أنا الآسف لأنى لم أستطع الانتظار أكثر

من هذا الارتباطى ببعض المواعيد .

— لعل الانتظار لم يضايقك؟!

— لم يضايقنى أبدا .. إلا أننى كنت أحب أن أقضى وقته معك .

— لعلك وجدت ما تتسلى به ؟

وأحس الرجل بأن شيئا ما يكمن وراء السؤال ، أو ربما كان واهما . على أية

حال . خير له أن يستمر فى الحديث ببراءة وبساطة .. فأجاب قائلا :

- استمعت إلى الراديو .. كان به بعض الأحاديث السخيفة .
- والريكوردر ؟
- وأحس « رياض » كأن يدا قد امتدت لتقبض على عنقه ولم يملك إلا أن يرد في استنكار وكأنه يحاول دفع تهمة ألصقت به :
- ماله الريكوردر ؟
- وردت « هدى » ببراءة قائلة :
- به بعض الأغنيات التي تعجبك .. ألم تسمعها ؟
- وازدرد « رياض » ريقه وهو يقول :
- أجل .. أجل .. سمعت أحد الأشرطة .
- وأعجبك ؟
- طبعا أعجبني .
- إلى الحد الذي أخذته لتسجله لديك ؟
- أسجله لذيّ؟!!
- أجل .. كنت أفضل لو استأذنتني في أخذه ، بدلا من الهروب به .
- وأحس « رياض » بأنه قد وقع في القفص ولم يجد أمامه إلا الطريقة البدائية لدفاع المذنب عن نفسه ، طريقة الغضب للكرامة ، فصاح بهدى في عنف :
- ما هذا الذى تقولين يا « هدى » .. أنا آخذ منك شريطا لأهرب به ..
- ما هذا الكلام الفارغ؟! هذه إهانة لا تحمل .
- وكانت « هدى » ترمق جيب المعطف بين آونة وأخرى في نظرات خاطفة ، كأنها تحاول التأكد من أن الشريط ما زال موجودا ، أو كأنها ترسم ليدها الطريق إليه عندما تحين اللحظة الملائمة .
- ولم تجد « هدى » لحظة أكثر ملاءمة من هذه .
- وبسرعة البرق مدت يدها ودفعتها في جيب المعطف ، وأخرجتها بالشريط ، وضمته إلى صدرها في لهفة وعنق كأنما تخشى أن ينتزع منها ، وهتفت به وهى

تلهث من فرط الانفعال :

— كنت أظنك أكرم من هذا .. كنت أحسن الظن بك .

وأحس « رياض » بأنه قد فقد وعيه .

كانت تعرف إذن أنه قد فعل كل ما فعل .

كانت تعرف حتى مكان الشريط ، وظلت تتحاوره حتى تنتزعه منه بمثل هذه

البساطة .

لقد جعلت منه سخرية لكي تنقذ هذا المغرور التافه الذي يعيشها .

وانفجرت مراجله ، وفاض به الحقد والغضب ، وأحس بأنه يود أن

يحطمها ، ويحطم نفسه ، ويحطم كل شيء .

ومد يده في عنف ليسترجع الشريط .. قائلاً وهو يصر على أسانه :

— مجرمة .. لن أدعك تأخذينه .

— لقد أخذته وانتهى الأمر .

وهب واقفا ، واستدار مواجهها « هدى » ، وفي عينيه بريق الشر ، وفي

عنف انحنى عليها قائلاً :

— لا بد أن آخذه منك .

ووثبت « هدى » من فوق الأريكة .. وقد تنمرت كأنها القطة يحاولون نزع

وليدها من بين أحضانها ، واندفعت في عجلة إلى الباب الزجاجي .

وبينا هي في اندفاعها ارتطمت بعمود خشبي وضعت عليه إحدى الزهريات

الصينية الكبيرة فهوى على الباب الزجاجي فحطمه .

وأسرع « رياض » خلف « هدى » ليمسك بها ويأخذ منها الشريط ، ولم تجد

« هدى » طريقاً للهرب أقرب من الباب الزجاجي المحطم فاندفعت منه ،

وأخذت تعدو إلى الخارج بلا وعي حتى وصلت إلى العربة ، فانطلقت بها وهي

تطبق على الشريط بشدة وقد تلاحقت أنفاسها كأنها ما زالت تعدو .. وضجيج

العاصفة ما زال يلاحقها .

ولم تعرف كيف قطعت الطريق ولا كيف وضعت العربية في الجراج ،
ولا كيف صعدت السلم .

لم تشعر إلا وهى تدق الحرس .. و « أم حبيب » تفتح لها لترتمى على أقرب
مقعد ، وتندفع فى البكاء .

وأقبلت عليها « أم حبيب » ، وقد بدا عليها الفزع وهى تمسك بذراعها
صائحة :

— ما هذا ؟

ونظرت « هدى » فإذا بالدماء تلوث ثيابها ، وجرح ينزف فى يمتها .

وهزت « هدى » رأسها وأجابت وهى تتنهد فى ارتياح :

— لقد استعدت الشريط .

وعادت « أم حبيب » تمسك ذراعها فى جزع صائحة :

— إن ذراعك تنزف .. ماذا حدث ؟

وأجابت « هدى » فى هدوء :

— لا بد أن يكون زجاج الباب المكسور قد أصابنى .. أحضرى ورقة القطن

وزجاجة الميركر كوم .

واندفعت العجوز باكية لتحضر القطن والزجاجة .. وعادت وقد تملكها

الاضطراب وهى تهتف :

— يارب .. الطف .. لماذا لا أطلب الدكتور ؟

— ليس هناك ما يوجب استدعاه .. إنى لم أشعر بالجرح إلا بعد أن رأيت

الآن .

ولم يكن الجرح هينا ، كما تصورته « هدى » ولكنها ضمدته فى شجاعة ،

وهى تحس به كجرح المنتصر فى معركة .. وربطته بالشاش ، ثم جلست

مسترخية على المقعد الكبير أمام النافذة الزجاجية والشريط فى يدها .

وأحسست بالوحدة المضية ، وقد ضمها المقعد الذى تعود أن يضمهما معا .

وهزت الريح فروع الشجرة القائمة أمام النافذة ، وبدت من خلال أوراقها
أضواء الجبل ، متناثرة كأنها نجوم متساقطة من وراء السحب .

متى يعود الغائب ؟ متى !!!

ما بال الأيام تتأقل في مشيتها .. كأنها السنون الطوال !؟

بضعة أيام من غيبته ، ترك في نفسها هذه الوحشة .. ما بالها إذن .. لو غاب
بلا عودة !! لو أضحت هذه المرثيات التي تربطهما معا .. مجرد ذكريات ..
حزينة شاحبة .. تبعث في نفسها الشجن والأسى ، وتهمس بها .. أن هنا .. في
هذا المقعد أو فوق هذه الأريكة ، أو وراء هذه النافذة ، كان يجلس الغائب الذى
لن يعود !

ولكنه سيعود !

ليستقر بين يديها ثانية !!!

إنها ما أحست مرة واحدة بأنها أخذته للأبد ، وإنما تشعر أن امتلاكها له ،
لوقت ما .

ولكن من الذى يستطيع غير هذا في حياتنا هذه !؟

من الذى يحس بملكية مؤبدة لإنسان ما !

ولكن الناس تخشى على ملكيتهم من الموت ، أما هى فتحشى من الموت ..
ومن الناس .. ومن نفسها .. ومن كل شيء .

أى أسى أكثر من إحساسها .. بأن أحب الناس إليها .. لا يملك إلا أن يكون
لها عابر سبيل .. مهددا بتركها في كل لحظة .

أى أسى أكثر من إحساسها .. بأنها لا تملك بحبها إلا أن تكون سبة لمن
تحب .. خطرا على مستقبله وآماله وأمانه .

وكانت تسمع هذا من قبل ولا تفهمه .

كانت تسخر منه ، حتى ضرب لها القدر مثلا من أمثله .

وتملكها الحنين .. فمدت يدها إلى جهاز التسجيل لتضع به الشريط .

- وبدأ الجهاز يدور .
ووسط السكون سمعت صوته الحبيب .
وفجأة دق جرس التليفون .
واختلط الرنين بالمناجاة .
ولم تملك إلا أن توقف الجهاز ، وتمديدها لترفع السماعه متسائلة في ضيق :
— آلو .
وسمعت صوتا نسائيا رقيقا يسألها :
— منزل السيدة هدى نور الدين ؟!
— أجل ..
— هل أستطيع أن أحدثها ؟
— من يريد لها ؟
ومضت فترة تردد قصيرة قبل أن تجيب المتحدثه :
— أنا فائزة .
وأحست « هدى » برجفة .. وتملكها خوف شديد وتساءلت :
— فائزة من ؟
— فائزة .. سكرتيرة الأستاذ سامي .
وازدردت « هدى » ريقها .. وصمتت برهة ثم أجابت :
— أجل .. أنا هدى .
— مساء الخير يا أفندم .
— مساء النور .. أى خدمة ؟
وفي شيء من الحيرة والتردد ردت فائزة :
— كنت أريد أن أحدثك في موضوع خاص .
— تفضلي .
— كنت أفضل أن ألقاك .

ومرة أخرى عاودها الجزع ولم تملك إلا أن تتساءل :

— بخصوص ماذا ؟

— بخصوص الأستاذ سامى .

وفى صوت مرتجف تساءلت « هدى » فى فزع :

— هل حدث له شىء ؟

— لا .. لا .

— هل هو بخير ؟

— أجل .

— تفضلى فى أى وقت تشائين .

— أفضل لقاء عاجلا .

— تفضلى الآن إذا أردت .

— سأكون عندك بعد نصف ساعة .. مع السلامة .

— مع السلامة .

ووضعت هدى السماعة .. ثم ألقَتْ رأسها على مسند المقعد .. وأطلقت

زفرة حارة .

ترى ماذا تريد هى الأخرى ؟

لعلها تريد أن تكمل الإجهاز عليها .. فى هذه الليلة الحافلة .

محاولة إنقاذ

وضعت «فايزة» السماعة .. وهى تلهث .
 لم يكن الحديث إلى «هدى» بالمسألة اليسيرة .. ولكن كان عليها أن تفعل .
 لم تكن تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين .. وهى تشاهد صرحها القائم ..
 يوشك أن ينقض .. ومعاول الهدم تكييل له الضربات .
 كانت تحس أنها لا بد أن تفعل شيئاً بعد كل ما حدث .. بدل أن تجلس هكذا
 ترقب تطور الحوادث فى صمت حزين واستسلام يائس .
 وأخذت تستعيد لنفسها ما وقع الليلة فى مقر الحزب مما دفع أمامها بشبح
 الخطر وملأها قلقاً وجزعاً .

تذكرت كيف بدأ الأمر ببضعة شبان أمام جهاز الراديو ، وقد أخذ المذيع يذيع
 قرارات لجنة التضامن ويعلق على الانتصار الذى استطاع «سامى» أن يحققه
 لسورية بعد أن أدانت اللجنة تركيا وكشفت تهديدها العدوانى للعالم .. وكيف
 وضح الموقف فى سورية على حقيقته .. وكسب تأييد الشعوب الآسيوية
 الإفريقية لقضيتها .. ثم بدأ بعد ذلك فى إذاعة تسجيل لخطبة «سامى» فى
 اللجنة .

ومد أحد الشباب يده فأدار مؤشر الراديو على محطة أخرى .. فإذا بصوت
 «هدى» يعلو فيها مترنماً بإحدى أغانيها .. فصاح به أحد الشبان ثائراً :
 — أوقف هذه المياعة ودعنا نسمع الخطبة .

وكان أحد الشبان قد استقر مسترخياً على مقعد كبير فى ركن القاعة ، وهو
 يرقب الجماعة الملتفة حول الراديو .. فانطلقت منه ضحكة ساخرة وقال ، وهو

يهز رأسه :

— يا سيدى .. هذه النعل من ذاك الوطا .

والتفت إليه الشاب المتحمس وصاح به متسائلا فى غيظ ودهشة :

— ماذا تقصد ؟

— لا تغضب هكذا .. فصاحب الخطبة نفسه قد يفضل عليها أغنية الست

« هدى » .

وهتف به الشاب فى ضيق :

— صاحب الخطبة أرفع من أن يستمع إلى هذه المياعة .

وانطلق الآخر يقهقه قائلا :

— الظاهر أنه ليست لديك أية فكرة .

— فكرة عن ماذا ؟

— عن ليالى الأنس والطرب .

واندفع إليه الشاب فى ضيق وأمسك به من خناقه وصاح به متحديا :

— كف عن هذا الغمز الوقح .. وقل ماذا تقصد ؟

— لا داعى للفضائح .

وعاد الشاب يهزه فى غضب صائحا :

— أية فضائح يا حيوان !؟

وأجاب الآخر فى سخرية ، وهو يحاول التخلص من قبضة الشاب :

— فضائح الليالى الحمر التى يقضيها « سامى بك » بين أحضان « هدى » .

ولم يتالك الشاب المتحمس نفسه فهوى بقبضته على وجهه بضربة أسالت

الدم من أنفه وجعلته يثب عليه صارخا مستغيثا .

وتشابك الشابان .. وحدث هرج ومرج .. وتعال الصيحات من هنا

وهناك ما بين مؤيد ومعارض .

صاح أحد الثلة :

- يستحق أكثر من هذا .. حتى يكف عن طول اللسان .
وصاح آخر :
- مفتر يستحق التأديب .
وانبرى ثالث يدافع عنه :
- حرام والله .. لم يقل إلا ما تردده الإشاعات .. وكلنا يعرف هذا .
وصاح رابع :
- إشاعات الشيوعيين؟! لقد قلت مائة مرة إنه دسيسة علينا .. وإنه
شيوعى فلم تصدقونى .
وصاح خامس :
- يا جماعة .. كل شيء لا يعجبكم .. تلصقونه بالشيوعيين .. مال
الشيوعيين بهذا .. حتى خطايانا ننسبها إليهم !!
وهتف به الأول صائحا :
- أى خطايا يا غبى .. أنت أيضا تصدق الإشاعات .. إنهم يحاولون
هدمنا .
- نحن لا يهدمنا إلا أنفسنا .
وتعالت الصيحات ، وزادت حدة المناقشات ، وهم يحاولون فض
المعركة .. عندما بدا عبد الوهاب بك رئيس الحزب مقبلا من الباب الخارجى ،
فتساءل فى دهشة :
- ما هذا ؟
وهذا الشبان .. ووقفوا مطرقى الرعوس .
وعاد عبد الوهاب بك يتساءل :
- ماذا حدث بينكم ؟
وأجاب الشاب الذى اعتدى عليه ، وهو يحاول إيقاف الدم بمديله :
- لقد اعتدوا على بالضرب .

وصاح الشاب المعتدى فى حدة ، وهو يلهث :
— لأنك تستحق الضرب .. وإذا عدت إليها .. سأضربك ثانية .
والتفت إليه عبد الوهاب متسائلا فى دهشة :
— ماذا فعل ؟

— قال إن « سامى » يقضى الليلالى فى أحضان المطربة « هدى » .
وبدا الوجوم المفاجئ على وجه عبد الوهاب وتمم قائلا :
— هو قال هذا ؟
— أجل قاله بأعلى صوته .. والجميع شهود .
وصمت عبد الوهاب برهة ، ثم أطلق تنهيدة ضيق وقال :
— أهكذا يكون حديث الشبان .. والوطن على أهبة المعركة .. كنت
أتصور أن تقضوا الوقت لمناقشة قضايا أهم من هذه السفساف .. والأراخيف .
وصاح الشاب المعتدى :

— هو الذى بدأ .. لقد قال ...
وقاطعه عبد الوهاب فى هدوء :
— انتهينا .. لا أريد أن نخوض مرة أخرى فى هذه الأحاديث .. إن لدينا
الكثير مما نعمله .. فكفوا عن هذا العبث الصببى وكونوا رجالا .
وتركهم عبد الوهاب وقد بدأ الضيق على وجهه .. واختفى فى حجرتة مع
بعض أعضاء الحزب .

وكانت « فائزة » ترقب المعركة طوال الوقت مشدوهة حيرى .. وقد
أحست كأن شيئا يطبق على صدرها ويمسك بخناقها هى .. وتمنت لو استطاعت
أن تصيح بهم جميعا أن كفوا عن الخوض فى سيرة الرجل الغائب .. وعن قذفه
برشاش هذه التعليقات الطائشة السخيفة .

ولم يكد عبد الوهاب يغيب فى حجرتة .. حتى عادت المهمة مرة
أخرى .. هممة غير واضحة ولا مفهومة .. وهمّ البعض بمغادرة القاعة .. ومن

بينهم الشاب المضروب وقد وضع المنديل على أنفه .. عندما وصل فؤاد عبد الجبار النائب ذو الميول الشيوعية ، أبصر الثلة الخارجة وبدأ أنه قد ميز من بينهم الشاب المعتدى عليه فصاح به متسائلا في دهشة :

— ما بالك ؟

— لا شيء .. سأعرف كيف أريهم .

— ماذا حدث ؟

— ضربوني .. لأن أحدهم أراد أن يسمع خطبة سامي كرم .. والثاني أراد أن يسمع أغنية هدى نور الدين .. فقلت لهم .. هذه النعل من ذاك الوطا . ونظر إليهم « فؤاد » في سخرية ثم تساءل :

— ضربوك من أجل هذا !!؟

— أجل .

— اصبر عليهم .. غدا سنسمعهم .. الصوتين معا .. في منولوج رائع .. سنكشف لهم بظلمهم الصنديد .. في أسطوانات مجانية .

وعاد يقلب بصره بين الشبان حتى استقر على وجه « فائزة » فانطلق يقهقهه :
— اصبر .. اصبر .. غدا .. سيقع العجل .

ثم اتخذ طريقه إلى غرفة عبد الوهاب واختفى داخلها .

وعادت الهمهمة تعلو .. وتابعت فؤاد نظرات الاستنكار وإشارات السخط .

وما لبث الجمع أن تفرّق .. وساد القاعة الصمت .

وارتمت « فائزة » على أحد المقاعد خائفة القوى .. محطمة الأعصاب .. وجلست برهة مأخوذة حيرى .. عاجزة عن التفكير أو التصرف .

كانت تحس كأنما قد دهمتها عاصفة توشك أن تودى بأعز ما تملك .. وكان عليها أن تفعل شيئا .. كان عليها أن تكف عن تلك الوقفة العاجزة المستسلمة .. وأن تمد يدها لأقرب طوق نجاة .

وفجأة نهضت من مقعدها .. وقد نوت أمرا .
كان طوق النجاة الذى فكرت فيه .. هى « هدى » نفسها .
وكان عجيبا أن تحاول أن تجعل من معول الهدم أداة إنقاذ .
ولكن لِمَ لا ؟! إذا كانت حقا تحبه .. فيجب أن تضحي بكل شيء من
أجله .. بنفسها وبجها .

لو كانت هى مكانها لعلت .
ولكن هل هى حقا تحبه ؟
وأحست « فائزة » بضيق وهى تحاول أن تسلم بجها له .. وأن تبني خطتها
على أساس حب « هدى » لسامى .. وعلى أساس افتراض سموها إلى درجة
التضحية بكل شيء من أجله ..
ومع ذلك فلم تملك إلا التسليم بذلك .. فقد كان الطريق الوحيد الذى
يمنحها أملا لإنقاذ « سامى » .

ليس هناك وسيلة لصد كل تلك الضربات التى يمكن أن توجه إليه .. إلا أن
يتخلص منها فعلا .. وليس هناك سبيل لخلاصه .. إلا أن تبعده « هدى » عن
نفسها .. لأنه هو نفسه لن يفعل ذلك .. ليس لأنه مسلوب الإرادة .. ولا لأنه
غارق فى الحب .. بل لأنه لا يمكن أن يقدم على التخلي عن إنسان .. أو
خذلانه .. أى إنسان .. فما بالك بإنسان يحبه كل هذا الحب !!
ولكى تبعده « هدى » عن نفسها ، وتقطع كل ما بينها وبينه .. يجب أن
تقبل التضحية .

ولن تقبل التضحية إلا إذا كان حبها كبيرا رائعا ساميا .
وعلى « فائزة » إذن .. أن تسلم بهذا كأساس للعمل الذى تنوى أن تقدم
عليه من أجل إنقاذ « سامى » .

ولكنها مع كل هذه الافتراضات .. لم تقبل أبدا أن تسلم به .
لقد عازمت على أن تذهب إليها .. لترجوها أن تترك « سامى » وتتخلى عن

جبه .. دون أن تفترض فيها شيئا يدعو إلى التقدير أو الاحترام .. لا إنكار ذات ولا سموا .

ولم تعرف كيف يمكن أن تلقاها .. ولا ماذا يمكن أن تقول لها .
لم تدر شيئا إلا أنها لم تكذب تعود إلى الجريدة وتستقر على مكتبها حتى وجدت نفسها ترفع السماعه .. وتطلب رقم تليفون « هدى » .
وعندما انتهى الحديث .. أحسست بأنها اندفعت لتلقى بنفسها في اليم .. وكان عليها بعد ذلك أن تفكر كيف تتعلم السياحة .
ومرت بها فترة وهي تستعيد في ذهنها كل ما حدث .. وأحسست أنها تود لو استطاعت الفرار من المهمة التي اندفعت إليها .
لم تكن تعرف ماذا يمكن أن يكون وقع حديثها على « هدى » .. كيف تقبله وكيف تفهمه !؟

بل كيف يكون وقعه في نفس « سامى » لو عرف بما فعلت .
وأحسست أن الوقت يمر .. والموعده يوشك أن يحل .. وأنها يجب ألا تترك نفسها نهبا لتلك الأفكار والمخاوف التي تشل حركتها .. وتعيدها إلى حالة العجز والاستسلام .

إنها قبل كل شيء .. تقدم على ما تقدم عليه .. من أجل « سامى » .
من أجله عازمت أن تنفض عن نفسها غبار الاستسلام .
من أجله فقط !؟
أجل .. لو لم تشعر بالخطر يوشك أن يدهمه لما استطاعت أن تقدم على تلك الخطوة التي توشك أن تخطوها .

وهل ستصدق هي هذا ؟
بل .. هل يمكن أن يصدق هو نفسه حقيقة إحساسها ؟
يصدق أو لا يصدق .. لا بد أن تفعل شيئا .. لا يمكن أن تتركه ينهار ..
وتقف مكتوفة اليدين .. خوفا من ألا يصدق .

ونَهضت من مقعدها ، واتجهت إلى المكتب الداخلى ، وفتحت الباب ثم
وقفت أمام سليم وقد تلاحقت أنفاسها قائلة :

— هل أستطيع أن أستأذن ؟

— إلى أين ؟

ومضت برهة وهى مترددة لا تعرف كيف تجيب .. وأحس « سليم » أن
شيئا قد حدث .. فعاد يسألها :

— ماذا بك يا فائزة؟! هل أنت متعبة ؟

— لا .

— إذن ما لك مضطربة هكذا .. هل بك شىء ؟

— أبدا .

— اجلسى .. دعينا نتحدث على مهل .

— ليس هناك وقت .

— وقت !! ما الذى يشغلك ؟

— عندى موعد .

— مع من ؟

— هدى .

— هدى !؟

ونطق « سليم » الاسم فى دهشة شديدة .. وعاد يسأل كأنه لا يصدق :

— هدى !! هدى !!

— أحل هدى .

— هدى نور الدين ؟

— أجل .

— وماذا يدعوك إلى لقائها !؟

— ما حدث الليلة فى الحزب .

- ماذا حدث ؟
- معركة بين الشباب من أجل علاقة سامى بها .
وهتف « سليم » مأخوذاً :
— غير معقول .
— هذا ما حدث .
— ولماذا يتعاركون ؟
— واحد أطلق التهمة .. والثاني لم يطق حديثه فأقدم على ضربه .
— وماذا بعد ؟
— نشبت المعركة ، واستمرت حتى فضها عبد الوهاب بك .
وصاح « سليم » غير مصدق :
— عبد الوهاب بك نفسه !
— أجل .
— وعرف سبب المعركة ؟
— طبعاً .
— وماذا قال ؟
— بدا عليه الوجوم برهة .. ولكنه عرف كيف يتمالك نفسه ، ولام الشباب على عبثهم الصياني .
— ما شاء الله .
وضرب سليم كفا بكف وعاد يتساءل في سخرية مريرة :
— وماذا حدث أيضاً ؟
— دخل فؤاد .
— فؤاد من ؟
— فؤاد عبد الجبار .
— وما الذى أدخله وقتذاك ؟

— لا أعرف .. يبدو أنه كان يريد شيئا من عبد الوهاب بك نفسه .

— لماذا فعل ؟

— رأى الفتى المصاب وعرف منه ما حدث .

— وماذا قال ؟

— قال كلاما عجيبا لم أفهم ما يقصده .. سوى أن غدا سيقع العجل .

— يقصد سامى ؟

— طبعا .

وتهد « سليم » وهز رأسه وقال فى لهجة تشوبها السخرية :

— ومن أجل ذلك قررت أن تنقذى العجل قبل أن يقع ؟

ولم تجب « فائزة » بل زمت شفتيها فى شىء من الغضب وعاد سليم يقول

بنفس اللهجة الساخرة :

— وستذهبين إلى « هدى » لمساعدتك فى إنقاذ العجل .. ستذهبين إلى ..

ولم تطق « فائزة » استمراره فى هذه اللهجة ، فقاطعته فى حدة قائلة :

— أستاذ سليم .. أرجوك .. كف عن هذه اللهجة .. ليس هذا وقت

السخرية .. إني أكره أن يتكلم إنسان بهذه اللهجة عن الأستاذ سامى حتى

أنت .

وصمت « سليم » برهة ثم رفع بصره إليها ، وقال فى لهجة جادة :

— لا تغضبى يا فائزة .. إني حقيقة حائر .. لا أعرف ماذا أقول .. لا تنظنى

أنى أقل منك ضيقا أو حزنا . لم أتصور قط أن الموقف يمكن أن يتطور إلى هذا

الوضع .. ولست أدرى كيف يمكن علاجه .

— ألم تطلب إليّ من قبل أن أكف عن العجز والسلبية !!

— أجل قلت لك هذا ؟

— إذن فسأقوم بمحاولة .

— مع هدى ؟

— ولم لا ؟

— لا فائدة .

— له ؟

— لقد حاولت من قبلك .

— أنت ؟!

— أجل .

— متى ؟

— عند عودتنا من بيروت .

— ماذا قلت لها ؟

— قلت كل ما يمكن أن يقال .

— وماذا قالت لك ؟

وهز « سليم » رأسه ، ثم ضحك في شيء من السخرية :

— كادت تقنعني بأنها على حق .. وأشعرتني أن المشكلة أعوض مما أتصور .

— كيف ؟

— لأنها تحبه حقيقة .

وأحست « فائزة » بشيء يعترض باطنها .. ومضت برهة قبل أن تتألك وترد

متسائلة :

— والنتيجة ؟!

— يعلمها الله .

— ألم تحدثه هو ؟

— كثيرا .. ولا فائدة ترجى .. يبدو أننا لا نملك إلا أن نترك المسألة تسير

حتى نهايتها .. أو كما يقولون .. دع الأمور تجري في أعنتها .. حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وهزت « فائزة » رأسها في يأس وأسى :

— تقصد حتى يقضى عليه .. ويلوى هذا الأمل المزدهر .. وتخبر هذه

الشعلة المضيفة .. ألم تقل أنت نفسك إنك تعتبره مشروعاً ناجحاً ؟
— أجل .

— وتسلم بعد هذا بأن يقضى !؟

وضحك « سليم » ضحكة قصيرة ساخرة وأجاب :

— تحدثيني بما كنت أقول لك .. وتلوميني على ما كنت ألومك عليه ؟ ..
على أية حال .. لماذا لا تجربين خطك ؟ اذهبي إلى « هدى » وقابليها .. وقولي لها
كل ما تريدين . لعلك تكونين أقدر مني .. إنك امرأة على كل حال .. وقد
تكونين أكثر فهما لها .. وقدرة على إقناعها .. قد تنجحين فيما فشلت فيه ..
من يدري .

وصمت « سليم » برهة ثم أردف قائلاً ، وهو يهز رأسه :

— ومع ذلك .. أنا واثق أن هذه الأمور لا يمكن أن تحل بهذه الطريقة .. إننا
لا يمكن أن نضع لها خاتمة بنصائحننا .. إن أصحابها وحدهم .. هم الذين
يحلونها .. عندما يكرههم القدر على ذلك .. أو عندما يحسون أنهم لا يملكون
غير إنهايتها .. أما قبل ذلك .. فلا يمكن لغريب أن يستطيع وقفها .
وأحست « فائزة » باليأس يملاً قلبها .. ومدت يدها فاستندت إلى المكتب
كأنما توشك أن تنهار .

ونظر إليها « سليم » وأحس بالضيق لما قال .. ونهض من مقعده واقترب منها
وأمسك ذراعها برفق ، ثم قال في لهجة رقيقة :
— اذهبي وقابليها .. جربي كل ما تستطيعين .. إن لديك من الإيمان ما قد
يحقق ما فشلت أنا فيه .

لقد قلت لك دائماً إنك طرف في الموضوع .. وخصم في المعركة . وإن
لديك من المشاعر ما لا أملك أنا من أسلحة المعركة .. ولقد كنت دائماً أضعك
إلى خوض المعركة .. فلماذا أحاول أن أثنيك عنها .. بعد أن فشلت فيها ..
اذهبي .. وانسى كل ما قلت .. إذا كانت هي تمبه .. فأنت أيضاً تحببته .

وهزت « فائزة » رأسها في ضيق ويأس وأجابت :
— أنا لا أذهب لأخوض معركة من أجل نفسى .
— خوضيها من أجله هو .. ولكن بأسلحتك أنت .. بمشاعرك المرهفة له ..
وإيمانك الشديد به .. وحرصك العجيب عليه .. اذهبي يا « فائزة » .. مع
السلامة .

وجه الوجه

غادرت « فائزة » المكتب في صمت .. وانطلقت في الطريق شاردة
الذهن .. وهمت بضع مرات أن تعود أدراجها .

ماذا يدفعها إلى الذهاب إليها في بيتها !؟

أى حق لها عليها في مجرد الإشارة إلى علاقتها بسامى !!

ماذا تقول لها إذا أنكرت كل علاقة لها به .. وطردتها شر طردة !؟

وظلت الأفكار تتصارع في ذهنها .. حتى وجدت نفسها تقف على الباب
لتدق الجرس .

وفتح الباب وأطلت « أم حبيب » برأسها متسائلة :

— من ؟

— السيدة هدى موجودة ؟

— نقول لها من ؟

— فائزة .

ودون أن تذهب العجوز لإبلاغ « هدى » فتحت الباب قائلة :

— تفضلى .. إن السيدة فى انتظارك .

ودخلت « فائزة » كالماخوذة .. لم تستطع أن تميز شيئاً مما حولها .. كانت

تتبع العجوز وقد تلاحقت أنفاسها ، حتى استقرت على أحد مقاعد البهو .

وعابت عنها « أم حبيب » . فأخذت تلم ذهنها الشارد ، وأفكارها المتصارعة ،

وبدأت ترقب ما حولها .. ولم تملك إلا أن تعترف بأن صاحبة البيت مخلوقة ذات

ذوق .. كان كل ما حولها ينم عن الرقة والعناية والنظافة .. كان شيئاً بعيداً كل

البعد عما تصوره .. كانت تتمثل البيت على شيء من الإهمال .. وكانت تتوقع
أثاثا فاخرا بلا ذوق .. أثاثا .. صرف عليه مال دون أن يختاره ذوق سليم
أو تنسقه يد ماهرة ، ولكنها وجدت نقيض ما تصوره .. كان الذوق أغلب من
الغنى ، والرقعة أغلب من الفخامة .

ولم يطل انتظارها حتى أقبلت عليها « هدى » وقد علت شفيتها ابتسامة
شاحبة ، ووضعت ذراعها المضمدة معلقة بكفها في داخل صديري الصوف
البنفسجى .. ومدت يدها الأخرى لتصافح « فائزة » وهى تقول مرحبة :
— أهلا .. وسهلا .. مساء الخير .

— مساء النور .

وجلست « هدى » على المقعد المقابل .. ومضت برهة قبل أن يبدأ
الحديث .. كانت كل منهما تحاول أن تلتقط من الأخرى نظرات خاطفة
فاحصة .

وكما أخذت « فائزة » بالبيت .. لم تملك إلا أن تؤخذ بصاحبه .. لقد
وجدت نفسها أمام إنسان رقيقة .. لا يمكن للإنسان إلا أن يؤخذ بجماها الطيب
الهادئ .. كان وجهها خلوا من كل زينة .. جميلا .. فيه شيء من الشحوب ..
وكان شعرها ممشطا ببساطة .. وأحست « فائزة » بالرهبة التى ملأتها .. تزول
شيئا فشيئا ، وحل محلها إحساس بالخوف المشوب بالغيرة .. وهى ترى المخلوقة
التي أمامها .. إنسانا يمكن أن يجب فعلا .

واستطاعت « هدى » أن تلتقط « لفائزة » بعض نظرات كوّنت لها فى
نفسها صورة مريحة .. أزالته من نفسها الكثير من القلق الذى انتابها وهى
جالسة تنتظر وصولها .

لم تجد فيها شيئا يبعث على القلق أو الخوف .. بل وجدت فيها فتاة رقيقة
حلوة .. لا يمكن أن تضمر شرا .. أو تسبب أذى .. وكان يمكن أن تدفع فى
نفسها شيئا من الغيرة .. لولا ثقتها المفرطة فى حقيقة مشاعر « سامى » .. وفى

يقينها من حبه لها .

وعادت « هدى » تحبى « فائزة » وكأنها تستحثها على الحديث :

— أهلا وسهلا .

— أهلا بك .

وصمتت « فائزة » برهة تحاول أن تتمالك نفسها وترتب أفكارها ..

ومالبت أن ازدردت ريقها قائلة :

— لقد أتيت لأحدثك بخصوص الأستاذ سامى .

— خير .

وتذكرت « فائزة » قول سليم « أنت طرف فى المسألة .. أنت خصم فى

المعركة » وكأنما خشيت أن تحس « هدى » بنفس ما أحس به « سليم » ..

ودفعها إحساسها إلى أن تبدأ الحديث بنفى تلك الشكوك ، فقالت وقد أطرقت

برأسها :

— لست أدرى كيف أبدأ الحديث .. ولكنى أحب أن أؤكد لك أولا أنى

لم أحضر إلا لأحدثك من أجل سامى وحده .

وأحست « هدى » أنها قد نطقت باسم « سامى » مجردا ، وأصابها نوع من

الضيق والقلق وهى تجد « فائزة » قد وضعت « سامى » فى وضع لا يمكن أن

تضعه سكرتيرة لرئيسها ، ولكنها لم تملك إلا الصبر والاستماع .

واسترسلت « فائزة » تقول :

— ولكى أكون صريحة واضحة مع نفسى أولا ومعك ثانيا .. أحب أن أقول

لك .. إلى أحب سامى .

وأحست « هدى » أن شيئا قد لسعها ، ولكنها حاولت جهدها أن تكتم

انفعالاتها .. واستمرت تنظر إلى « فائزة » صامتا دون أن تقاطعها أو تعلق على

حديثها .

واستمرت « فائزة » تقول وهى تطلق تهيدة حارة :

— أقول لك إنى أحبه .. كشيء مقدس .. وأومن به إيمانا لا يتناول إليه شك .. أومن بكل ما فيه من صفاء وخير وحب للبشر .. أومن بقدرته البناء وطاقته التي لا تنفد .. أومن بأشياء كثيرة طيبة أعرفها فيه .. وأثق في كل ما يمكن أن يأتي به من عمل طيب نافع .

وصممت « فائزة » لتقول وكأنما تحدث نفسها :

— أقر لك أنى أحبه حبا لا يتزعزع .. حبا لم أشعر مرة واحدة خلال عملى معه أنه غير أهل له .. وأنا أقر لك بذلك الحب حتى أكون واضحة ومفهومة .. وحتى لا تظنى إن أنا أنكرته أنى أحدعك وأحاول التلاعب بك .. ولكنى بعد كل ما قلت أحب أن أوكد لك أن شيئا ما لم يحدث بيننا ، بحيث يمنحنى حق الغيرة عليه .. أو التدخل فى شئونه .. كل ما بيننا لم يزد قط على علاقة عمل .. أو إعجاب بعمل .. وأنا أعرف كيف ألزم حدى جيدا .. أعرف قدر نفسى فلا أمنحها أكثر مما تستحق من آمال .. ولا أورها فيما يمكن أن يخذلها ويدمر أمانها .. ومن أجل ذلك .. ورغم ما أقررت لك به من شعور نحوه .. أوقفت نفسى من علاقتكما موقف المحايد .. لم أحاول قط أن أجعل نفسى طرفا فى قضية لم يشر كنى فيها أحد .. بل يقحمنى فيها مجرد إحساس ذاتى .. لا يتعدى باطنى .

وعادت « فائزة » تلتقط أنفاسها وخشيت أن تكون قد أطالت أو تفلسفت بطريقة تجعلها غير مفهومة فتساءلت قائلة :

— أخشى أن أكون قد أطلت عليك ؟

وهزت « هدى » رأسها وردت بصوت خافت ولهجة مقتضية :

— أبدا .. أكملى .

— ملخص القول أنى رغم ما أشعر به من حب .. لم أحاول أن أمنح نفسى حقا ليس لى .. لأنى أعرف أن الحب لم يتعد جانبى .. ولقد فعلت هذا منذ البداية ومازلت أصر على فعله حتى الآن .. حتى هذه الساعة التى أحدثك فيها .. ولقد أردت أن أوكد لك هذا حتى أكون واضحة فى تصرفى ، كما كنت

واضحة في مشاعرى .

وتنهدت « فائزة » ثم استطردت تقول :

— لم آت إليك إذن كفتاة محبة غيرى .. لم آت إليك كعاشقة تريد أن تستعيد حبيبها .

وهزت « هدى » رأسها وقالت في لهجة تشوبها الدهشة والاستنكار :

— لا أظن هذا قد يخطر ببالي قط .

— لم يخطر من قبل ، ولكنه قد يخطر بعد أن أقول لك ما أنوى قوله .. قد تسعين بى الظن .. فالدوافع التى دفعتنى إلى مواجعتك والحديث إليك .. قد تجعلك تفهميننى على غير حقيقتى .

ورددت « هدى » مقاطعة :

— أكملى .. أنا لا أسىء فهم الناس أبدا .

— لم آت إليك إذن كامرأة .. لا لتعفف منى .. بل لأن أحدا لم يمنحنى قط هذا الحق .. ولو منحت الإحساس به .. لما أظننى كنت أتأخر حتى هذه الساعة فى أن أخوض معك معركة .. لم آت إليك كمحبة لأنى أعرف أن ما أخذته لم أحصل أنا عليه قط .. ولو حصلت عليه لما منعتنى شىء من محاولة استعادته منذ أن سلبته .

وعادت « فائزة » تنهد وتلتقط أنفاسها ثم استرسلت قائلة :

— شخصى إذن .. ومشاعرى .. لم يكن لها دخل فى حضورى إليك ..

بدليل أنى استمررت طوال هذه المدة ، أرقب فى صمت .. وكأن الأمر لا يعينى .. وكان يمكن أن أظل صامتة .. لولا أن حدث ما جعلنى أحس أن سكوتى ، وعزلتى .. نوع من الإجرام .

ورفعت « هدى » حاجبها فى دهشة وتساءلت :

— هكذا !!

— أجل .. الإجرام السلبى .. الذى يمكن أن نرتكبه عندما نرى اعتداء

يوشك أن يقع ولا نحاول دفعه .. أو عندما نحس أننا نملك إنقاذ حياة إنسان ..
ولا نفعل .

— إلى هذا الحد ؟

— وأكثر .. إني أحس أن صرحا كبيرا .. يوشك أن ينهار .. وبناء شامخا ..
يوشك أن ينقض .

— وماذا أيضا !؟

— لا نحاول أن تسخرى منى .. لأنى أؤكد أنى لا أبالغ .. بل أقول لك
ما أؤمن به .. أنت لا تعرفين قيمة « سامى » .. والأمل الذى يعلق عليه .. أنت
تعرفينه كمحبة .

— ألا يكفى هذا ؟

— أبدا .. الجانب الذى ترينه منه .. يمكن أن يكون فى أى إنسان .. ولكن
الجانب الذى لا تعرفينه .. والذى أعرفه أنا جيدا لا يتكرر كثيرا فى حياتنا هذه .

— أنا أعرف « سامى » خيرا من أى إنسان على ظهر الأرض .

— من أجل هذا أسألك أن تقيه من كل ما يحدشه .

— وما الذى يحدشه ؟

وصمتت « فائزة » برهة ثم حملت أطراف شعاعتها وقالت كأنها تطلق
طلقة :

— أنت !!

ولم تجب « هدى » وساد الاثنان صمت ثقيل .. كادت تسمع فيه
أنفاسهما .. واستطاعت « فائزة » بعد جهد أن تقطعه قائلة :

— لست أحاول أبدا أن أجرحك .. ولكن ما حدث اليوم .. دفعنى إلى أن
أقدم على كل ما لا أطيع .

— وماذا حدث ؟

— معركة فى الحزب بين الشباب من أجل علاقتكما .

— معركة في الحزب ١؟

— أجل .

— كيف ؟

وشرحت « فائزة » باختصار ما حدث في قاعة الحزب .. وختمت شرحها بما قاله فؤاد .

وبدا الوجود على وجه « هدى » .. وشرد ذهنها .. وأحست بأن عبئا ثقيلا قد ألقى على كاهلها .. وبأن صدرها يضيق وكأن الهواء قد زادت كثافته فأضحى من العسير تنفسه .

وأخيرا زفرت زفرة طويلة ، ثم قالت في صوت خافت يملؤه اليأس :

— وبعد !! ما الذى أستطيع أن أفعله ؟

— تتركينه ؟

ونظرت إليها « هدى » نظرة شاردة .. وعادت تقول في مرارة :

— لأكون غادة كاميليا أخرى !؟

وصمتت « هدى » برهة ثم عادت تتساءل ، وكأنها تحدّث نفسها :

— كيف أتركه !! أخبره أنى لم أعد أحبه ؟.. أهجره وأسافر ؟.. أو هممه

بخيانتى ؟.. تظنين المسألة بمثل هذه السهولة التى تطليبنها !؟

وأطرقت مستغرقة في التفكير .. وأحست « فائزة » باليأس الذى أطبق

عليها ، والأسى الذى كسا ملامحها ولم تملك إلا أن تتمم في صوت خافت :

— أنا آسفة لما قد أكون سببته لك .

وهزت « هدى » رأسها وهى تحاول أن تتمالك :

— أبدا .. ليس هناك ما يدعو لك للأسف .. لم تأتى بمجديد ، إلا أنك تحيينه ..

ولست ألوملك على هذا .

— حبى لم يكن هو الدافع لتدخلنى فى الأمر .. إنى لم أشعر أبدا أنى طرف فى

القضية .

— أعرف هذا .

— إذن .. ابذلي كل ما تستطيعين حتى نقضى على تلك التهم التي يلصقونها

به .

وعاد الصمت يسود بينهما مرة أخرى .. ولم تلبث « هدى » أن قطعتة قائلة
في مرارة :

— حسن .. لست أعرف بماذا أجيبك .. إن كل شيء مختلط في ذهني

الآن .. لست أعرف ما أستطيع وما لا أستطيع .. ولكنني مع ذلك أومن بأننا
لا نستطيع أن نعاند القدر .

وأحست « فائزة » بمدى ما يبدو على « هدى » من إجهاد ولم تعرف ماذا

يمكن أن تقول ولا كيف تجيب .. وأحست بأنها تشارك « هدى » إحساسا
بالضياع والعجز والاستسلام لقدر لا تملك إلا الرضوخ له .

ومدّت يدها تودع « هدى » وهي تتمتم في حزن :

— آسفة .

ثم عادت إلى البيت وكأنها عائدة من جنازة .

ليتنا أستطيع

عادت « هدى » تسير مطرقة بعد أن ودعت « فايزة » ، وأحست بالسكون يخيم من حولها ، وتملكها إحساس أليم بالخوف والوحشة .. وهى ترى النذر تتوالى عليها .. وريح الخطر تصفر من حولها .

وأحست بأنها توشك على الانهيار .. فاتجهت إلى « البار » فى ركن القاعة ومدت يدها فملأت كأسا وجرعتها مرة واحدة ، ثم ملأتها ثانية واتجهت بها إلى حجرة الجلوس واستقرت على المقعد الكبير المواجه للنافذة .. ووضعت الكأس على المنضدة الصغيرة بجوارها .. ثم ألقت رأسها على حافة المقعد وأغمضت عينيها وأطلقت زفرة حارة .

أحقا قد قربت النهاية؟! أأضحى عليها أن تسلم فى أعز ما حصلت عليه من هذه الحياة؟! .. أأضحى عليها بعد كل هذا الحرمان الذى ذاقته والجهد الذى بذلته .. والاستتار الذى استترته .. لكى تحتفظ بجمها .. أن تتنازل عنه طائعة مختارة .. أن تجهز أكفانه .. وتحفر قبره .. ثم تقوده بيدها .. للتدة .. وهو أوفر ما يكون حياة .. وأجمل ما يكون رونقا وبهاء؟! ..

أى شىء يدعوها .. إلى أن تقدم على مسرح الحياة .. كاميليا جديدة .. تضحى بجمها .. على مذبح الشهامة .. والمثل العليا؟! .. ثم .. ما رأيها هو؟! ..

هل يقبل منها مثل هذه التضحية؟! .. إن المسألة لا تخصها وحدها .. أيجمل هو التضحية إذا احتملتها هى؟! ..

أم ترى التضحية ستكون على حساب آلامه وتعذيبه؟! ..

وهبه لم يقبل التضحية؟ .. أيتحتم عليها أن تفرضها عليه ؟
كيف؟ .. تختفى من وجهه؟ .. تفرض عليه الفرقة؟ .. أم تنتزع حبها من
قلبه ؟

وأحست بشيء يعترض باطنها .

أيمكن أن يحدث هذا ؟

إنها قد تتحمل فراقه .. تتحمل كل شيء في هذه الحياة .. إلا مجرد أن تتصور أنه
لم يعد يحبها .

أجل .. إنها تستطيع أن تفعل من أجله كل شيء .. إلا أن تدفع في نفسه
بغضها أو احتقارها .. أو حتى مجرد التبرم بها أو الملل منها .

لا تطيق حتى مجرد التفكير في ذلك .. لأنها قد باتت تحيا على حبه .. على
همساته وضمائمه ولثامته .. ولهفته عليها .. وشوقه إليها .

لقد أضحى كل هذا جزءا من قوتها اليومي .. كالماء والهواء والطعام ..
لا يمكن أن تمارس العيش بدونه .

لا تستطيع أن تتصور أبدا .. كيف يمكنها أن تقدم على استئصال حبها من
نفسه .. وهو أعز غرس غرسته في حياتها .. وأشد ما حرصت على رعايته وإتمامه
وازدهاره .

لا .. لا .. لن تستطيع قوة على الأرض أن ترغمها على ذلك .

لن تسلم في حبها أبدا !!

وأطبقت كفها على الكأس في عنف حتى كادت تحطمها .. وهي تصر على
أسنانها قائلة :

— لا .. لا .

ثم أرخت يدها .. واندفعت في نوبة بكاء .

وفجأة أحست بكف توضع على كتفها .. وأصابها رجفة .. وتلفتت في
خوف فوجدتها « أم حبيب » .. فرفعت إليها جفنين قرحهما البكاء .

وتساءلت « أم حبيب » في صوت حنون ، وهي تقبع على الأرض بجوار المقعد :

— وبعد .. ما آخرة كل هذا ؟

وازدردت « هدى » ريقها وهتفت في صوت متحشرج يخنقه البكاء :

— دعيني يا أم حبيب .. أرجوك .

— لماذا كل هذا العناد .. لماذا لا ترضخين للأمر الواقع ؟

— أى واقع هذا الذى تتحدثين عنه .. لست أعترف إلا بواقع واحد .. وهو أنى أحبه وسأحتفظ به .

— إلى متى ؟

— إلى الأبد .

— أبدأ ؟ أى أبدأ ؟ .. أتظنين حقا أن هناك شيئا يدوم إلى الأبد ؟

وهزت « هدى » رأسها ، وهي تعض نواجذها وهتفت في عناد :
— لن أسلم فيه .

— حتى يسلم هو .. فيك ؟

وأجابت « هدى » بصوت متمر وصدورها يغلى بالانفعال :

— هو لن يسلم أبدا .. إنه يجبنى كما أحبه .

— إلى متى ؟

— ماذا تعنين بقولك إلى متى ؟

— كل شيء له حد .

— حبنا بلا حد .

— بلا حد .. حتى من شبابك ؟

— ماذا تعنين ؟

— بلا حد .. حتى من الشعيرات البيض .. والتجاعيد المتسللة .. بلا حد

حتى من الصبا المتآكل .. والعمر المنصرم .. ماذا تظنيننا .. أيتها الأدمية .. ماذا

تطبيق قوانا واحتمالنا .

— لست أفهم .. عم تتحدثين .

— أتحدث عن الحب الذى تقولين عنه بلا حد .. أتظنين مثل هذا الحب ..
التأجيج .. المتهب .. يمكن أن تحمله مشاعرنا .. إلى الأبد؟! أتظنين أن طاقة
الإنسان تستطيع احتاله بلا توقف؟! أتظنين حقا أنه يمكن لإنسان أن يحب
كما تحبين مدى الحياة؟.

— لِمَ لا؟!

— هل سمعت عن هذا؟

وردت هدى فى ضيق :

— أرجوك يا أم حبيب .. ليس هذا وقت الجدل والمناقشة دعيني من
فضلك .

ولكن « أم حبيب » استمرت تقول فى عناد :

— إلا إذا كنت تريدين أن تجعلى منه رواية .. كقيس ، وروميو .. أحدهما
جن .. والآخر مات .

— أتظنين أنه يتحتم على الإنسان لكى يحتفظ بحبه .. أن يجن أو يموت ؟

— أو ترتخى شدة حبه .. ويخبو تأججه .. وتعتاده المشاعر .. كما يعتاد

الأصبع الخاتم .. ويصبح جزءاً من حياته العادية لا يكاد يحس به .. أو يفكر

فيه .. ولا يعود رباطه الوثيق أكثر من رباط يشد دابتين تسيران فى طريق محتوم

لا تكاد إحدهما تشعر أن الرباط موجود إلا إذا وقع تنافر فى الطريق أو اختلاف فى

وجهة السير .. فإذا بالرباط الجميل يصبح قيذا ثقيلًا .

— لن يكون رباط حبنا قيذا أبدا .

— حتى بعد أن يذبل العود ، ويهن الجسد ؟

— تتحدثين عنه كأنه شىء يتعلق بالجسد .

— أو ليس كذلك؟! !! هناك شىء فى دنيانا لا يعلق بأجسادنا .. حتى الحياة

نفسها !؟ أتكرين أن نضارة الحب معلقة بنضارة الجسد .. وأن وهجه مستمد من حرارته .

— حينما يستمد وجوده من شيء أكثر من الجسد ، شيء لا تفهمينه أنت .
— تتحدثين كغيريرات الصبايا .. الذى أفهمه أنا أن حبك المتأجج له حدود .. له مدى .. من قدرتك وقدرته .. لا يمكن لمشاعرنا أو طاقاتنا أن نتحمل انفعالا أبديا .. وعندما يهدأ انفعال الحب وتخبو جذوته .. نحس بمحاجتنا إلى روابط أخرى تشد أحدنا بالآخر .. أشياء مشتركة لا بد أن توجد بعد أن تهدأ فورة الحب .. حتى لا يولى أحدنا من الآخر فرارا .

— ماذا تعنين بأشياء مشتركة ؟

— أتضللين نفسك .. أم حقا لا تعرفين ؟

— تعنين الزواج .. مجرد وثيقة .. يمكن أن تشد اثنين انتهى بينهما الحب ؟

— لست أقصد بالزواج وثيقته .. بل أقصد الأشياء المشتركة التى يخلقها .

— مثل ؟

— الأطفال .. المصالح المتبادلة .. الآمال المشتركة والمستقبل الواحد .

وطافت بوجه « هدى » سحابة حزينة أعمت ملامحها .. وصممت برهة

تحاول أن تتمالك .. واسترسلت « أم حبيب » تقول :

— أحقيقة لم تطف هذه الأشياء بذهنك ؟؟ أحقيقة حسبت أن حياتك يمكن

أن تستقر إلى الأبد على هذا الشعور الفائر !؟ ألم تشعرى أن هناك أشياء أرسخ من

هذا هى التى تكون دعائم حياتنا وتسندها فى المدى الطويل .

ومدت « هدى » يدها تضغط بها على جبينها وهى تحس أن رأسها يوشك أن

ينفجر .. وتمت بصوت خافت :

— لا أحب أن أفكر فى هذا كله .

— حتى بعد النذر البيض التى تتسلل إلى شعرك .. والتجاعيد الخفيفة التى

تحاول أن تجد طريقها أسفل عينيك ؟

— لا تحاولى أن تبعثى اليأس فى نفسى .. إننى ما زلت صغيرة .
— إلى متى .. إلى متى يمكن أن تعتمدى على جمالك .. لكى يضع لك دعائم
حياتك؟! إلى متى يمكن أن تشدى من حولك .. بشبابك .. خمس سنوات ..
عشر سنوات .. وبعدها .. تبقيين وحدك فى تلك السنين الطويلة الباردة
الموحشة من خريف العمر .

وألقت « هدى » رأسها إلى الوراء وأغمضت عينها ، وأطلقت زفرة
طويلة .. ومدت العجوز يدها فربتت كفها فى حنان واسترسلت تقول :
— سلىنى أنا .. على ما يبدو لك من جهلى وغبائى .. قد علمنى الزمن
شيئا .. لماذا لا تستفيدين منه؟! .. لقد كدت أستقر فى حياتى على مقر .. فى
زواجى الأول .. ثم أحببت .. حبا جارفا مجنوننا كهذا الحب الذى تعيشين
فيه .. ولم أطق الحياة مع زوجى .. وتركته .. وفضلت أن أعيش مع الآخر ..
بلا أى نوع من أنواع الروابط سوى الحب .. ولا أكتمك القول أنى استمتعت
بجياتى فترة .. ظننتها ستطول مدى الحياة .. لأننا نحب .. والحب يبدو لنا فى
أوجه عملاقا ساحرا لا تستعصى عليه معجزة .. ثم بدأت المشكلات .. فقد
كانت له زوجة .. وعزمت أن أحتمل .. ولكنه لم يحتمل هو .. ولست أدرى
ما هو هذا الذى لم يحتمله .. أهى المشكلات فعلا .. أم هو الشباب المدير ..
والجسد المترهل .. أم كلاهما معا .. فإن المشكلات لا تستعصى .. إلا إذا فقدنا
الرغبة فى حلها .. والجمال الداوى .. يجعل الرجل دائما أقل رغبة فى حل
مشكلاته .. المهم .. افترقنا .. ووجدت نفسى .. فى منتصف الطريق ..
حائرة شاردة منهكة القوى ذليلة النفس .. وكان على أن أقطع بقية الطريق المقفر
الموحش وحدى .. لولا قطعة ظل .. وغدير لم يجف نبعه بعد .. لاحت لى على
جانب الطريق .. تلاحقنى فى المسير .. أبل بها ريقى وأظل بها رأسى عندما
يجهدنى السير وتحرقنى الوحدة .. وجدت بقية من حياتى الأولى فى ولدى
وأحفادهما .. وأحسست بهم كأوراق تتكاثف من حولى لتقبنى وهج

الشمس .. أحسست بهم على طول الزمن .. كشيء يمنحني إحساسا بالألفة في حياة موحشة مقفرة .

وصممت العجوز برهة تلتقط أنفاسها .. وبدا الشرود في عيني « هدى » .. وعادت العجوز تقول في صوت خافت كأنما تحدث نفسها :
— عمرنا طويل يا بنتي .. طويل وموحش ومضن .. وأشق ما فيه رغبات جسدنا التي تتبدل على مدى العمر .. وأحمق ما نفعله أن نجعل لرغبات هذا الجسد في فترة من فترات العمر .. حكما على العمر كله .. فنظل نقاسي منها بقية العمر .

وصممت العجوز مرة أخرى .. وطال صمتها هذه المرة .. وزفرت « هدى » زفرة حارة .. ثم همست متسائلة :
— وماذا تريدنني أن أفعل ؟

— لا تجمدى بقية عمرك على هذه الفترة من حياتك .. ليس هناك سعادة دائمة في هذه الحياة .. من العبث أن نطبق بأيدينا على مواردنا .. ونظنه سيكفينا مدى الحياة .. فإذا ما اكتشفنا بعد فترة أنه نضب .. أصابتنا الحيبة وقتلنا اليأس .. السعادة في هذه الحياة محدودة الكم .. متعددة الموارد .. وعلينا أن نعرف متى نترك المورد قبل أن ينضب معينه .. حتى لا نخذل فيه .. ويصبح مبعث يأسنا ، بعد أن كان منبع آمالنا .. وتحجف على كأسه حلوقنا .. وتنهك قوانا .. لقد عشت في حبك أجمل أيام عمرك .. فلماذا لا تحمدن الله عليها ؟! لماذا لا تعتبرين ما أخذته من حبك ربحا .. وتدركين مما تلقيتيه من نذر بأن نهايته قد أوشكت .. ولم يعد وراءه غير الخسارة ؟! لماذا لا تؤمنين بأنك شربت الكأس .. ولم يعد بها غير الثالة ؟

وصممت العجوز وعادت « هدى » تسأل في لهجة ضيق وتبرم :

— وماذا تريدنني أن أفعل ؟

— ضعى بنفسك النهاية .. تجعلى من أيامك السعيدة .. ذكرى جميلة ..

تعاودك كالنسمة العطرة في خريف عمرك . كوني حازمة .. واطوى صفحة حبك قبل أن تتلفها الأيدي العابثة .. لا تمنحني الزمن الساخر الفرصة لكي يحيل حبك الجميل .. مشكلة مزمنة تنغص حياتك وحياته .. انطلقى في الحياة مرة أخرى ورددى مع القائل : « في نقيه الزهر عزاء عن النرجس » .. عودى إلى أصدقائك ووسطك وعملك .. وحاولى أن تجدى لنفسك طريقا آخر غير هذا الطريق المغلق . امنحى نفسك فرصة حب آخر .. من يدرى .. سبيله أسهل من هذا السبيل الشائك الوعر .

وهزت « هدى » رأسها وهتفت قائلة .. دون أن تحاول وقف الدمع المنساب من عينيها :

— ليتنى أستطيع .

وقبل أن تكمل حديثها دق جرس التليفون .. وبلهفة مدت يدها ورفعت السماعه ، وأحست بخذلان عندما افتقدت الصوت الذى تهفو إليه ، وسمعت صوت شكرى يهتف بها قائلا :

— آلو .. هدى .

— أجل .

— أنا شكرى .

— أهلا شكرى .. كيف حالك ؟

— كيف حالك أنت أيتها الهاربة ؟

— الحمد لله .

— إلى متى ستظلين مختفية !؟

— أبدا .. أبدا .. كان لا بد من قضاء فترة نقاهة بعد العملية .

— لقد سألت عليك عدة مرات .. فلم أجدك .

— كنت فى بيروت .

— وحدك يا خائنة .. لماذا لم تدعينا ؟

- لم تسمح الظروف .. لقد ذهبت في عجلة .
— وإلى متى ستستمرين في هذا الكسل ، لقد استمرأت الراحة ؟
— أبداً .. بضعة أيام .. وأعود إلى العمل .
— وكيف صحتك الآن ؟!
— أحسن .. الحمد لله .
— إن لدى أخبارا كثيرة أود أن أقولها لك .
— ما هي ؟!
— ليس في التلفون .. تحتاج إلى جلسة .
— إذا نتفق على موعد .
— متى ؟
وصمتت « هدى » برهة في حيرة .. ثم قالت :
— أتحدثني غدا لكي نحدد الموعد ؟
— أم لكيلا أجذك ؟
— أبدا سأكون في البيت طوال اليوم .
— إذا لماذا لا نتفق الآن ؟
— لأنى في الواقع لدى بضعة مواعيد ستأتى إليّ الخياطة .. وعندى موعد مع
أحد الصحفيين .
وقاطعها شكرى قائلا :
— اسمعى يا هدى .. أنا أعرف مواعيدك هذه ، وأعرف طريقتك في
الزحقة .. إنى أريد أن أحدثك في أشياء هامة .
— مثل ...
— أولا لدى عرض لك مع كازينو الفردوس .. عرض مغر جدا ، وثانيا
لدى لحن جديد ممتاز أحب أن أسمعك إياه قبل أن يلبشه أحد .. وثالثا .. أريد
أن أراك ، لأننى أحس أنى قد أصبحت عاجزا عن العمل بدونك .. أيكفى كل

ذلك مبرراً لكى ألقاك ؟

وقبل أن تجيب « هدى » هزت « أم حبيب » رأسها فى غيظ وقالت :
دعيه يأتى .. أعطى لنفسك فرضة ، وحطمتى هذا الحصار الذى فرضته
حول نفسك .

وردت « هدى » فى لهجة مقتضبة :
تعال غداً .. فى العاشرة .

وضعت « هدى » السماعة .. واسترسلت « أم حبيب » تقول :
— إنسان طيب ونافع ويحبك .. ويريد الزواج منك .. لماذا تبعدينه عنك ؟!
إنك فى حاجة إلى سند يسندك .. قبل أن تنزعى الوثاق الذى شددت نفسك
إليه .. فى حاجة إلى من يتلقفك قبل أن تهوى عن صخرة حبك التى اعتلتها ،
ونأيت فيها عن كل من حولك .. فى حاجة إلى حقنة مخدر .. قبل أن تقدمى على
عملية البتر التى يجب أن تقومى بها .
وأحست « هدى » من كلام « أم حبيب » كأن سكيناً يحز فى قلبها لينزع
منه حشاشته .

وبدت لها العجوز كأنها جلاد يقف على المقصلة .. وحاولت جهدها .. أن
تتالك وتتجلد .. ولكن أعصابها أفلنت وهتفت باكية بصوت ملؤه المرارة :
— لا .. لا .. لن أفعل .. إنى أحبه .. أحبه .

وأحست العجوز أن دموعها تنساب فى تجاعيد وجهها وتمتت قائلة :
— ليتنى أستطيع أن أفديك ببقية عمرى .. ليتنى أستطيع أن أفعل شيئاً ..
ولكننى أعرف القدر خيراً منك .. وأنه يهينا بيد .. ويسترد باليد الأخرى
ما وهب بالريح المركب .. هذا القدر .. مراب كبير .. يمنح السعادة ويستردها
مستفاداً .. بالربا الفاحش .. بقدر ما يمنحنا من متعة .. بقدر ما يفرض علينا

من ألم .. حتم علينا .. لكى نتجنب رباة الفاحش من المتاعب .. أن نقبض يدنا
عن متعه ، وأن نكف عن التعامل معه .. فنخرج من حياتنا كما دخلنا ..
بلا سعادة ولا شقاء .. حتم علينا أن نعيش حياتنا صفر اليدين من المتع .. حتى
لا نسدد عنها أبهظ ضرائب الآلام والمتاعب .. علام إذا خلقنا .. ولماذا أتينا !؟

شكواك حمقاء

ضم « سامى » المعطف على جسده وأحكم « الكوفية » حول عنقه ليتقى هبة الهواء القارس التى لسعت وجهه وهو يغادر باب الطائرة قبيل المغرب .. وهبط درجات السلم وسط رهط المسافرين وأخذوا يتبعون مضيئة الطائرة إلى مبنى المطار .. وفى طريقه استطاع أن يميز وجه أخيه ، وفايزة ، وسليم ، وبعض رفاق الحزب ، والمحربين يلوّحون بأيديهم وسط المستقبلين .

وعانقه أخوه وشدّت « فايزة » على يده فى لهفة ، وأقبل « سليم » مع بعض المستقبلين يصفحونه مهنيين بسلامة الوصول .. ووقف الجميع يتحدثون فى انتظار الانتهاء من إجراءات الجوازات والتفتيش الجمركى .. وانتحى « سامى » بأخيه وفايزة وسليم ووقفوا بجوار إحدى مدايق الغاز النحاسية المجاورة لمكتب أحد رجال الشرطة وأحس « سامى » وجوماً على وجه أخيه فسأله مستفسراً :

— كيف حال والدتى ؟

— شديدة القلق عليك .. لم تكف لحظة واحدة منذ أول أمس عن السؤال عن موعد وصول الطائرة .. قد تركتها على حال من القلق الله أعلم بها .

وتدخل سليم قائلاً :

— لماذا لاتحدثها فى التليفون لتطمئنها عليك !؟

ثم تلفت حوله ، وقبل أن يرد سامى سحبه من ذراعه قائلاً :

— تعال إلى مكتب ضباط الجوازات .. فلا أظنه سيمانع فى استعمال تليفونه .

وسار سامى مع سليم إلى حجرة الضابط ونهض الرجل مرحباً به :
— أهلاً وسهلاً أستاذ سامى .. حمد الله على السلامة .. لقد أديتم عملاً رائعاً
في القاهرة .

— شكراً .. هل أستطيع أن أستعمل التليفون لحظة ؟

— طبعاً .. طبعاً .. تفضل .. أتأمرون بقهوة ؟

— شكراً .. لن أزعجكم أكثر من دقيقة واحدة .

— أستغفر الله .. المكتب تحت أمركم .

وانسحب الرجل في كياسة من الغرفة ليتيح لسامى فرصة الحديث ، وتبعه
سليم .. ووقف « سامى » أمام التليفون يطلب رقم البيت ، وبعد بضع دقائق
سمع صوت الخادمة تهتف متسائلة :

— ألو .. من ؟

— أنا سامى .. كيف حالك يا مجيدة ؟

— الحمد لله على السلامة يا سيدى :

ثم صاحت في فرحة :

— سيدتى .. سيدى سامى فى التليفون .

وما لبثت أن وجهت إليه الحديث قائلة :

— دقيقة واحدة حتى أحمل لسيدتى التليفون .

وبعد برهة سمع صوت والدته ، وقد غلبها البكاء تهتف به :

— سامى !؟ أين أنت ؟

— فى المطار .

— حمد الله على السلامة يا حبيبى .. لماذا غبت كل هذه المدة !؟ ولماذا

لم تراسلنى لتطمئننى عليك .. لقد ...

ورد سامى مقاطعاً :

— لنرجى كل هذه الأسئلة حتى آتى إليك .

— وكيف صبحتك ؟

— على ما يرام .. كيف حالك أنت ؟

— كما أنا .. ما زلت أحس بالخفقان كلما تركت الفراش .. ولم أذق النوم

ليلة أمس .. وأتأبنتني الهواجس والأفكار لخوفي عليك .. متى تأتي ؟

— مسافة الطريق ... لن أغيب أكثر من نصف ساعة .. مع السلامة .

ووضع « سامى » السماعة .. ووقف أمام التليفون برهة .. وأحس بحنين

شديد إلى أن يسمع صوت « هدى » .. وإلى أن ينبعثها بأنه وصل .. لقد ذكر

حزنها لأنها لا تملك حتى وداعه .. وأحس أن من حقها عليه أن تشارك في

استقباله بطريقة ما .

وأدار القرص وقد أصابه نوع من الاضطراب والقلق .. وهو يحس بالحنين

المفرط إلى سماع صوت « هدى » .. ودق الجرس بضغ دقات .. وما لبث أن

سمع صوت « أم حبيب » ترد عليه متسائلة :

— ألو .. من ؟

— مساء الخير يا أم حبيب .. أنا سامى :

— أهلاً وسهلاً سيدى سامى .. حمد الله على السلامة .

وأحس « سامى » بشيء من خيبة الأمل وهو يسمع صوت « أم حبيب » ترد ..

وكان يتمنى أن يفاجئ « هدى » بمحدثه .. وزاد من ضيقه وهو يجد المرأة تنتظر

على السماعة .. مما أوحى إليه بأن « هدى » غير موجودة .. وإلا تركت

السماعة وأسرعت إليها لتخبرها نبأ وصوله ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن

يسأل :

— أين الست هدى يا أم حبيب ؟

— لقد خرجت .

— أين ؟

وترددت « أم حبيب » برهة قبل أن تجيب :

- لا أعرف يا سيدى .
— ومتى ستعود ؟
— أغلب ظنى بعد الانتهاء من عملها .
— عملها !! ومنذ متى بدأت العمل ؟
— لا أعرف يا سيدى .
— ومتى خرجت ؟
— لقد تناولت الغداء فى الخارج .
— أين ؟
وردت العجوز ببساطة :
— لا أعرف يا سيدى .
وهتف « سامى » بشيء من الحدة :
— كل شيء لا تعرفين .. ما الذى تعرفينه إذن ؟!
— لا أحب أن أتدخل فى شئوننا ياسيدى .
— عندما تأتى أخبريها أنى وصلت .
— حاضر يا سيدى .
ووضع « سامى » السماعه وقد بدا عليه الضيق .. وأقبل « سليم » فأحس
بما أصابه فسأله فى قلق :
— خير .. ماذا بك ؟
وحاول « سامى » أن يفض عنه الضيق فرسم على وجهه ابتسامه وأجابه :
— لا شيء .
— ألم تجد الوالدة بخير ؟
— أجل .. أجل .
— إذن ما الذى ضايقتك ؟
— قلت لك لا شيء .

واستطاع « سليم » أن يدرك شيئاً مما حدث ، ولم يشك في أن « سامى » قد طلب « هدى » وأحس بأن هذه المحادثة هي التى سببت له الضيق .. فقال وكأنه يحدث نفسه :

— والبقية تأتى .. ربنا يتوب عليك منها ومن كل ما وراءها من متاعب .
وكانت إجراءات المطار قد انتهت ، وشكر « سامى » ضابط الجوازات ثم اتجه إلى الخارج .. وقبل أن يهيم بركوب العربة تساءل :

— من سيأتى معى !؟

وأجاب سليم :

— سأعود أنا إلى المكتب .. لأراجع بقية الصفحات .

— لن أتأخر عليك .

— أنتوى الحضور إلى المكتب الليلة ؟

— طبعاً ..

— لماذا لا تستريح !

— ممّ أستريح ؟

— من السفر .

— لقد مكثت ساعتين فى الطائرة لا أفعل شيئاً سوى الراحة ..

— إن كل شىء يسير على ما يرام .. وليس هناك ما يستدعى حضورك الليلة .

— المفروض أن أقابل عبد الوهاب بك .. وأقدم له تقريراً عما حدث .

— يا أخى .. الصباح رباح .. لم تطر الدنيا .

— بل توشك أن تطير .. ليس لدينا وقت نضيعه .. وخصوصاً يتربصون بنا .

وتدخل أخو سامى قائلاً :

— كنت أظنك ستقضى الليلة معنا فى البيت .. إن والدتى فى أشد الشوق

إليك .

— سأجلس معها كما تريد ثم أعود إلى المكتب .. هيا بنا .
وجذب أخاه إلى السيارة وهو يسائل فائزة :
— أستذهين إلى المكتب ؟
— أجل .

— لن أتأخر عليك .. إذا سألت عنى أحد قولى له إني سأكون فى المكتب فى الساعة السابعة .

وودع « سامى » مستقبله ، وانطلقت به العربة وقد جلس أخوه إلى جواره .

وقطعت العربة طريق المزة وكلا الأخوين واجم شارد .. ولم يستطع « سامى » أن يمنع ذهنه من معاودة التفكير فى الحديث القصير .. الخيب لأمله .. الذى دار بينه وبين « أم حبيب » .

كان يتمنى لو أجابته « هدى » .

ولكنها قطعاً لم تكن تعرف أنه عائد .

وأنى لها أن تعرف !!

لو حاولت أن تسأل الجريدة أو الحزب أو البيت لعرفت .

ولكن تسأل مَنْ ؟!

أى إنسان ؟! أى عامل تليفون . كان لاشك سيخبرها .

باعتبارها مَنْ ؟!؟

أى إنسان أيضاً ؟! صديقة .. قريبة .. صحفية .. إن السؤال لن يستعصى

عليها لو أرادت ، فهى ليست غبية .

ولكن من يدرى .. ربما حاولت وفشلت .

أو ربما أرادت أن تجنّب أى احتمال لريبة أو شكوك .

ولكن هبها لم تعرف .

ألا تتوقع هى أن يعود بين يوم وآخر ؟!

وماذا تفعل إذا هي توقعت؟!

تلازم الدار ليل نهار؟

بالطبع لا .. إنه لا يمكن أن يفرض عليها ذلك .. رغم أنه غير مستبعد لا سيما

وهي لم تزل بعد في دور النقاهة .

إنه لا يطلب منها ملازمة الدار ليل نهار في انتظار عودته .

ولكنه أيضا لا يتوقع منها أن تتركها .. ليل نهار .. وهي تعلم باحتمال

عودته .. أو حتى لا تعلم .

ليس المفروض أن تنتهز فرصة غيابه .. لتهرب من الدار .. تخرج قبل

الغداء .. وتتناول الغداء في الخارج .. وتظل طول النهار وساعات من الليل غائبة

حتى تعود في آخر الليل إلى البيت بعد انتهاء العمل !!

هذا .. إذا عادت .

وأحس بغليان في جوفه .. وكره أن يترك نفسه نهباً لوساوس حمقاء ..

وحاول جهده أن يغير مجرى أفكاره .. وكانت العربية قد أخذت تعبر بيوت المزة

البيض المنخفضة وتمهل السائق وهو يضرب النفير لبعض صبية تجمهروا وسط

الطريق .

ونظر « سامي » إلى أخيه .. فاستطاع أن يميز للمرة الثانية ما علاه من وجوم

واكتئاب فقال متسائلاً :

— ما بالك؟

وأجاب الأخ وهو مستمر في شروده :

— لا شيء .

— بل بك شيء .. منذ لقيتك .. لم أجد في وجهك ما تعودت أن ألقاه من

بشاشة .. إن الدنيا بخير .. فماذا يدعوك إلى الاكتئاب؟!

وهز أخوه رأسه وأجاب في صوته الخافت ولهجته المقبضة :

— لا شيء .

وعاد سامى يسأله :

— هل هناك ما يضايقك فى الجامعة ؟

وتنهذ أخوه قائلا :

— فى الجامعة ، وفى غير الجامعة .

— شىء خاص بالدراسة ؟

— لا .

— شىء خاص بك أنت ؟

وصمت الصبى ، وأحس « سامى » من نظراته إلى ظهر السائق أن الحديث

فى متاعبه ليس مجاله العربية .. فمد يده وربت ساقه برفق قائلا :

— ستحدثنى بكل شىء عندما نعود إلى البيت .. لم تتعود أن تخفى عنى

متاعبك .. أليس كذلك ؟!

وتنهذ الصبى ولاذ بالصمت .

وأخذت العربية تجتاز مدخل دمشق المتسع بأشجاره الباسقة الجرداء على .

الخانين ، وبردى ينساب يمينا ومن ورائه أبنية المعرض وقد بدت مقفرة تعصف

فيها الريح .

ولم يستطع « سامى » أن يرخى عينيه وهو يمر ببيت « هدى » ، وتعلق

بصره بالشرفة وراء الشجرة العالية التى تعود أن يقبع وراء زجاجها على المقعد

الكبير وفى حجره « هدى » .. وتمنى لو استطاع أن يقفز من العربية ويعدو ليضم

« هدى » بين أحضانه .. ولكنه أحس باستحالة أمنيته .. لأن « هدى » ذاتها

غير موجودة .. وهو لا يعرف متى تعود الليلة .

وأخيرا وقفت العربية أمام باب البيت .

ولم تمض لحظات حتى كان يستقر بين ذراعى أمه ، وقد أخذت تضمه كأنه

طفل صغير .

ونظر إليها وهو يرى دموعها تنساب وقال ضاحكا :

- علام البكاء؟ .. على عودتي؟ .. ماذا كنت تفعلين إذا لم أعد؟
— أبعده الله الشر عنك ، ولا أراني فيك أو في أخيك مكروها .
ثم نظرت إلى أعلى وهتفت داعية :
— يا رب اجعل يومى قبل يومهما .. يا رب اجعلهما يحملاني بأكفهما ..
ولا ترني فيهما يوما بغیضا .
وهو « سامى » رأسه قائلا :
— يا ستى لِمَ كل هذا؟! لماذا تتحدثين عن يومك ويومنا .. ادعى الله أن
يحفظنا جميعا . إن قدرته على حفظنا لا تقل على قدرته على أخذنا .
وضحكت الأم قائلة :
— يحفظكما أنما كفاية .. لن آخذ أيامى وأيام غيرى .
وأجاب « سامى » بما يعرف أنها تريد منه :
— ما زلت صبية يا أماه .. ربنا يعطيك طول العمر .
وانتهى « سامى » من تحية أمه .. وأخرج ما أحضره من هدايا لها ولأخيه
ولللخادمة .. ولبقية الأهل والأصدقاء .. ثم ذهب يبحث عن أخيه ليعطى له
هديته .

لهفة على لقاء

كان الصبي قد اختفى في حجرته ، وجلس إلى مكتبه متظاهرا بالقراءة في أحد الكتب ، وأدهش « سامى » إصراره على الاعتكاف وخلوده إلى الوحدة في حجرته .. وانطواؤه .. على حين ينبغي عليه أن يفرح للقاءه ويتلهف على أخباره . ووضع « سامى » أمامه رباط العنق والصديري الذي أحضره له وقال باسمها :
— ما رأيك في هذا ؟

وهز الصبي رأسه وأجاب في صوت خافت :
— لطيف .. متشكر .

ومد « سامى » يده إلى الكتاب فأغلقه قائلا :
— لا تحاول أن تفهمنى أنك تستذكر . هيا قل لى ما بك ؟
— لا شيء .

— لا داعى لأن تقول لى لا شيء ، لأنى أعرف تماما أن بك شيئا .. فأفض به
لكى تريح نفسك وتريجنى .. قل ماذا حدث ؟
وفجأة رفع الصبي رأسه قائلا فى حزم :
— لن أذهب إلى الكلية .

وتساءل « سامى » فى دهشة :
— لن تذهب إلى الكلية ؟! لماذا ؟! ماذا حدث ؟

— الشيوعيون يعايروننى بك .

— بى أنا ؟! ماذا يقولون ؟

— يسمونك .. الأستاذ « هدى نور الدين » .

وأحس « سامى » كأن ماءً بارداً قد سكب على رأسه . ومضت برهة ، وهو يحمق فى أخيه فى شىء من الذهول .. وما لبث أن تتم قائلًا :
— الأوغاد .. أهذا كل ما استطاعوا أن يحاربوني به ؟
وهز أخوه رأسه فى ألم وتساءل ، وهو يكتب نوبة بكاء :
— أحقيقة ما يقولونه ؟

— هبه حقيقة .. ما لهم وعلاقات الناس !؟
— لا يا أخى !! هذه ليست علاقة خاصة .. إنها وصمة .. إنهم يتحدثون عنها بطريقة مخزية .. إنهم يجعلون منها سبة فى جبينك .. يتحدثون عنك كعشيق من عشرات العشاق .. ويصفونك بأنك تقضى الليل مخمورا بين أحضانها .. وسط القمار والرقص والعريضة .

وأحس « سامى » كأن قول أخيه مدية تحز فى صدره .. وأجاب ، وهو يحاول جهده أن يضبط أعصابه .
— إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك .

— كيف يكون إذن ؟ .. هل يمكن أن يتصوره أحد إلا كذلك ؟
وكره « سامى » لنفسه أن يقف من أخيه الصغير موقف المذنب .. وأن يقدم له تفسيراً عن علاقة .. وشرحا لوضع لا يمكن أن يكون على أفضل الوجوه وبخير التفسيرات .. إلا خاطئا .. وضع لا يبرره سوى الإحساس الحقيقى بالحب .. وهو مبرر لا يمكن أن يقنع إلا فردين .. هم طرفا الحب نفسه .
ولم يطق « سامى » أن يقف من أخيه موقف المحب العاجز .. ولا أطاق أن يدخل وإياه فى جدل يفسر به موقفه أو يقنعه بالتسليم بشىء يحس هو نفسه لو وضع مكانه .. لما استطاع أن يسلم به .

ووجد أن المشكلة أكبر من مجرد إقناع أخيه .. إن أخاه يمثل قطاعا من الشباب الوطنى الثائر الذى لا يمكن أن يسلم به إلا كنموذج رائع للكفاح والوطنية .. لا يمكن أن يتصور أبدا .. أن له قلبا يحب .. وإرادة تضعف أمام ذلك الحب ..

لا يمكن أن يتخيله إلا أنه يكتب ويخطب ويناضل ويخوض معارك الكفاح من أجل الحرية والاستقلال .. لا يمكن أن يقرنه إلا بمسميات العزة والكرامة والنصر .. مسميات يبدو الحب بجوارها ضعفا ومذلة وهوانا .

ولم يحس في نفسه القدرة وقتذاك على مناقشة تلك المشكلة .. سواء مع أخيه أو مع غيره من الناس .

لم يجد أن الوقت قد حان بعد لكي يواجه نفسه بالصراع المحتم الذي لا بد أن سيخوضه مع جانبي المشكلة .

لم يشعر أنه قد وصل إلى النقطة التي يتعذر معها المحافظة على توازنه والاحتفاظ بكلا الجانبين .. والتي يتحتم عليه أن يضحى بأحدهما لكي يحتفظ بالآخر .

كان يحس بأنهما معا قد باتا يكوّنان حياته .. لم يتصور مرة واحدة أنه يستطيع أن يتخلى عن دوره القيادي في معركة وطنه .. أو ينأى بنفسه عن ميدان الصراع لكي يجيا حياته الخاصة مستمتعا باسترخاء ناعمة لينة .

ولا بات يتصور أيضا كيف يمكن أن يواصل السير في حياته تلك مجردا من حبه .. يعدو فيها لاهثا مكروبا .. دون أن يجد ملجأ يلجأ إليه أو مقرا يستقر فيه .

لقد أمضى حياته صائما .. زاهدا .. وكان يمكن أن يواصل السير في زهده وصومه .. كان يمكن أن ينطلق في ببداء الحياة .. غير عانى بقفرها وبيابها .. إذ لم يجد فيها ما يغريه بالتهمل للرى والزاد .. حتى صادف ملجأ .. الذي خلقه الله له .. فأحس بلسعة الأرض تحت قدميه ووهج الشمس فوق رأسه .. فاندفع إليه وتشبث به .

لماذا يحرمونه عليه ؟

لماذا يحاولون أن يقيسوه بمقاييسهم ؟

ولماذا يجبن هو عن الارتباط علنا .. وفرض وجوده عليه كجزء من كيانه !

أيمكن هذا ؟!

إذا كانوا لم يَحْتَمِلوها كعشيقة .. أيَحْتَمِلونها كزوجة !؟
أم تكون القاضية .. على كل آمالهم فيه .. وإيمانهم به ؟
وهز رأسه كأنه ينفذ عن ذهنه ثقلا يوشك أن يودى به .. ونظر إلى أخيه
الصامت في حزن ، المطرق في يأس واكتئاب .. وقال له ، وهو يتهد في أسى :
— حسن .. لا أظن الوقت مناسباً لمناقشة الموضوع .. كل إنسان له كيانه
البشرى .. وله ميوله الخاصة ، ولست أقول ذلك لأعتذر عن نزوة بشرية ، ولكن
لأوضح لك أن على كل إنسان يخوض معركة البشرية مع نفسه .. هو وحده الذى
يستطيع أن يعرف ما هو حق وما هو غير حق .. وهو الذى يقرر نتيجة صراعه وعليه
أن يَحْتَمِلها وحده وأنا مهما بدوت لك أو لغيرك .. لا أزيد عن إنسان .. وعلى أن
أخوض معركتى مع نفسى .. وعلى أن أتحمل نتائجها ، وهمس به أخوه :

— لست وحدك الذى تتحملها .. إننا سنتحملها معك .

— أرجو الله أن يجنبني كل ما يسيئكم أو يخذلكم .

ونفض الصبى فمد ذراعيه وضم أخاه في لطفة واندفع في نوبة من البكاء .. ولم
يملك « سامى » إلا أن يضم إليه الجسد الصغير المرتجف في حنان .. وأن يبذل كل
ما يملك من جهد حتى يجمد الدمع في مآقيه .. فلا تصيبه نوبة البكاء .. وتختلط
دموعه بدموع الصبى .

وعاد « سامى » إلى حجراته .. والأفكار تضطرب في ذهنه .. وكل شىء قد بدا
من حوله مبهما غامضا .. عدا شىء واحد كان يلح عليه في وضوح وإصرار .. هو
لقاء « هدى » .

ومن أجل هذا .. كان عزمه على العودة إلى المكتب .

ولم يكد يستقر في البيت هنيئة ليبدل ملابسه .. حتى كان يهبط مرة ثانية ،
ليأخذ السيارة في طريقه إلى الجريدة .

وكانت « فائزة » تجلس في انتظاره وبها إحساس الجالس على بركان لا يعرف

متى سينفجر .

- لم تعرف ماذا يمكن أن تكون نتيجة عملها الذي أقدمت عليه .
إنه عمل أحمق لا شك فيه .
لم تعرف « فائزة » ما به من حماقة ، إلا بعد أن فعلته .
ومع ذلك .. لم يكن هناك مفر من عمله .
لم تكن تستطيع أن تجلس صامتة .. وهى تراهم يقذفونه بالقاذورات
والحجارة .. كان عليها أن تفعل شيئاً لحمايته .
ولم تستطيع أن تفعل إلا ذلك الشيء .
وعليها الآن أن تجلس فى انتظار نتائجه .
ودخل « سامى » فنهضت لتحيته ورد عليها التحية متسائلا :
— ألم يطلبنى أحد ؟
— لم يطلب أحد فى هذا الرقم .. والتليفون الآخر دق بضع مرات ورد عليه
الأستاذ سليم .
ودخل « سامى » مكتبه فاستقبله « سليم » مهللا وهو يقول :
— أخيرا .. من الله علىّ بالفرج .. تسلم مشكلاتك . لقد بذلت كل ما
أستطيع لمضاعفتها لك .. تفضل .
وأزاح إليه كوما من المقالات والرسائل :
— مشكلات قراء ، وكتاب ، ومحررين ، ورسائل إعجاب ، وشتائم .
وأخلى المقعد لسامى وهو يسترسل قائلا :
— لقد أخذت الإعجاب .. وتركت لك الشتائم .
وجلس « سامى » على مقعده .. وبلا وعى امتدت يده إلى السماعه وهو
يتساءل :
— هل سأل عنى أحد ؟
— كثيرون سألوا عنك .. قلت لهم إنك مسافر .
— أقصد الآن .. بعد أن عدت !؟

— لا .

وبدت الخيبة على وجه « سامى » وراح يدير القرص طالبا رقم هدى ؛ وجلس
سليم يرقبه وهو يسأل :

— الست حضرت ؟

وردت عليه « أم حبيب » قائلة :

— لا يا سيدى .

— ألم تتكلم ؟

— لا .

ووضع السماعة فى ضيق .

وأحس « سليم » أن هناك أشياء كثيرة .. يجب أن تقال ، وكان هو أحق الناس بقولها .

معركة الشبان فى الحزب .. والضجيج الذى أحدثته .. وتهديد فؤاد ،

وذهاب « فائزة » إلى « هدى » .

كل هذا يجب أن يعرفه بتفاصيله ، حتى يستعد لمواجهة .

وقبل أن يفتح « سليم » شفثيه للحديث دق جرس التليفون .

ورفع « سامى » السماعة فى لطفة .

وبدت على ملامحه الخيبة وهو يهتف محييا :

— أهلا وسهلا عبد الوهاب بك .

— حمد الله على السلامة يا سامى .. لقد علمت الآن فقط أنك وصلت ..

كيف الحال ؟

— الحمد لله .. لقد فعلنا أشياء كثيرة .

— أعلم هذا .

— استطعنا أن نشرح قضيتنا جيدا .. وأن نسمع الرأى العام العالمى صوتنا .

— كنت موفقا جدا .. ولعلك تكون قد اقتنعت بإصرارى على سفرك أنت

بالذات ؟

— أجل كان يجب أن أكون هناك فعلا . إن هناك أشياء كثيرة حققناها بالاتصال الشخصي ، وأريد أن أسردها عليك .

— تعال في أى وقت .. إني في انتظارك في البيت .. هل تستطيع أن تأتي الآن ؟ وتردد « سامى » برهة ولكنه ما لبث أن قال :

— أجل .. إذا لم يكن هذا يضايقك .

— قلت .. إني في شوق إلى رؤياك .

ووضع « سامى » السماعة وهو يحس بشيء من الضيق .

كان يتلهف على لقاء « هدى » ، وكان يحس أنها ستتصل به بين آونة وأخرى ، فلا بد أن تحضر أو على الأقل تتحدث إلى « أم حبيب » ولا بد أن تخبرها « أم حبيب » بوجوده .

كان يشعر بفرط الإجهاد .. وكان يعرف جيدا المكان الذى يريجه .. هناك على المقعد الكبير .. فى الحجرة الدافئة ، وراء الزجاج الذى يبدو منه مجرى بردى .. ينساب حتى يجتفى بين الهضاب . والأنوار تتلألأ فى حضن الجبل .. وذراعان تضمانه فى شوق .. وشفتان تتحسسان عنقه وذقنه ، وأنفاس هادئة تدفق وجهه . وبدا له كأن القدر يعانده .

وأنه قد تحتم عليه أن يرى كل الناس قبل أن يراها .. ولم يملك إلا أن ينهض فى استسلام قائلا لسليم :

— سأذهب إلى عبد الوهاب بك .. انتظرني هنا .

— هل تمكث كثيرا ؟

— لا أظن .

— إذا سأنتظرك إذا أردت .

وبدا التردد على وجه « سامى » وكأنما يود أن يقول شيئا .. وعندما وصل إلى الباب التفت إلى « سليم » قائلا :

— إذا تحدثت .. قل لها إني سأكون هنا فى الساعة الثامنة .

- ورفع « سليم » رأسه وأجاب :
- كنت أود أن أقول لك شيئا هاما ..
- عندما أعود .
- أفضل أن أقوله لك قبل أن تذهب .
- ما هو ؟
- ونفض « سليم » مقتربا من « سامي » .. وأمسك بذراعه برفق وقال ببساطة :
- عبد الوهاب بك يعرف علاقتك بها .
- ورفع « سامي » حاجبيه في دهشة :
- ماذا يدعوك إلى أن تقول هذا ؟
- لأني أخشى أن يحدثك في موضوعها فتفاجأ .
- وما الذي يدعوك إلى هذا الظن ؟
- لأن المسألة قد شاعت .. إن المشكلة لم تكن في أن يعرف هو .. ولكنها في أن يعرف أن الناس كلها تعرف .
- ما هذا الذي تقوله ؟
- حدثت معركة في قاعة الحزب بين الشبان حول علاقتك بهدى .
- معركة في الحزب حول علاقتي بها ! ما هذا الذي تقوله ؟
- وبلغت مسامعه عند دخوله إلى حجرتة .. واضطر إلى تهدئة الشبان وفض معركتهم .
- وبدا الوجوم على وجه « سامي » واستطرد « سليم » يقول :
- وحضر بعدها فؤاد عبد الجبار .. وتفوه بكلام سخيف من الذي تعود أن يقوله وأكد بأنه سيوقع بك قريبا .
- وأطرق « سامي » برأسه وبدا عليه الشرود ثم تتم قائلا :
- كل هذا حدث ؟!
- وأحس « سليم » بالضيق الذي أصابه .. وكره أن يخبره بما فعلته « فائزة »

- ووجد أن من حقها هي أن تخبره إذا شاءت .
ومد يده فشد على ذراعه قائلاً :
— لقد أردت أن أخبرك بكل ما حدث ، حتى لا تفاجأ بشيء وتكون على استعداد للتصرف .
ونفخ « سامى » من أنفه نفخة ساخنة .. وتمتم قائلاً :
— تصرف .. أى تصرف !؟
— كل شيء يمكن إصلاحه .. ولكن يجب عليك أولاً أن تتحمل عملية البتر .
وأطلق « سامى » زفرة حارة وهو يردد بصوت خافت :
— بتر .. ما أسهل الأقوال !
ثم انفلت خارجاً وهو يكاد لا يبصر ما أمامه .

طريق الصواب

وصلى « سامى » إلى بيت « عبد الوهاب بك » واجتاز الساحة التى تتوسطها البحرة .. وصعد الدرجات الرخامية العريضة المؤدية إلى الطابق الثانى . وكان « عبد الوهاب بك » قد استقر على الأريكة متدثرا بالروب .. وقد أمسك بيده أحد الكتب السميقة التى تزخر بها مكتبته ، ولم يكذب بحسب سامى يترك الباب ويخطو داخل الحجره حتى نهض لاستقباله مرحبا وقال وهو يشد على يده :

— أهلا .. وسهلا .. حمد الله على السلامة .. تفضل .
واستقر على أحد المقاعد المريحة بجوار الأريكة .. ودخل أحد الخدم يحمل القهوة .. ودفع إلى جوف المدفأة بكتلتى حطب ثم انصرف .
وبدأ « سامى » حديثه فأعطى لعبد الوهاب تقريرا موجزا عن كل ما حدث حتى انتهى إلى الحديث الذى دار بينه وبين مندوب الاتحاد السوفييتى الذى قارن معه بين أسلوبى الصداقة والتعاون التام مع احترام مبادئ الشعوب وحريتها ونظمها .. وأسلوب احتضان بعض العملاء لتكوين أحزاب تضمن نوعا من التبعية والسيطرة وفرض مبادئ معينة لا تلائم طبيعة الشعوب .

وابتسم عبد الوهاب وتساءل قائلا :

— هل قلت له ذلك ؟

— أجل .

— وبماذا أجاب ؟

— بالصمت .. وإن كان يغلب على ظنى أنه قد اقتنع بقولى فى قرارة نفسه ..

بل أعتقد أن حكام الاتحاد السوفييتى يؤمنون بذلك ، وإن كان التنظيم الحزبى لا يستطيع أن يخذل أتباعه الذين حاول الاستناد إليهم قبل أن يكتسب الصداقة العلنية للشعوب خشية أن يفقد ثقة أتباعه الذين ما زال يحتاج إليهم فى تهيئة مواطنى لقدمه فى المناطق المحرمة عليه .

وهز « عبد الوهاب » رأسه وعادت الابتسامة تملو شفثيه ، وأجاب فى

هدوء :

— جائر .. وإن كنت فى بعض الأحيان أحس أن الشيوعية فى حقيقتها لا يمكن أن تشكل ذلك الخطر الذى يكمن فى أذهاننا وراء اسمها .

— كيف ؟

— لأنى أرى للشيوعية مفهومين .. مفهومها كمبادئ .. ومفهومها كنظام للحكم .. أما مفهومها كمبادئ .. فهى شىء نموذجى لسعادة البشر لا يمكن تطبيقه أبدا فى دنيانا هذه وبطباثعنا البشرية تلك .. ولا أظن نظاما ما يمكن أن يطبقها بالطريقة التى تحقق أهدافها إلا إذا كان نظاما إلهيا فى دنيا الملائكة .. فإذا ما حاولت تطبيقها بمفهومها كنظام للحكم .. أضحت فى حد ذاتها سخرية الساخر إذا ما قورنت بمفهومها كمبادئ .. ولم تعد أن تكون نوعا من أنواع السيطرة على الجهود .. من أجل عملية بناء .. ورهن حرية جيل أو بضعة أجيال .. لكى نورثها رخاء للأجيال التالية .. وهى بهذا المفهوم الواقعى الذى انتهت إليه لا يمكن أن تكون إلا مرحلة انتقال فى حياة الشعوب .. أو دور تربية .. أو فترة تقشف .. أو عملية بناء .. تتطلب سيطرة كاملة على الحريات وحشدا تاما للجهود .

ورفع « سامى » حاجبيه فى دهشة وتساءل قائلا :

— هل تعتقد ذلك حقا ؟

— طبعا . إن الشعوب جميعا ككل كائن حى يمر بفترات طفولة وشباب

وعجز ، وموت ثم إعادة ميلاد .. ودور العجز والوهن تمثله فترة الانحلال التى

تتحكم فيها قلة متخومة في كثرة محرومة .. ويتفشى الفساد ، وتختل الموازين ، وتضيع الثقة ، ويتبدد الإيمان ، ويسود القلق والحрман والطمع .. حتى يصل الانحلال بالشعب إلى حالة انهيار أو احتضار .. أما إعادة الميلاد فتمثلها الثورات .. التي تعقب فيها صرخات الوضع بكل ما فيها من آلام وأوجاع .. صيحات المولود الجديد .. الذي تحشد الجهود من أجل حمايته .. ووقايته من كل عدوان .. والتضحية من أجله بالكثير من الراحة .. وتمر الشعوب بعد ذلك بفترات الطفولة والنمو التي تحتاج إلى نوع من التربية .. تفرض فيه القيود وتحدد الحريات .. حتى يستكمل الصبى بنيانه ، ويحس بعنفوانه ويكبر على القيود .. ولا يجد مبرر الرهن حرياته .. وينطلق لينعم بحياته ، ويقدر انطلاقه وتحلله يكون إشرافه على النهاية .

وصمت « عبد الوهاب » برهة ثم أطلق نفخة ساخرة من فمه واسترسل يقول :

— تلك حياة الشعوب .. لا بد من فترات تربية وبناء ، وللتربية ، كما تعلم ، أساليب مختلفة من الشدة واللين ، وعمليات البناء تختلف في مدة إتمامها .. والمسألة بعد ذلك تحتاج إلى موازنة .. بين تضحية جيل من أجل جيل آخر .. أو التضحية ببعض عمر جيل من أن يسعد الجيل نفسه ببقية عمره .. وطبائع الشعوب تختلف .. وقدرتها على احتمال التضحيات تتفاوت .. ونوع التضحية المطلوبة تختلف أيضا بين شعب وآخر .. وعندما يتحتم على شعب أن يتنازل عن حريته لكيلا يموت جوعا .. لن يجد أمامه بديلا للتنازل عن هذه الحرية .. ولكن إذا خيّرته بين حريته ، وبين مزيد من الطعام .. فقد يتنازل بسهولة عن المزيد من الطعام .. إن الحرية قطعا شيء جميل .. ممتع .. ولكن علينا في بعض الأحيان ، أن نتنازل عن بعضهما .. لتحقيق ما هو أفضل منها .

— هل هناك ما هو أفضل من الحرية !؟

— الحياة .. وأشياء كثيرة أخرى لا تستطيع أن تنالها في هذه الحياة إلا بالتنازل

عن بعض هذه الحرية .

— مثل ١؟

وصمت « عبد الوهاب » .. وأطرق برأسه واستغرق في التفكير ..
وما لبث أن رفع رأسه وقال في هدوء :

— مثل .. كل شيء في هذه الحياة .. لا يمكن أن تحصل عليه .. إلا إذا تنازلت
عن حريتك من ناحية أخرى .. فلكى تتمتع بحريتك المطلقة .. لا يمكن أن تنعم
بشيء من مظاهر الحضارة من حولك .. وكل منحة يمنحها لك المجتمع لا بد أن
يأخذ ثمنها من حريتك .. والمسألة لا يمكن أن تكون إلا موازنة بين ما تفقد من
حرية .. وما تحصل عليه من مزايا بدل ما فقدت من حرية .. وأنت بعد كل
ذلك .. حر في أن تنطلق في غابة لتنعم بحريتك بين وحوشها ، وبين أن تدخل في
مجتمع لتسلم إليه جزءا من حريتك .. وتلتزم بالتزاماته وتنعم بمزاياه. فإذا
أحسست بأن مجتمعك قد جار على حريتك .. وسلب منها أكثر مما تحتمل وأكثر
مما منحك إياه .. فليس عليك إلا أن تثور .. لتقوض هذا المجتمع الجائر بكل
ما فيه ، وتعود لبناء مجتمع آخر توازن فيه بين ما يمنحك وما تمنحه .

وابتسم « سامي » ورد عليه قائلا :

— هذا هو ما أحب أن نصل إليه .. ما دمنا لا نستطيع أن نملك الحرية المطلقة
في مجتمعنا .. فعلى الأقل نكون أحرارا فيما نمنحه له من حرياتنا .

— لا يمكن أن نكون إلا كذلك .. لا يمكن أن يستقر مجتمع إلا إذا حدد
أفراده بأنفسهم ما يتنازلون عنه من حرياتهم .. في سبيل ما يبيعون لأنفسهم فيه
من رخاء ، وما يحصلون من مزايا .

وصمت « عبد الوهاب » برهة ثم استرسل يقول :

— المسألة كما قلت لك .. موازنة .. يجب أن نوازن دائما بين ما نمنحه
وما نحصل عليه ، وكما لا نستطيع أن نمنح دون أن نحصل .. لا نستطيع أن نحصل
دون أن نمنح .. أنت مثلا لا بد أن تتنازل عن بعض حرياتك إذا أردت أن تواصل

السير في الطريق الذى تسير فيه .

وأحس « سامى » أن دفة الحديث قد تحولت فجأة .. إلى اتجاه ينذر بالخطر .. وكان « سليم » قد أنذره بما عرفه « عبد الوهاب » ولكنه لم يتوقع أن يخوض الرجل فى المسألة بمثل هذه السرعة .. ولم يجب « سامى » وأطرق صامتا منتظرا .. كيف يمكن أن يطرق « عبد الوهاب » الموضوع .. وماذا ينوى أن يقول .

وعاد « عبد الوهاب » يقول بعد برهة صمت :

— لست أدرى فى الواقع كيف أبدأ الحديث فى هذا الموضوع .. بل ولأدري حتى إذا كان من حقى أن أطرقه أم لا .. ولكنى أحس أنى أملك فىك حقين : حق الوالد ، وحق المعلم .. وأنا أعرف سلامة تفكيرك وأعرف سعة أفقك وكنت واثقا عندما بلغتنى بعض الشائعات عن هذا الموضوع أنك لا يمكن أن تتورط فى مشكلة .. وإذا تورطت فأنت أدري الناس بحل مشكلاتك .. ولكنى أحسست منذ بضعة أيام عندما حدثت المعركة فى الحزب .. أنك بحاجة إلى من يساعدك .. وأحسست فى نفسى أنى أولى الناس بمساعدتك .

ومرت برهة صمت أطرق خلالها « سامى » وشرد بعينيه فى جوف المدفأة .. وأخذت الصور تتوالى بسرعة على ذهنه هدى .. وفايزة .. وسليم . وتهد « عبد الوهاب » ثم عاد يقول :

— هل ضايقتك بحديثى فى الموضوع ؟

وهز « سامى » رأسه بالنفى فى شىء من الأسى وقال :

— حديثك لا يضايقنى أبدا .. وإنما تطور المسألة هو الذى أضحى مزعجاً .

— كان لا بد أن تتطور إلى شر من هذا .

— لماذا؟! أنا لم أفعل شيئا أسىء به إلى أحد .

— مجرد العلاقة .. أسأت بها إلى نفسك .. ونفسك يمثلها كل هؤلاء الشباب

الذى يؤمن بك .

(جفت الدموع — ج ٢)

— ماذا يظنوننى .. نبنى !!

— لِمَ لا ؟!

— وماذا يعاب علىّ ؟

— أحقا لا تعرف ؟

— هل يعيرون شكل العلاقة ؟

— وموضوعها .. لا يمكن أن تقنعهم بوضعك فى هذه العلاقة .. على أية صورة من الصور .. أو بأى شكل من الأشكال .

— لماذا ؟!

— لأنهم لا يهضمون أن يكون نموذجهم .. شىء تربطه بالمطربة « هدى

نور الدين » علاقة ما .

— إنها خير من أية سيدة .

— فى نظرك أنت ، وبعينك المحبة .. فإذا كنت تستطيع أن تقنع كل فرد منهم

بوجهة نظرك .. وإذا كنت تستطيع أن تجعلهم جميعا ينظرون إليها بعينك

المحبة .. فلن تكون هناك مشكلة .. فهل لديك الاستعداد للقيام بهذه العملية ؟

وصمت سامى .

لم يستطع أن يتصور نفسه وهو يبشر الشباب بحب هدى بدل من تبشيرهم

بالقومية .. والكفاح .

وعاد « عبد الوهاب » يقول :

— على أية حال .. هذا جدل لا فائدة منه .. يجب أن تعرف حقيقة بسيطة

واقعة .. أنت منطلق فى سبيل يصعب عليك السير فيه بهذا الحمل الذى تحمله ..

فإذا أن تلقيه عن كتفك .. وإما أن تبدل سبيلك .

وتنهذ « سامى » وهو يحس أن « عبد الوهاب » قد قرر له الحقيقة الواقعة

التي لم يحاول هو أن يقررها لنفسه .

واسترسل « عبد الوهاب » قائلا بطريقة حازمة :

— فإذا كنت تقدر قيمة العمل الذى تقوم به .. وإذا كنت تحس بحيويته .. لوطنك ، ولمن حولك .. بل ولنفسك أيضا .. فقد تحتم عليك أن تقطع كل علاقة لك بها .

ورفع « سامى » رأسه وتساءل فى صوت مليء بالمرارة :

— حتى ولو كانت هى أيضا قد باتت شيئا حيويا لى ؟!

واعتمد « عبد الوهاب » فى جلسته ، ثم مد يده فأمسك بذراع « سامى » وضغط عليه بكفه قائلا :

— اسمع يا سامى .. أنت واهم .. أنت تعيش فى أوهام حب يشد أعصابك .. ويرهف أحاسيسك .. ماذا تقصد بأنها قد أضحت حيوية بالنسبة لك !! لقد فقدت ابنى منذ عامين .. وظننت أن حياتى ستذوى بعده .. ومع ذلك وجدت نفسى أعيش .. وأعمل كل ما يعملها الناس .. أنا أكثر منك تجربة فى هذه الأشياء .. ما كان عليك أن تترك أحاسيسك تجرفك إلى هذا الحد .. مثل هذه العلاقة يمكن الاستمتاع بها لفترة ما على ألا ندعها تستأثر بنا .

وهز « سامى » رأسه وقال فى أسى :

— هذه ليست مجرد علاقة .

— كان يجب أن تجعلها مجرد علاقة .. كان يجب أن تحسم الأمر منذ البداية .. إننا نحن الذين نصنع الحب لأنفسنا .. نحن الذين نغرسه وننميه ، ونعود أنفسنا عليه حتى يصبح جزءا من حياتنا ، ومن كياناتنا ، ونبيت ولاغنى لنا عنه .. كان يجب عليك أن تعرف منذ البداية أن لا طاقة لك بمثل هذه العلاقة ، أو الحب ، أو سمه كما تشاء .

— كنت أظنه شيئا خاصا بى وحدى .

— وحدك ؟! أنت لست موظفا فى دائرة .. وهى ليست مخلوقة عادية ..

وكان يجب أن تعرف أن مثل هذه العلاقة بين إنسانين شهيرين لا بد أن يذاع أمرها فى يوم ما .. وأنها ستكون مغمزا لك .. وأنت فى حاجة لأن تكون

بلا مغمز ، ولا مطعن وسط المعركة التى تخوضها .. يجب أن تكون قويا حتى تواجه خصومك فى ثقة .. يجب أن تنهى كل شىء .

وصمت « عبد الوهاب » ونظر إلى « سامى » يرقبه فى شروء وإطراق .
وتحدث سامى فى صوت خافت كأنه يحدث نفسه قائلا :

— لست أظن إنهاء المسألة بمثل هذه السهولة التى تتحدث عنها .. لا يكفى أن تقرر فيها أمرا .. ثم تنوى تنفيذه .. حتى تنتهى منه .. سهل جدا أن نجلس أمام المدفأة فى هدوء ثم نصح بما يجب ونهى عما لا يجب .. وقلوبنا خالية .. وأعصابنا مسترخية .. عندما أقول لك إني أحس أنها قد باتت شيئا حيويا فى حياتى .. فأنا أعنى ما أقول .. إننى لا أبالغ إذا قلت لك إني أشعر أحيانا أنها أكثر حيوية من أى شىء آخر .

— حتى عمك وكفاحك ورسالتك؟

— أحيانا .. أجل .

— إلى هذا الحد؟

— لِمَ لا؟! ألم تقل أنت نفسك أن علينا دائما أن نوازن بين ما نمنحه لمجتمعنا من حرياتنا .. وبين ما نجنحه لقاء هذه الحريات .. إني أحس أحيانا أنه ليس هناك ما يعادل حرية مشاعرى .. حرىتى فى أن أحب كما أشاء وأحيا مع من أشاء .. ليس ما يعادل هذه الحرية .. حتى انتصاراتنا التى نحققها بكفاحنا .. حتى كل هذه الأشياء الباهرة التى نضحى بكل شىء من أجلها .

— هذه فترات ضعف من الخطأ أن نجعلها تسيطر على تصرفاتنا ونحوّلنا عن

طريق الصواب .

— طريق الصواب ؟.. كيف يحدد طريق الصواب ؟ تحده هراسات عمياء

صارمة تدوس كل مشاعرنا .. وتحطم كل ميولنا .. فنضطر إلى اتباع طرق

جانبية تلائم طبائعنا .. طرق الصواب المستقيمة فى مجتمعنا وضعت لمناقضة

تكويننا غير المستقيم .. طرق مستقيمة استقامة غير طبيعية .. لا يمكن أن تلائم

بشر طبيعتهم عدم الاستقامة .. والنتيجة مجتمع حاشد بالدروب الملتوية الزاخرة والطرق المستقيمة الخاوية .. أتري الطرق حقا قد وضعت للبشر الكائين .. أم لبشر موهومين ؟ إن لنا سمات وطباعا وخلقا .. ما أظن الذى شق طريق الصواب قد افترض وجودها قط .

وصمت « سامى » وعاد إلى إطراقه وشروده .

وأحس عبد الوهاب بكل ما يصطخب فى باطنه من مشاعر .. ولم يجد هناك جدوى من الاستمرار فى الحديث .. فhez رأسه ببطء قائلا :

— إني أفهم مشاعرك جيدا .. لا تظن أنى أحكم عليك كما قلت ، وأنا جالس أمام المدفأة مسترخى الأعصاب خالى القلب .. أنا أحبك .. وأعرف قدرك .. ومن أجل هذا قلت لك ما قلت .. إني أشعر أنها أزمة لا بد أن تمر .. وأدعو الله أن يمنحك القوة والجلد على تخطيها .. إني رغم كل ما قلت لى .. أثق فيك ، وفى إرادتك ، وفى حسن فهمك ، وفى قدرتك على اجتياز المحنة .

وصمت « عبد الوهاب » .. وساد السكون الغرفة .. فلم تعد تسمع إلا « طرقات » الحطب داخل المدفأة .

ووقف « سامى » ومد يده مودعا فى صمت .. ونهض « عبد الوهاب » لمصافحته قائلا :

— لدينا أعمال كثيرة .. لدينا اجتماع المقاومة الشعبية .. واجتماع فى مجلس النواب .

وأجاب « سامى » قائلا :

— سأعود الآن لمكتبى .. لأعد لكل ذلك .

وغادر الحجرة وكأنه يحمل على كتفيه عبئا يثقل كاهله وينقض ظهره .

مزيج من اليأس

عاد « سامى » إلى مكتبه منهكا مكدودا وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف ؛ ولم يكذ يدخل مكتب « فائزة » حتى وجد ثلثة من الشباب فى انتظاره .. ولم يحس سامى قدرة على الترحيب بهم والحديث معهم .. فقد كان فى أشد الحاجة إلى أن يخلو لنفسه .. فى حاجة إلى أن يجلس ويفكر وحده .. كان يملؤه إحساس بالحيرة والضياع .. كان يحس أن ثمة شيئا لا بد أن يفعل .. ولكنه لم يكن يعرف ما هو هذا الشيء ..

ووسط كل هذه المشاعر المتصارعة فى ذهنه .. لم يستطع أن يمنع حنيننا جارفا يشده بعيدا إلى مكان وراء الشرفة الزجاجية المطلة على النهر المواجهة لأضواء الجبل .

ولم يملك إلا أن يرسم ابتسامة عريضة على شفثيه ويحيى الشبان مرحبا فى حرارة ثم يطلب منهم التفضل داخل مكتبه .

وسأل « سامى » فائزة وهو يتجه إلى مكتبه :

— ألم يسأل عنى أحد ؟

— سأل عنك إبراهيم زكى وحسين طلعت .

وأخذت « فائزة » تسرد بضعة أسماء لم يجد « سامى » فيها ما يدفعه إلى

الاهتمام .. واسترسلت « فائزة » تقول :

وقد ترك الأستاذ سليم المكتب بعد أن اطلع على تجارب المقالات

واعتمدها .. وقال لى أن أخبرك أن لديه موعدا هاما فى العاشرة .

واستقر سامى على مكتبه وجلس الشباب على بقية المقاعد المرصوفة فى

الحجرة ، ودار الحديث حول اجتماع القاهرة وتهديد الأتراك وموقف الأمريكان والقرض الروسى .. وأشياء كثيرة .. أحس « سامى » أنه ينطقها بلا وعى .. وأذنه معلقة بجرس التليفون .

ودق الجرس .. فأصابته رجفة ، ومد يده فرفع السماعة .. فلم يسمع غير صوت سليم يسأله :

— هل عدت ؟

— أجل .

— ماذا حدث عند عبد الوهاب بك ؟

— تحدث فى الموقف السياسى وفى اجتماع القاهرة .

— فقط ؟

— وتحدثنا عن الشيوعية .. وعن ..

— هل حدثك فى الموضوع إياه ؟

وأحس « سامى » بشيء من الارتباك .. وخيّل إليه أن الشباب يسمعون حديث سليم وأنهم يعرفون كل شيء عن الموضوع إياه .. وأنه يجلس أمامهم عاريا .

ولم يملك إلا أن يجيب سليم بسرعة :

— أجل .. تحدثنا فى كل شيء .

— وماذا قال لك ؟

— سأحدثك فيما بعد .

— أرجو ألا يكون قد حدث ما يضايقك ؟

— ليس أكثر مما هو مفروض .

— هل تريد أن آتى إليك ؟

— لا .. لا ..

— لماذا لا تعود إلى البيت وتستريح ؟

— إن لَدَى بعض شباب الحزب .
— اصرفهم وعد إلى البيت .. إنك في حاجة إلى الراحة .
— سأعود بعد أن أنهى أعمالى .
— أمرك .. ألا تريد أية مساعدة ؟
— متشكر .
وتردد « سامى » برهة ثم سأل :
— هل سأل عنى أحد فى التليفون ؟
وأحس سليم بما يعنيه من سؤاله .. وبداله كأنه فى أزمة ، وأنه ينتظر تليفونا
من « هدى » .. وأن كل خروجه وبقائه حتى الآن لم يكن إلا انتظارا له .. فعاد
يقول :

— لماذا لا تعود إلى البيت وتستريح بدل هذا الانتظار المضى ؟
وأحس « سامى » بضيق من قول « سليم » وعاد يتساءل فى حدة :
— قلت لك .. هل سأل عنى أحد ؟
— لا .
— انتهينا .. تصبح على خير .
— وأنت من أهله .. سأراك صباحا ؟
— إن شاء الله .
وأغلق « سامى » التليفون واستدار إلى الشباب وأخذ فى الحديث إليهم
والاستماع إلى مناقشتهم .
وكان يحس بقلق خلال المناقشة .. كان يتوهم فى نظراتهم اتهاماً بذلك الشئ
الذى دارت من أجله المعركة بينهم فى قاعة الحزب .. كان يخشى أن يتساءل
أحدهم فى أية لحظة عن حقيقة المسألة .. كان يحس أنه يجلس وبه ذلك المغمز
الذى حدثه عبد الوهاب بك عنه .
وكان يتوق إلى أن يذق جرس التليفون ويسمع صوت « هدى » .. ولكنه

كره أن يدق وهم يجلسون أمامه .. وكأنهم سيسمعون صوتها أو يرقبون آثار الحديث على وجهه .

وطالت المناقشة وبدا في طريقة حديث بعضهم نوع من الخصومة والتحدى .. وأحس بأن توتر أعصابه قد بلغ أشده .. ولم يملك إلا أن ينهى المناقشة محاولا جهده أن يبدو هادئا .. ونهض الشباب يودعونه وقد بدا عليهم أنهم ينوون الاستمرار في المناقشة بعد مغادرته مكتبه .

وأحس « سامي » بأنه كان يمكن أن يكون أقوى مما كان لولا هذا الإحساس الذي يكمن في باطنه بأنه مخطئ .. وبأن هؤلاء الصغار يعرفون أنه مخطئ . وعاد يذكر حديث عبد الوهاب ، بأنه يجب أن يكون بلا مغمز ولا مطعن .. يجب أن يكون قويا واثقا .. حتى يستطيع أن يواجه كل خصومه . ونهض من مكتبه .. وملء نفسه اليأس .. وهو يحس أن العبء يزداد على كتفيه .. ويتمنى لو استطاع أن يحطم قيد الحب عن يديه وينطلق من أسرهِ حرًا قويا .. بلا مغمز ولا مطعن .

ومع ذلك فقد كان حنينه أقوى من يأسه .. فمد يده إلى التليفون وأدار القرص .

وعلا صوت « أم حبيب » خافتا متحشرجا ليملاًه بمزيد من حزن ويأس ،

قائلا :

— آلو .

— أنا « سامي » يا « أم حبيب » .

— السيدة لم تأت بعد يا سيدى .

— ألم تتحدث في التليفون ؟

— لا .

— متشكر .. تصبحى على خير .

— تصبح على خير .

ووضع السماعة في يأس .. ونظر إلى الساعة في يده .. فإذا بها قد أوشكت على الثانية عشرة .. منتصف الليل .. ولم تعد .. ولا تحدث في التليفون؟! وعاد الشك ينخر في نفسه ، ليضيف مزيدا من اليأس والحزن والمرارة والأسى .

وبعد!!؟

ما آخرة كل هذا؟!؟

لماذا لا يحطم القيد ويستريح؟!؟

لماذا لا يخلص من كل هذا؟

لماذا لا يستعيد حرите .. وسلامته .. وقوته .. وثقته بنفسه .. وثقة الناس

به؟!؟

لماذا لا يجررها من عبودية الحب؟! لماذا لا يكون حاسما في أمره؟ ونهض عن مكتبه .. وتناول معطفه .. وهمّ بمغادرة المكتب ، وقد أحس كأن النهاية المحتومة تقترب .

وفجأة دق الجرس .

وتوقف مكانه .

وعاد الجرس يدق .. وسار إلى التليفون .. ورفع السماعة .. فتسلل إلى

أذنه .. أرق الأصوات وأجملها هاتفا :

— آلو .

وأحس « سامى » كأن كتل الحزن والأسى والمرارة الراسخة على صدره ..

قد ذابت .. وبرغمه ملأ نفسه شعور بالراحة وأجاب هامسا :

— هدى؟!؟

وهتف به الصوت الذائب :

— سامى؟!؟

وصمتت لحظة كأنها تحاول التقاط أنفاسها وعادت تسأل :

- متى عدت ؟
- قبل المغرب .
- وإلى الآن لم أرك ؟
- ظلمت أذق لك التليفون منذ السادسة حتى الآن .. و« أم حبيب » تخبرني أنك لم تعودى .
- متأسفة جدا .. لو علمت أنك آت لما غادرت البيت .
- أين كنت طيلة اليوم ؟
- أتنبؤ أن تضيع الوقت فى الحديث فى التليفون !!
- لو خطر ببالك أن تتحدثى .
- اسمع .. ضع السماعة حالا وتعال .. إني أكاد أموت شوقا إليك .
- ووضع « سامى » السماعة .. وانطلق إليها .

عبء على كتفيه

بدأت المدينة مغمورة في منتصف ليل قارص البرد صافر الريح .. لا ترى في طرقاتها الخالية سوى عربة مارقة .. أو بائع يقف بعربته على ناصية الطريق يتصيد بقايا زبائن الليل .. وقد لف وجهه « بالكوفية » حتى لم يعد يبين منه سوى حدقتي عينيه وطاقتي أنفه .

والدور قد أطبق عليها الصمت وسادها السكون ، إلا من هبات ريح تلطم نوافذها وتعصف بالأشجار الجرداء من حولها ، والظلام قد نجيم إلا من مصابيح تبدو كأنها تتنأب ، ولافتات الإعلانات في أعلى الدور تنطفئ وتضيء في رتابة كأنها هزة عصبية لإنسان ضاق بالملل .

و« سامي » ينطلق بعربته وسط الطريق متجها من مبنى الجريدة إلى بيت « هدى » .. وقد شرد ذهنه وبلغ به التعب أشده .

لم يستطع أن يصدق .. عندما ارتد به الذهن إلى بداية اليوم .. أن كل هذا حدث في يوم واحد .

لقد بدأ أول اليوم بعيدا .. بعيدا ..

بدأ اليوم في القاهرة .. باستيقاظه المبكر وترتيبه « الحقائب » وذهابه في عجلة إلى شوارع وسط القاهرة لابتياح ما تبقى من هدايا .. ثم عودته إلى الفندق ، والتقاءه ببعض الصحفيين ، ثم خروجه للقاء رئيس مجلس الأمة المصري ، ثم تناوله الغداء في سفارة ألمانيا الديمقراطية .. وعودته بسرعة إلى الفندق وانطلاقه إلى المطار .

ولم تذهب رحلة الطائرة سدى .. لقد جلس يكمل التقرير الذي بدأه في

القاهرة .. وقطع عليه الكتابة راكب عراقى حضر المؤتمر وأخذ يناقشه فى قراراته .

وأخيراً وصل إلى دمشق .. وقد بدا له أنه قد أنهى يومه الحافل المرهق .. وأنه أوشك أن يستقر فى أمتع ملجأ وأهدأ مستقر .. بعد طول بعد وغيبه وشوق ولهفة .

ولكنه لم يكذب يهبط إلى المطار .. حتى جرفته موجة من الوسوس والمتاعب والأزمات .. ظلت تتقاذفه حتى أحس بأنه يعيش يوماً بلا نهاية .. وأن القدر قد أبى عليه نعمة الاستقرار .

بل أكثر من هذا .. فقد أحس لأول مرة فى حياته ، أن مقره الآمن قد بات فى مهب الريح .. تتقاذفه الأمواج .. وتعصف به الأنواء .. وأن الأرض قد ماتت به .. حتى كاد يفقد إحساسه به كمستقر يمنحه الراحة والأمان فى حياته المرهقة .

ومر بذهنه شريط سريع لدوامه المتاعب .. بدأ باقتقاده « هدى » ومحدث أخيه عن شائعات علاقته بها بين الطلاب ، ثم بإنذار « سليم » له بما حدث فى قاعة الحزب بين الشباب .. ثم الحديث الذى دار بينه وبين « عبد الوهاب بك » والذى أنهاه بتحذيره من علاقته بهدى .. وأخيراً هذه المناقشة المريرة بينه وبين الشباب .

ووصل إلى بيت « هدى » ، فأوقف العربية فى الطريق الجانبى ، ثم اتجه إلى باب البيت وقد ضم المعطف على جسده ، وأحكم « الكوفية » حول عنقه .. ليتقى بها هبة ریح باردة .. هبت على بردى واندفعت تصفر فى الطريق الجانبى الضيق .

وصعد السلم .. متناقل الخطى .. وقد غلب الإجهاد ذهنه وجسده .. وأثقلت الوسوس والتحذيرات ، والمشكلات المعقدة من حوله .. خفة الشوق وقيدت اندفاع اللهفة .

ووقف أمام الباب وتردد بين ضغط الجرس وفتح الباب بمفتاحه .
وأحست « هدى » بخطواته أمام الباب ، فاندفعت من الأريكة .. وكانت
أسبق منه إلى فتحه .

ولم يكده يخطو إلى القاعة حتى اندفعت إليه واستقرت في أحضانه مرتجفة
كالعصفور بلله القطر .

ومضت برهة وهي مستقرة في أحضانه .. وقد تشبثت به في خوف ولهفة ..
وأخذت أنفاسها تتلاحق في صدره .. وقد نسيت كل ما حولها .. حتى الباب
المفتوح لم تلتفت إلى غلقه .

وأخيرا رفعت رأسها .. ثم همست قائلة :

— حرام عليك .. كل هذه الغيبة .

ومدت يدها فأغلقت الباب ، وأجابها « سامى » هامسا وهو يضمها إليه
ويمس شفيتها وأنفها وعينها بشفتيه .

— لا يمكن أن تتصوّرى فرط حاجتى إليك .. أريد أن أرقد بجوارك وأنسى

كل شيء .

— تعال .. تعال يا حبيبي .. إنك تبدو مرهقا .

— لا تكاد قدمائى تحملاننى .

— لماذا تجهد نفسك هكذا !؟

— لكى أراك .. كان مفروضا أن أرقد فى فراشى منذ بضع ساعات بعد هذا

اليوم الشاق والرحلة المنهكة .

— أنا متأسفة .. لو علمت لما تركت البيت لحظة .

وتوقفت أمام باب حجرة الجلوس متسائلة :

— أتحب أن تجلس هنا أم فى حجرة النوم ؟

— فى شوق شديد إلى مقعدنا ، والشجرة وراء النافذة ، وأضواء الجبل وراء

الشجرة .. وأنوار المصابيح فى مجرى بردى .

— أنا أيضا بى لطفة إلى لوحتنا الحبيبة .. بى لطفة إلى أن أعيدها واقعا .. بعد أن خشيت من طول الحرمان أن تكون قد أضحت ذكرى . .

واستقر « سامى » على المقعد الكبير .. وجلست « هدى » على جانب المقعد ، ومدت يدها تتحس جبينه وأنفه وشفتيه فى حنان زائد .. ثم المنحت على وجهه تمس شفتيه فى رفق .

وجذبها « سامى » إلى حجره ، فاستقرت فى جلستها المعتادة منكمشة فى أحضانه .

وأحاطها « سامى » بذراعيه .. وأطلق بصره من وراء النافذة إلى الأغصان المهترئة والأضواء المرتجفة .. ومد ساقيه وتهدد وحاول أن يريح جسده المشدود ويرخى أعصابه المتوترة .

ولم يكن الاسترخاء فى جلسته تلك بالأمر العسير .. كان يكفى أن يستقر على المقعد المريح ويمد ساقيه ويريح أعصابه .. ويجذب « هدى » إلى حجره .. ويضمها بين أحضانه ويسرح بعينه فى المنظر الحبيب .. حتى يحس بأعصابه هدأت وجسده قد استرخى .

ولكنه أحس وهو يجلس جلسته ساعتذاك ، أن شيئا أقوى من إرادته يوتر أعصابه .. وبدا له كأن فرط التعب قد أصابه بحالة تصلب فى جسده وفى ذهنه وفى نفسه .

ولم يكن هناك أقدر من « هدى » على الإحساس بما به .. بما فى أقصى أعماقه .. من مجرد مسحة هم على وجهه .. أو لمحة شرود فى عينيه .

ومضت فترة وهى منكمشة بين ذراعيه .. تحس بشدة أعصابه وتوتر ذهنه .. وكانت تعرف حالته تلك عندما يصاب بفرط الإجهاد .. وكانت تضمه إليها ، وترجحه فى أحضانها ، حتى يروح فى النوم .. يسند رأسه على ذراعيها .. كالطفل .. وتظل الساعات ترقبه فى إغفائه حتى تشعر بتنبيل ذراعها دون أن تجسر على سحبه من تحت رأسه .. خشية أن توقظه .

وكانت تحس بأشياء كثيرة تود أن تفعلها وتقولها بعد تلك الغيبة الطويلة ..
ولكن إحساسها بحاجته إلى الراحة كان أقوى من لهفتها عليه وشوقها إليه ..
فرفعت إليه وجهها وأخذت تتأمل عينيهِ الشاردتين في زجاج النافذة .. وهست
متسائلة :

— ماذا بك ؟

— مجهد .

— فقط !

وهز « سامى » رأسه قائلاً :

— وضيق الصدر .

— ممّ ؟

— من اليوم المرهق الذى مرّ بى .. لقد بدا لى يومى بلا نهاية ، ولم يخطر ببالى
أنى سأستقر فى آخره بجوارك أبدا .

وتساءلت « هدى » فى دهشة :

— لماذا ؟

— لأنى .. لأنى

وتردد « سامى » برهة .. لم يعرف .. هل يصرح لها بكل ما حدث ؟!

هل يخبرها بكل ما وجه إليه من تحذيرات ؟

هل ينطق بكل ما لاقاه من نذر تزلزل حبهما ؟!

وعادت « هدى » متسائلة فى خوف :

— لأنك ماذا ؟

— لأنى لم أجدك .

— فقط ؟!

— أجل .

ومدت « هدى » ذراعها تضمه إليها فى لفة .. وعادت تمسح رأسها فى

صدره كالقطة .. ثم تساءلت :

— أتحب أن تسترخى في الفراش ؟

— كما تشائين ؟

ونفضت « هدى » من فوق ساقيه .

وسارا إلى حجرة النوم .

وبعد لحظات ضمهما الفراش الدافئ الوثير .

ومرة أخرى حاول « سامي » أن يسترخى .. أن يريح ذهنه ويرخي

أعصابه .. ولكنه أحس أن حالة التصلب الباطني .. والتوتر النفسي .. كانت

أقوى من أن يرخيها .. مجرد استلقاء على الفراش .

وأحست « هدى » بعجزه عن الاسترخاء .. فأخذت تتحسس رأسه

وجفنيه في رفق ، وهمسست وهي تتحسس شفثيه :

— أغمض عينيك يا حبيبى .. ونم .

وأغمض « سامي » عينيه وتهد ، ولكنه لم ينم .

وعادت « هدى » تهمس به :

— لا تفكر في شيء .. انس كل ما مرّ بك .

وأجابها وهو يهز رأسه ببطء ، وقد فتح عينيه :

— لا أستطيع .

— لماذا؟! ضع رأسك في صدري ، وأغمض عينيك .

— إني أحس كأن مصباحا قويا يشع داخل رأسي . ويشد أعصابي ويمنعني

من الاسترخاء أو النوم .

وأحست « هدى » بأن ما به شيء أكثر من مجرد إجهاد ، إنها تعرف

إجهاده ، تعرف كيف يستطيع هو نفسه أن يتخلص منه بمجرد الاسترخاء ربع

ساعة بين أحضانها .. تعرف كيف أضاعته هي منه في دقائق بعد كأس من

الويسكي .. رغم أنه أنكر أى تأثير للخمر عليه .

وسحبت جسدها من أسفل الغطاء ، ومدت يدها فأضاءت « الأباجورة
وأمسكت بكفه تتحسسها في رفق ، وهتفت به :

— سامى .. قل ماذا بك ؟

وهز « سامى » رأسه قائلاً :

— لا شيء .. أطفئى النور .. سأحاول أن أغمض عيني وأستريح .

— لا أظنك ستستطيع النوم .. دعنا نتحدث .. قل لى ماذا بك ؟

— قلت لك لا شيء .

— منذ متى تخفى عنى متاعيك ؟

— ليس هناك ما يستدعى الإخفاء .

— أتحب أن أكرم عنك متاعى .. أتذكر إلحاحك علىّ بأن أذكر لك ما ي

حتى تساعدنى على إزالته ؟

— لا أظن هناك شيئاً يمكنك فعله .

— ولكنك قلت لى إن مجرد الإضاءة كاف لإراحتنا .

ومد « سامى » يده ليطفئ النور ويجذب « هدى » بجواره قائلاً :

— نامى .. نامى .. سينتهى كل شيء بمجرد أن أستريح .

— لن أنام حتى أعرف .. هل ضايقت غيابى عن البيت؟! إنى على استعداد

لأن أذكر لك كل ما فعلت منذ أن خرجت حتى عدت .

وهز « سامى » رأسه وعادت « هدى » تتساءل وهى تحاول أن تتضحك :

— هل عاودتك وساوسك الحمقاء؟! قل يا حبيبى .. قل .. هات كل

سخافاتك ، فلن أغضب منك أبداً .

وعاد « سامى » يهز رأسه بالنفى ، وقالت « هدى » وقد تملكها الأسى :

— إدن ماذا بك؟! لماذا لا تصارحتى ؟

ورد سامى متسائلاً :

— أصارحك بماذا ؟

- بكل شيء .
وتنهد « سامى » وأجاب :
— كل شيء يبعث على اليأس .. والمرارة .
— كيف !؟
— أحس أن المطارق تهاوى على حبنا من كل جانب .
وأحست « هدى » بيد تعتصر شيئا فى باطنها .. وتساءلت فى صوت
خافت :
— هل قال لك أحد شيئا ؟
— بل أسألينى .. ألقىت أحدا .. لم يقل لك شيئا ؟
— إلى هذا الحد ؟
— وأكثر .
— ماذا قالوا لك ؟
— قال لى أخى .. إنه لا يريد أن يذهب إلى كليته .
— لماذا ؟
— لأنه لا يستطيع أن يواجه الطلبة وهم يشيعون عنى الإشاعات ، ويطلق
البعض منهم على اسم « سامى نور الدين » .
وتنهدت « هدى » وهى تحس كأن سكيننا تحز فى الوثاق الذى يربطهما معا ..
وعادت تهمس متسائلة :
— وماذا أيضا ؟
— لم أكد ألقى سليم حتى حدثنى عن المعركة التى نشبت فى قاعة الحزب بين
الشباب من أجل علاقتنا .
— علاقتنا نحن !! داخل الحزب !؟
— أجل .
— أمعقول هذا !؟ ألا يحتمل أن يكون سليم ...

- وقاطعها سامى بهزة يائسة من رأسه واسترسل يقول :
- لم يكن سليم وحده هو الذى قال لى .
- من أيضا ؟! لعلها فائزة ؟!
- بل عبد الوهاب بك .. رئيس الحزب .
- ماذا قال لك ؟
- أبدى لى رأيه صراحة .. قال لى إني لا أستطيع السير فى طريقى بالعبء الذى أحمله على كتفى .

قرار

أحسنت « هدى » بموجة من الأسى واليأس تغمرها .. وهى تجد أن أعز ماتملك قد أحاطت به الأيدي وضيقت عليه الخناق .. تحاول سلبه منها .. ولم تعرف كيف تقاوم .. ولا ما هى نتيجة مقاومتها .

وهست قائلة فى يأس وكأنها تحدث نفسها :

— هذه الدنيا العجيبة ! هل أصبح لأعز الناس عندى عبئا على كتفيه ؟!

وتذكرت ما قاله لها « سليم » و« فائزة » ، و« أم حبيب » .

وتذكرت نواياها من أجل الخلاص .. النوايا التى أطارها مجرد لقائه ..

وإحساسها به بين ذراعيها .. وأنفاسه الدافئة تلمح وجهها .

وأحسنت بأن عليها أن تنحنى لتحمل عبء الخلاص .. وتسير به فى طريق

الفرقة الشائك الدامى .

أجل .. إذا كانت تنوى أن تفعل شيئا من أجل خلاصه .. فهذا هو وقته ..

وعليها أن تحزم أمرها .. وتقدم عليه .

وساد الصمت برهة .

وأحس « سامى » أن حديثه قد آلمها .. وتمنى لو لم يقله .. لا سيما ، وهو

يعرف .. أنه لن يلقى عبئها أبدا من على كتفيه .. وأنه لا يستطيع أبدا أن يقدم

على فرقتها .

وتهد وهمّ بأن يقول شيئا .. يريحها به .. عندما سمعها تمس قائلة :

— أنا أيضا أحس أننا يجب أن نفكر فى أمرنا ونحكم عقلينا .

وأحس « سامى » فى لهجتها شيئا جديدا .. شيئا كوخز الإبر .. فسألها

قائلا :

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أنه من غير المعقول أن تستمر علاقتنا على ما هي عليه الآن .
ولم يعرف « سامى » ماذا تهدف « هدى » بقولها هذا .. ولكنه أحس كأن
دقات ناقوس .. تصل إليه من بعيد .. وعاد يسألها فى لهجة يأس :

— وماذا تقترحين ؟

وازدردت « هدى » ريقها وأحست كأنها حامل أثقال يجمع كل قواه ليرفع
الحمل مرة واحدة .. ولت شجاعتها وضغطت على أعصابها ، وشدت الزناد
وأطلقت طلقتها .. قائلة فى لهجة منحتها ما استطاعت من هدوء :

— هناك إنسان تقدم للزواج منى .

وصمت برهة لتتالك أنفاسها ، ثم عادت تطلق الطلقة الثانية قائلة :

— وأعتقد أنه إنسان ملائم لى .

واستقرت الطلقتان فى جوف « سامى » .. ولكنه لم يبد هزة ولا رجفة ..
ولا رمش له جفن ولا انتفضت له جارحة .. وأجاب فى هدوء كأنه يقرر أمرا
لا يعنيه :

— ولم لا؟! ما دام ملائما لك .. إني لم أحاول قط أن أمنعك من الزواج .

وساد الصمت .

صمت عجيب .

صمت أشد صخباً من كل ما فى الدنيا من ضجيج .

وطوى صمتها البادى .. صراخا فى باطنها .. وعويلا كأنه عويل المآثم فى

أقاصى الصعيد .

أبهذه السهولة يأخذ قولها ؟

أبتلك البساطة يقذف بها من على كتفيه .. وكأنها قطعة حلى يسلمها الصائغ

لأول شار !

أهذه حقا قيمتها عنده؟!
وفي صدره كانت ثورة أعنف .. وضجيج أشد .
أهكذا فجأة قررت الخلاص !
أكان ردها عليه جاهزا معدا !
أتراها كانت تنوى .. بينها وبين نفسها .. أن تواجهه به حتى ولو لم يقل
ما قال؟! .

ولكن ما قاله كان عن أزمة طارئة .. فلماذا تواجهه بمثل هذا الحل القاطع
البتار ؟
ولكن من هو هذا الطارق المفاجيء .. الذى طرق بابها وأحست هى أنه ملائم
لها !

من؟! لماذا لم تقل اسمه؟!
لقد تعودت دائما أن تحبزه بأسماء الذين يطلبون القرب منها .. سواء
بالزواج .. أو بالعشق أو بمختلف الوسائل والطرق .
فلماذا لا تنطق اسم هذا الطارق الجاد ؟
ونظر إليها فى صمت .. وانتظر أن تنطق به .. ولكنها لم تفه بكلمة .
وأحس بقلق .. وخوف .. من اسم الطارق الجديد .. كيف تقدم إليها ،
وكيف عرفته؟! ما نوعه؟! ما شكله؟! ما سنه؟! ما عمله؟
ومع كل ما به من لفة على معرفة حقيقته .. لم يحاول أن يسأل .
إحساس بالكرامة .. دفعه أن يتمسك بمظاهر الجلد والصبر والتسليم
بالواقع .

واستمرت هى فى صمتها الظاهر تحاول أن تكبت كل ما فى باطنها من
انفعالات .. حتى نفذ صبره هو ، فسأل فى لهجته الهادئة المقتضية :
— من هو؟

وتريثت برهة .. كانت تكره أن تسبب له أى ألم :

وعاد يسأل :

— لماذا لا تخبريني من هو ؟

وصمتت برهة ثم أطلقت طلقتها الثالثة :

— إنه شكري رئيس الأوركسترا .

وأصابته الطلقة في الصميم .

أهذا هو الإنسان الملائم لها ؟

كان يظنها تعرف الملائم من غير الملائم .

كان يظن الطارق رجلا كبيرا .. محترما .. ذا مال .. يستطيع أن يوفر لها

حياة رخاء وطمأنينة .. ويجعلها تنعم بأسرة طيبة وبيت هادئ مريح .

أما هذا الرجل .. وما يعرفه عنه وعن وسطه وبيئته .. فعاشق ملائم .. وليس

زوجا ملائما .

وهي في حاجة إلى زوج .. لا عاشق .. لشد ما أخطأت الاختيار .

ونظرت هي إليه .. والصراخ ما زال يدوي في باطنها ، والعيول يمزق

أحشاءها .. كانت تتلهف على ضمة منه .. كانت تتلهف على كلمة حنان ..

يسكت بها ذلك النحيب في باطنها .

ولكنه لم يقل شيئا .

كان يحس بشيء يدمي في باطنه هو الآخر .

وكان يتمنى لو استطاع أن يهرب من كل شيء .. وأن يجرى .. ويجرى ..

بلا توقف .

وهمس بها كأنه يحدث نفسه :

— أهذا هو الإنسان الملائم ؟

وأجابته في مرارة :

— أيتحتم عليه أن يكون عجوزا .. حتى يلائمني .

وهز « سامي » رأسه وأجاب :

— أنت أدرى بما يلائمك .. كنت فقط أظنك أعقل من هذا .
وأحست « هدى » كأن كل شيء قد انتهى .
انتهى ببساطة غير معقولة .. كأنه خطف البصر أو لمح البرق .. ووجدت
نفسها تقف فجأة وحدها .. وسط الأعاصير والعواصف والأنواء .
وكانها اكتشفت فجأة ما فعلته بنفسها .. ولم تستطع أن تكتم العويل في
باطنها فانفجرت باكية .

وصمت هو .
كان أقدر منها على أن يكتم جرحه الدامي .
واستمر جالسا بجوارها على الفراش يرمق فراغ الحجرة .. بعينين جامدتين
كالمأخوذ ، وجسدها يهتز بجواره من فرط البكاء .
وازداد إحساسها بالضياح وهي تجدد نفسها مغرقة في البكاء دون أن يأخذها
بين ذراعيه أو يضمها إليه .. وهو الذي لم يكن يحتمل دعمها أو يطيق حزنها .
وتملكها إحساس الغريق .. وأخذت المرثيات تبهت أمام عينيها ، والجدران
تتأرجح .. وتمنت لو قال لها شيئا ، أو مد لها يدا .
وهتفت به وحدة بكائها تخف ، وهي توشك أن تروح في غيبوبة :
— ضمنى إليك .

وأغمضت عينيها .. لتخفى تلك المرثيات .. التي تتواتر أمامها .. وتبعد عن
نفسها ما توشك أن تقع فيه .
وأحس « سامى » بما أصابها فأنحنى عليها برفق ، وأخذ يضمها إلى صدره
ويقبل وجهها المغرق بالدموع ، ويهمس بها في جزع ولهفة :
— هدى .. ماذا بك؟! هدى .. حبيبتي !!
وهست « هدى » وهي تنظر إليه في ضعف وكأنها تصعد من قاع بعيد
الأعماق :

— سامى .. لماذا تتركنى هكذا؟! كيف تحتمل أن تتركنى وأنا أبكى؟!!

وأجابها « سامى » وهو يرقدها على الوسادة :
— آسف يا حبيبتى .. ولكن يجب أن نحتمل من الآن أشياء كثيرة .. لم نكن
نحتملها

وتنهدت « هدى » .. وهمست وقد خنقتها البكاء :

— أجل .. أشياء كثيرة يجب أن نحتملها .

ثم همست وهى ترفع إليه ذراعها :

— ضمنى إليك ثانية .. علنى أقوى على الاحتمال .

وضمها « سامى » إليه .. ثم سحب نفسه من بين ذراعها .. وترك الفراش

في صمت .. ووقف يرقب جسدها وقد غمره إحساس موحش مريب ..

إحساس الثاقل يلقي نظرة أخيرة على أحب الناس إليه ليتركه إلى غير رجعة .

وأحست هى أنه يوشك على الخروج وتحاملت على نفسها .. وجلست في

الفراش وهمست به :

— هل قررت الذهاب !؟

— أجل .

— ومتى ستعود !؟

وسادت فترة صمت .. قطعها « سامى » بقوله :

— أفضل ألا أعود .

وأحست « هدى » كأن يدا تطبق على عنقها لتكتم أنفاسها ، وتساءلت

وهى ترفع إليه عينين ينهمر منهما الدمع :

— لماذا ؟

— لأنى أحب أن أترك لك الفرصة لتنفيذ القرار الذى اتخذته .

— ولكن .. أن أفقدك هكذا مرة واحدة .. غير معقول .

— بل غير المعقول .. أن تتخذى قرارا كهذا .. ونحن مازلنا نلتقى .. وغير

معقول أن آتى إليك .. وإنسان آخر قد دخل في حياتك .

وصممت هدى .

كان سامى على حق .

إذا كانت قد نوت أن تتخذ قرارا كهذا فيجب أن تكون حاسمة فيه .

وغير معقول أن تكون جاسمة إذا كانت ستظل تراه كما كانت تراه .

ولكن .. أن ينتهى كل شيء الآن !

في هذه اللحظة ! . هكذا فجأة ! . شيء مخيف .. مروع أن يتركها .. وهى

تحس أنها تراه لآخر مرة وأن رحيله إلى غير عودة .

وأن كل هذه الأشياء التى تحيط بها والتى تحس أنها جزء لا يتجزأ منهما معا ..

والتي تذكرها دائما .. بأنه سيعود ليجلس وإياها على هذا المقعد .. أو تلك

الأريكة .. أو يسترخى وإياها في هذه الشرفة ويرقب هذه الشجرة الوارفة ،

وتلك الأضواء المتألقة .. كل هذه الأشياء التى لم تعد لها قيمة في حياتها إلا أن

تذكرها به .

قد باتت أشياء مفزعة .. تشعرها دائما .. بأنه كان هنا ، ولن يكون ، وبأن

كل ما فعلته معه .. لم يعد بوسعها أن تفعله .

كل هذه الأشياء ستكون في نظرها ، مبعثا لليأس والكآبة والوحشة

المروعة .

ولم يكن هو أقل منها ارتياحا .. في باطنه .. ولكنه كان يحس أن جدارا قد قام

بينهما .. وأن من العيب زحزحته .

وأن عليه أن يحزم أمره وينطلق .

وأن يتحمل الآلام .. التى يوشك أن يتحملها كجزء من آلام الحياة .. التى

لا مفر منها .. وهو يحس دائما أن الحياة في حد ذاتها رحلة مزعجة .. لا بد من

قضائها .

ومع كل ذلك .. ومع كل ما حاول أن يحيط به نفسه من سياج التحمل

والجلد .. أحس وهو يرقب دمعها الجارى .. أن يدا تطبق على رقبتة .. وأنه

يحتاج إلى مزيد من الجهد لكي يوقف الدمع الذي يوشك أن ينهمر من عينيه .
وهمس بها وهو يحاول أن يقيها في الفراش .. حتى يقصر . فترة الوداع :
— ابقى هنا .. إنك في حاجة إلى الراحة .. لا داعي لأن توصليني للباب .
وهمم بأن ينطلق إلى الخارج ولكنها تشبثت بذراعه قائلة :
— ما تركتك تخرج مرة دون أن أودعك إلى الباب .. فدعني أوصولك للمرة
الأخيرة .

وسارت بجواره وقد حجب الدمع عنها كل ما أمامها .. حتى وقفت وراء
الباب ، وحاولت جهدها أن تتمالك ، ومدت ذراعها لتضمه .. وهى تكتم
صيححات العويل فى باطنها .
وضمها إليه فى لهفة ومد شفثيه يقبل شفثيها المبللتين بالدمع .. وانتقلت شفثاه
تتمسح الدموع من عينيه .
وأحس بمقاومته تنهار .. وبقدرته على كبت الدموع تنهاوى .
وأحس بشيء ساخن ينزلق على خديه .. لم يدر أكان من عينيه أم عينيه ،
وفتح الباب بسرعة .. واندفع منه إلى الفراغ المظلم والريح الصافرة .

مقاومة وحنين

خرج « سامى » إلى الطزيق ، وقد انتابه إحساس عجيب .. أشبه بإحساس الخارج من معركة سكن فيها الدوى وانطفأ اللهب وخفت الصياح .. وأحاط به صمت موحش ينبىء بأن كل شيء قد انتهى .. وأنه يستطيع السير دون أن يشعر أن حياته معلقة بضجيج طلقة أو دوى قذيفة ، وسار في الطريق .. وكل شيء غريب من حوله .. أشباح الدور وهياكل الشجر .. والأضواء المرتجفة .. تبدو مروعة كأطلال المعركة .. وقدماه تحملانه كالمأخوذ .. لا يكاد يعرف حتى طعم حياته التي نجا بها من الدمار .. ولا يشعر بأثار الجراح التي أتختته بها شظايا الفرقة ، وسهام القطيعة .

وعاد إلى البيت .

لم يعرف كيف عاد .

كيف أدار العربة .. وكيف سار بها .. وأين وضعها ، وكيف حملته قدماه على الدرج ، وكيف دخل البيت ؟!

لم يعرف إلا أنه يرقد على الفراش ، وعيناه تمدقان في السقف .. والمصباح الكبير الذى يضيء ذهنه ما زال يشد أعصابه ، ويفقده كل أمل في الراحة أو الاسترخاء .

وبرغمه أطلق زفرة حارة .

انتهى كل شيء .

أخيرا .. بسرعة عجيبة .. وبسهولة لم يكن يتوقعها قط .

بسهولة ؟!

أحقا !! انتهى بسهولة ؟

لِمَ لا !!؟ ألم يزل على قيد الحياة .. يتنفس ويتحرك .. ويستيقظ غدا كما تعود
أن يستيقظ وسيذهب إلى عمله ، وينهمك فيه كما تعود أن يفعل .. و .. ويمر
يومه .. كما كان يمر .. ليدفع به إلى يوم آخر .. وآخر .. وتسير الحياة .
وأطلق زفرة أخرى .

وحاول أن يغمض عينيه .. ولكن الصباح الذى يضيء داخل ذهنه ..
لم يجعل لإطباق جفنيه قيمة .. واستمر تلازمه اليقظة .
وأحس بذكراها تتسلل إلى ذهنه .. بطريقة مريحة .. مخدرة .. ولكنه
لم يلبث أن قطع الطريق عليها .. ونفضها عن ذهنه كما ينفض الساهر .. غفلة نوم
تتسلل إلى عينيه .

وعاد يستمع إلى دقات ناقوس يقرع فى باطنه .

انتهى كل شيء .

هذه الدنيا العجيبة .. تأبى دائما إلا أن تضع أبسط النهايات لأروع
الأحداث .

كل شيء ينتهى فيها بنفس الطريقة .. السريعة الخاطفة .. كل شيء ينتهى بمسمة
سيف مرهف بتار .. يقطعه فى غمضة عين .. فكأن الحياة لم تجش فيه .. وكأنه
ما كان .

ومرة أخرى عاد يردد :

— عجيبة !!

عجيبة .. أن ينقطع عن أقرب الكائنات إليه فى هذه الدنيا .. وأشدهم
ارتباطا به .. بمثل هذا البتر الحاسم القاطع ، دون أن تنزف منه قطرة دم أو تند
عنه صيحة ألم !!

عجيبة أن يرقد هكذا فى صمت .. لا يشعر بأكثر من شد أعصاب ويقظة
ذهن .. ويفكر فى حياته كما تعود أن يفكر .. وينتظر طلوع الفجر فى غده ،

كما تعود أن يطلع .. وبشروق الشمس كما تعود أن تشرق .. ليرتدى ملبسه
ويخرج ويقابل الناس ويتكلم ويكتب .. و .. و .. و ...

ولم لا؟!

الحمد لله .. الذى منحه هذه السكينة .. وهذا الصبر .

ولكن أحقا .. يحس بالسكينة والصبر!؟

أم هى ما يسمونها .. سرقة السكين .. أو تخدير المعركة؟ ليكن ما يكون .
إنه يشعر بأنه قادر على السير .. قادر على أن يواصل العيش .. وأن يعاود
الحياة وحده .. كما كان .. قبل أن يوثق وإياها فى حياة واحدة .

وحاول أن يذكر كيف كانت حياته من قبل .. وأحس بها كأنها شىء
بعيد .. بعيد .. كأيام الطفولة .. وبدت أيامها معا مديدة مبسطة .. كأنها
فروع الكروم تظلل كل حياته .

ولم يعرف إلى متى ظل يفكر .. إلى متى ظل المصباح الذى يضىء فى ذهنه
موقدا .. ليشد أعصابه .. ويرهق جسده .

حتى انبلج الصبح .. وفتح عينيه واستيقظ .. لم يعرف من نوم .. أو من
سهاد .

وغادر فراشه .. وحلق ذقنه .. وقرأ الصحف .. وارتدى ملبسه ..
وأفطر .

فعل كل ما يفعله فى صباحه .. وكأن جديدا لم يطرأ على حياته ، وغادر
البيت .

ولكنه لم يذهب إلى مكتبه .

لم يجرؤ على أن يذهب .. كأن ثمة شيئا فى المكتب يقربه منها .

لم يجرؤ على أن يجلس إلى مكتبه بجوار التليفون الذى تعود أن يسمعه صوتها
كل صباح .

كان يحس بأنه انطلق من مكنم الخطر .. وأن عليه أن يظل يعدو .. ويعدو

حتى يصبح بمنجاة منه .

وساعدته الظروف على الانطلاق .

كان لديه من الأعمال ما يمكن أن يفرق فيه من أخصمه إلى قمة أرسه .
وطواه العمل .. أو طوى هو نفسه فيه .. بطريقة فدائية لم يكن هناك أقدر

منه على فعلها .

ومنحه إحساسه بالخلاص .. نوعا من القوة على خوض المعارك المتعددة التي
نشبت من حوله .. بينه وبين الشيوعيين من ناحية .. وبينه وبين الرجعيين من
ناحية أخرى .. وبينه وبين الانتهازيين من ناحية ثالثة .. غير المعارك الفرعية بين
الحمقى والتهوسين والمتشجنين والأغبياء والأدعياء .

وراح يقضى أيامه بين مجلس النواب والحزب والمقاومة الشعبية .. ومطبعة
الجريدة ، وحجرات المحررين .. لا يتوقف لحظة .. لراحة ، أو تفكير ،
ولا يمنح نفسه فرصة استرخاء ليتسلل إلى ذهنه فيها ذكرى .. أو تتطرق إلى قلبه
خلالها لهفة .

انطلق يعدو في عمله .. وكأنه هارب من طيف يلاحقه .. ونجح فعلا في
الهروب .. أسبوعا كاملا .

سبعة أيام بلياليها .. استطاع أن يهرب من كل شيء .. حتى من نفسه .

لم يدخل مكتبه خلالها إلا عابرا .. ولم يمنح نفسه فرصة الإنصات إلى دقة
تليفون .. ولا حاول أن يسأل عن إنسان سأل عنه .

وأحس كل من حوله باندفاعه في العمل ، وبدا لهم فرط حماسه وتهوره .
مخلوقة واحدة .. كانت ترقبه .. وتدرك ما به .. كانت تحس بما فعل
وما يفعل .. وكان شيء يدمى في باطنها من أجله وكانت تمنى لو استطاعت أن
تمسك به وتحذثه وتعاونه .

ولكنها لم تملك سوى الصمت .

كانت « فائزة » تحس بعملية البتر التي أقدم عليها .. لم تكن تعرف .

كيف .. ولا لماذا .

ولكنها أحسست بقلب المحب .. أنه أقدم على خطوة حاسمة .. وأنه فعل شيئاً خطيراً ، وأنه يحاول الهروب .. حتى لا تصيبه نكسة .

وكانت تدعو الله من قلبها ألا ينتكس .

وبدا كأن الله قد استجاب .

وخيل إليها أنه قد اجتاز المحنة .. عندما عاد ذات مساء إلى مكتبه وحياتها

باسما :

— مساء الخير يا فائزة .

— مساء الخير .

— كنت أود أن تكتبي لمصلحة الهاتف كي تبديل رقمي الخاص .

— هل أجعله مكتوماً ؟

— أجل .

وقبل أن يستقر على مكتبه سألها بطريقة عابرة :

— هل سأل عنى أحد ؟

— دق التليفون عدة مرات ثم سكت .

وجلس « سامى » على المقعد ، وأحس وهو يستقر فى مكتبه .. بأنه فى

حاجة إلى فترة استرخاء وتفكير .

إحساس جديد بدأ ينتابه .

إحساس خطير لا يعرف مبعثه .

النواقيس الحزينة التى كادت دقائقها تبعث من قلبه بعيدة خافتة قد أخذت

تقترب وتتعالى .

وشعور بالقلق ، والضيق ، والتبرم .. قد نبت فى نفسه وأخذ يتزايد رويدا

رويدا .. حتى أحس أخيراً أن شيئاً فى داخله يكاد ينفجر .. وأن الصراخ المتعالى

فى باطنه يكاد ينطلق من شفثيه .

وازداد به التعب والإرهاق .. من فرط العدو والهروب .. وأحس بفرط الحاجة إلى أن يتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه .. ويرخي أعصابه .
ولم يعرف بالضبط ماذا أصابه .. أهو إحساس بالإجهاد من فرط العمل .. والعدو والهروب ، والإمعان في المقاومة .
أم هو إحساس بالحنين .. والرغبة في العودة .
أهو مجرد إرهاق ؟ أم نكسة ؟
أيا كانت .. وأيا كان مصدرها من باطنه أو من خارجه .
وأرهاقا كان أم مللا .. أم حنينا .. أم أى شىء آخر لم يفهمه .. ولا حاول أن يفهمه .

لقد وجد ساقيه تقودانه إلى مكتبه .. ووجد نفسه يستقر على مقعده .
وأحس بأن صراعا قد قام فى باطنه .
لم يعد الأمر مجرد صراخ وعويل .
فقد أيقظ الصراخ فى باطنه شيئا هاجعا .. أخذ يتمطى ويتشاءب .. ويسأله عما فعل به .
وبدأ الصراع .

بدأ يلطمه من جانب العقل المقاوم .
لطمة تشكيك ولوم .. للصاحب المهاجر .. المهجور .. إنه لم يحاول أن يسأل عنه مرة واحدة خلال هروبه .
لقد بدا وكأنه كان ينتظر القطيعة بفارغ صبر .

ورد الحنين المتيقظ اللطمة هامسا :
ما الذى يدرى .. بأنها لم تسأل ؟
سألت ! متى ؟ وأين ؟! ولماذا لم تترك خبرا ؟! أتراها حقا كانت تعجز عن الاتصال به .. واستدعائه إليها .. لو أرادت .

وعاد الحنين يرد :

جائز جدا .. أن تكون حاولت أن تسأل عنه وفشلت .
وجائز جدا .. أن يكون قد ألم بها شيء .
وعاد الذهن المقاوم يرد في صرامة :
كلام فارغ .. إنها استطاعت المقاومة بغيره ، بل أغلب الظن بأنها لم تشعر
بحاجة قط إلى المقاومة .. لأنها وجدت من تستند عليه .. وتشغل بأمره .
وازداد الحنين يقظة .. وتحوّل همسه إلى صياح .
لا .. لا .. إنها تحبه .. تحبه .
لقد كان هو السبب في كل ما حدث .. كان عنيفا قاسيا ، وكان يتصور أن
الأمر يمكن إنهاؤه بضربة سيف .
وبدا الأمر له سهلا .. هينا .. وهو يعنى في الجرى والهروب ، محيطا نفسه
بسياج من العمل المرهق .
ولم يعرف وقتذاك .. أكانت قدرة منه على المقاومة .. أم هي سرقة سكين ..
حتى أحس فجأة أنه يكاد يسقط إعياء فأدرك .. أن سرقة السكين قد انتهت ،
وآلام الجراح قد بدأت .
وإذا بقدمى الجريح تقودانه .. بجراحه النازفة .. إلى أقرب مستقر .
وردت المقاومة .. على دقائق الناقوس .. بأن أغلقت الباب في وجه الجريح
العائد .. بالعزم على تغيير رقم التليفون حتى يوقف كل احتمال ، لتسلل الخطر
منه وحتى يصيبه اليأس . فلا يعود ينتفض لكل دقة من دقائقه ، ولا يعود يحس
بالخذلان .. إذا سمع صوتا .. غير الصوت الوحيد الذى يتلهف على سماعه ،
ولكن شيئا لم يستطع أن يوقف الحنين المستيقظ .. والشوق العائد ، وأخذت
النكسة تتضاعف ، وآلام الجراح تزداد .
وأحس برغبة شديدة في أن ينطلق ليرتمى بين أحضانها .
ودق جرس التليفون .
وتمنى أن يسمع همسها الخلو .

ولكن صوتا خشنا هتف به :

— ألو ..

— مساء الخير يا « سليم » .

— ماذا تفعل ؟

— أبدا .. سأراجع تجربة مقالي .

— ثم ؟ .

— ثم ...

ولم يعرف ماذا ينوي أن يفعل .. فقد خلا ذهنه من كل شيء إلا من الحنين إليها

والتفكير فيها .. ولكن أحس أن عليه أن يقول شيئا .. فأحباب :

— ثم .. أعود إلى البيت لأنى مرهق .

— لماذا لا تأتي إلينا ؟

— أين ؟

— هنا .. في الحزب .. إن لدينا بعض الأصدقاء المصريين وهم يودون

رؤيتك .

وأحس بأن طوق نجاة قد قذف إلى مقاومته التي توشك أن تغرقها موجات

الحنين .. فأسرع بالتقاطه قائلا :

— سأتي حالا .. مسافة الطريق .

ونفض من مقعده .. كأنه ينطلق من قفص سجن .. فتح له السجنان بابه .

انطلق .. ليعود إليه مرة ثانية ، وهو أشد ما يكون ضيقا ، وأضعف ما يكون

مقاومة .

لماذا .. فعل كل ذلك ؟

لماذا أقدم على عملية التعذيب التي أقدم عليها ؟ .

إنه يعرف جيدا .. مدى تسللها إلى كيانه .. يعرف جيدا .. تعذر استئصالها

من قلبه ، فلماذا أقدم .. على هذه الهزة القاسية .

واستمر الصراع الداخلى .. فى ازدياد .
والحنين يتضاعف ، والمقاومة .. تترنح .
حتى بدأت هجمة شوق جديدة من خارجه .
كان يجلس فى مكتبه عقب انتهائه من العمل يتصفح بعض المجلات .
وأمسك بإحدى المجلات .. فإذا بصورتها تطالعه على غلافها .
وحاول أن ينحيا بعيدا .
ولكن بصره ظل معلقا بها ، وانتقلت عيناه إلى التعليق الذى كتب أسفلها
« نفى إشاعات الزواج » .

وانتابه إحساس بالارتياح ، ولكنه ارتياح مشوب بالوساوس !
لماذا ادعت إذن أن « شكرى » قد تقدم إليها ، وأنها قد قررت الزواج منه ؟
أتراها قد استقرت معه على مجرد علاقة ؟
وأحس كأن لطمة قد أصابته ، وملأه إحساس بالمرارة والألم .
ولكنه عاد ينفذ الوهم عن ذهنه .
لا .. لا .. غير معقول أن تفعل هذا .
لا بد أنها قد عدلت عن الفكرة .. أو ربما لم يكن لها أساس من الأصل ،
ولم تكن إلا محاولة لإنقاذه منها بعد أن قال لها ما قال .
لشد ما كان قاسيا !!

وزاد به الحنين .
ولكن لماذا لا تتحدث إليه ؟ .. لماذا لا تطلبه ؟
لماذا استطاعت أن تقاوم كل هذه المقاومة ، وقد أوشكت مقاومته هو أن
تنهار ؟

ومد يده يدير مفتاح الراديو .
ليمنعها من أن تمتد إلى سماعة التليفون .
وأخذ يستمع إلى حديث سياسى عن الأحداث فى العالم .

وانتهى المتحدث من حديثه .
ومد « سامى » يده ليغلق الجهاز ، وينهض للعودة إلى البيت ، حتى يهرب
من حنينه المتزايد .

ولكن قبل أن يدير المفتاح .. سمع صوت المذيع يقول :
— والآن سيداتى سادقى نقدم إليكم بعض الأغانى .. نبدوها بأغنية للمطربة
هدى نور الدين .

ورفع « سامى » يده عن المفتاح ، وأخذ يرهف السمع .
وبدأت المقدمة الموسيقية .
وخيل إليه أن القدر يرفع المعول .. ليهوى به على آخر حصن من حصون
المقاومة .

كانت أغنيته الحبيبة المسجلة على الشريط مع المناجاة .
وعلا صوت هدى .. ينشد الأغنية .
وحمله الصوت الرقيق .. بعيدا .. بعيدا .
إلى مكان وسط الثلوج البيض ، والمدفأة تتراقص فيها ألسنة اللهب .
وهي تجلس أمام البيانو ، وصوتها العذب يهمس له بالأغنية .
ونظر إلى الساعة .. فإذا بالليل قد انتصف .
وانتهت الأغنية .

ليجد نفسه بلا وعى ولا إرادة .
يتسلل من المكتب .. لينطلق إليها فى سكون الليل . بعد أن طوى الحنين كل
أثر للمقاومة .

لقاء... وفرقة

انطلق « سامى » .. كما ينطلق عصفور حبيس فتح له القفص .
 انطلق يسابق الريح .. خفيفا .. لطيفا .. يكاد يحتضن كل شيء .. ويقبل
 كل شيء .. وقد أحس لأول مرة أن العباء الذى جثم فوق أكتافه ، والذى راح
 يعدو به هاربا خلال الأيام الثقيلة الماضية .. قد تفتت وذاب وذرت الرياح .
 خفت العويل فى باطنه .. وهدأ الصراخ .. وانتهت المعركة التى شدت
 أعصابه وأقضت مضجعه .. والتى أثارت فى جوفه إعصارا لم تسكن ريجحه ،
 ولا استقر غباره فى يقظة أو رقاد .

انطلق سامى يعدو إلى بيت هدى .. إلى مستقره الطبيعي ، وملجئه الريح .
 وكأن ما أصابه لم يكن سوى جنوح عاصفة ، وشروذ أنواع ، أفضى به إلى
 بهمة اليأس ، وعممة الضلال .. فلما سكنت العاصفة وهدأ الموج .. انطلق إلى
 المرفأ ، ينفذ عنه آثار الصراع ، ويضمّد جراح المعركة .

انتهى الكابوس المروع الذى أمسك بخناقه، وكتّم أنفاسه .
 انتهى تماما .. بنفس البساطة والسرعة التى بدأ بها .

ولم يعرف وهو ينطلق إليها .. كيف بدأ الكابوس وكيف انتهى .. ولكن كل
 الذى عرفه ، هو أنه يريد أن يعدو إليها ليأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه
 فلا يتركها أبدا .

وأضحت الشائعات خرافات ، وكلام الناس هراء ، والمجد سخافة ،
 والسياسة ترهات ، ومعاركها أباطيل .. و .. و .. كل شيء لم يعد له قيمة ،
 وهو ينطلق إليها ، وكأنه يهيم ولا يمشى ، يسرى ولا يسير .

شيء واحد فقط في هذه الحياة يمنحها الطعم والرونق والبهاء ، شيء واحد يمنحه الإحساس الحقيقي بها .

هو هذه المخلوقة الحبيبة ، التي أحبته وأعزته ، وأراحته ، ولم تسيء إليه مرة واحدة .

المخلوقة .. الجميلة .. الرقيقة .. التي لم تطمع من حياتها في شيء أكثر من أن يجيها .

المخلوقة العزيزة ، التي رضيت بأن ترقد ببابه الخلفى ، وقنعت بكل ما يستطيع أن يمنحه إياها بلا ضيق ولا إقلاق .

لم تحاول مرة أن تتعدى مكانها .

لم تحاول أن تسأله المزيد .

لم تحاول أن تطالبه بوضع طبيعي ، غير وضعها بالباب الخلفى الذى تستتر وراءه .

بل أمعنت في التستر .. خوفا عليه .. وحرصا على سمعته .

كانت تخاف عليه .. خوفا أم على طفلها .

كان حبها عجيبا .

كان ؟!

أو لم يزل .. كما كان ؟

لماذا يتحدث عنه كشيء مضى ؟!

إن هذه الفرقة .. كانت وهما .. كانت حلما بغيضا بددته اليقظة .

سيذهب إليها الآن .. ليجدها قد أوشكت أن تأوى إلى الفراش .

وابتسم وكاد يقهقه .

عندما تذكر كيف أصابته الوسواس مرة .. فذهب إليها فجأة دون أن

يخبرها .

وكيف دخل فوجدها قد أغرقت شعرها بالزيت .. وعصبته بمنشفة ثم

فرشت منشفة أخرى على القراش ، وهمت بالرقاد .
وخجلت من أن يراها .. كما هي .
ولكنه لم يجد وجهها أروع ولا أبرأ مما وجدته وقتذاك .. بتقاطيعه الحلوة
الدقيقة .. وقد افتر ثغرها عن ابتسامه خجل .
وضمها إليه .. وأخبرها أنه عاد فجأة ليقضى على بعض الوسوس التي نبتت
في نفسه .
وزادت ابتسامتها .. ثم انطلقت ضاحكة سعيدة .. وهي تهتف به وتضمه
إليها :

— أحب غيرتك .
— أحقا لم أضايقتك ؟
— أبدا .. افعل دائما كل ما يحلو لك .. إنى لا أفعل أبدا ما أحس أنه يسيئك .
— لقد ظللت برهة مترددا .. ولكن الوسوس الحمقاء أثقلت عليّ .
— أعرف يا حبيبي .. وسوسك البلهاء .. أعرفها جيدا وأحب دائما أن
أريحك منها .
— من أجل هذا فضلت أن آتى إليك .
ومضت فترة صمت قطعها « هدى » بقولها :
— لعلك قد استرحت ؟
— جدا .
— لا تتردد أبدا في الحضور في أية لحظة .. يخطر فيها ببالك الحضور .. لأننى
أحب أن أراك .. وأحب أن أريحك .

وعادت تضمه إليها ، وهي تسترسل قائلة :
— لا تتصور كم أسعدتنى مفاجأتك .. رغم أنك رأيتنى على هذه الحال .
وأمسك برأسها الصغير الملفوف في المنشفة .. وأخذ يقبل شفيتها وأنفها
وعينها ، وهو يهتف ضاحكا :

— أحبك جدا وأنت على حالك هذه .
ووجد نفسه يتسم وحيدا .. وهو يوقف العربة في الشارع الجانبى .
وبدا له أن الوقت لم يمر .
كان هنا بالأمس .
أهدأ .. لم تمر أيام طويلة ثقيلة .. خانقة .
كان مجرد حلم مقبض سخيف .. عاد كل شىء إلى ما كان عليه .. بمجرد أن
فتح عينيه .
النهر المنساب بالمصابيح المنعكسة فى مجراه .. والشجرة الطويلة القائمة ..
والأضواء المتألقة فى الجبل .
و« البواب » قد انكمش فى حجرته أسفل السلم :
وأحس بالألفة نحوه .. حتى كاد يطرق بابه ويحييه وينبهه أنه قد عاد .
و« أم حبيب » لا شك قد رقدت .
و« هدى » .. قد لفت شعرها بالمنشفة .. واستلقت فى فراشها ..
واستغرقت فى النوم .
ولكن ...
وأحس بطريقة إنذار خفيفة فى ذهنه .
أوائق هو أنها ستكون قد همت بالرقاد !
ألا يحتمل ألا تكون قد عادت ؟
لا عليه .. لينتظرها حتى تأتى .. وتكون المفاجأة أتم وأروع
أجل .. سيقبع فى انتظارها فى الفراش .
ولكن لا .
إن المفاجأة قد تكون أشد مما تخيل .. قد تظنه لصا .. أو شبعا .. وقد تؤذيها
المفاجأة .
يجب أن يكون أعقل من هذا .

أجل .. سيضئ النور ويجلس في حجرة الجلوس .. ويتسلى بإدارة التسجيل .. وسماع المناجاة .

وقد تأتي في تلك اللحظة ويكون ذلك أجمل استقبال لها .

ولكن ألا يحتمل أن تكون في الدار ؟

ولكنها ليست وحدها .

ألا يحتمل أن تكون في إحدى تلك الولايم الصاخبة .. التي تضم حثالة

الزملاء والمعجبين ؟

لِمَ لا !! ماذا يمنعها من هذا ؟

إنها قطعاً لا تتوقع حضوره .

وتصوّر نفسه وهو يفتح الباب .. ثم يواجهه كل هؤلاء السكارى ..

المغرقين في الرقص والعريضة .

أية مهزلة .. يمكن أن يحدثها .. لو فعل !؟

ولكن لماذا يخشى مثل هذه المفاجأة !؟

إنه بلا شك سيشعر بالضجيج وهو خارج الباب .. وسيعطيه ذلك إنذاراً

بالانصراف .

ولكن .. هب أنها مع أصدقاء لا يحدثون ضجيجاً .

مثل مَنْ !؟

وأحس بشيء يلتوى في باطنه .

وأخذ يجيب نفسه ، وهو يصعد آخر الدرج .. مثل .. أى معجب .. أو

صديق .

شكري مثلاً .

وملأت نفسه المرارة ، وكاد ينكص على عقبيه .. عائداً القهقري .

ولكنه توقف في عناد وهو يلوم نفسه قائلاً : « غير معقول أن يفعل هذا » .

لماذا يأبى إلا أن يكون بمثل هذه القسوة في وساوسه وشكوكه ؟

ولكن ألم تنذره هي بأنه تقدم لزواجها؟!
وعاد يرد على نفسه :

تقدمه لزواجها شيء .. وحضوره في منتصف الليل ليجلس وإياها
شيء آخر .

غير معقول أن تفعل هذا أبدا .

إنه يثق فيها ثقة مطلقة من هذه الناحية .

يعرف أنها أعقل من أن تسلم نفسها ببساطة لعلاقة مثل هذه .

يعرف أنها إما أن تزوجه .. أو تتركه .. فليس هناك ما يضطرها أبدا إلى أن

تتشيء معه علاقة .. بين بين .. فلا هي تحبه ، ولا هي في حاجة إليه .

ولكن ألم تنذره هي بأنه قد دخل في حياتها!؟

لِمَ كل هذا التردد؟

لماذا لا يتقدم ويفتح الباب ويدخل حتى يقطع الشك باليقين!

هب أنها خذته .. وحطمت أمله .

وعادت المرارة مرة أخرى تملأ نفسه .. وعاد الشيء يلتوى في باطنه .

لِمَ كل هذه الوسوس والمواجس والمخاوف؟

إنه يعرف جيدا كيف تحبه .

ويستطيع أن يتصور تماما .. كيف كان وقع صدمة فراقه عليها .

إنه يذكر كيف كانت تقول دائما : « لا أتصور أبدا أن يأتي اليوم الذي

تركتني فيه .. سأموت بلا جدال .. إن مجرد تصوري بعدك ، يجعلني

أرتجف » .

أجل .. قالت له هذا أكثر من مرة .

فلماذا يقسو عليها في وسوسه!؟

حتى يتصور أنها ببساطة قد أبعدهت لتضع آخر في موضعه .

وعاد شيطان الوسوس يلح عليه في عناد وإصرار .

ولكن هب أنها فعلت !
ورد بيبأس وحنق وقسوة :
« لو أنها فعلت .. فخير لى أن أواجهها .. حتى يكون البتر فى هذه المرة
قاطعا .. حاسما » .

وأحس بشعور الجلاد يتسلل إلى نفسه .
وكره من نفسه هذه الرغبة .. المدمرة اليائسة .. التى دفعته إليها ريبته
وظنونه .

لماذا لا يعود من حيث أتى .. ويقى نفسه نتائج كل هذه الاحتمالات ؟
دقة من التليفون .. تجعل كل شىء واضحا .. وتقضى على هذه المخاوف .
وإنذار واحد .. كفيلى بأن يجعل الطريق ممهدا .. ويقضى على أى احتمال لمفاجأة
مزعجة ، ويجعل زيارته مأمونة من كل العواقب .
ولكن الخاطر لم يزد إلا إصرارا على الدخول .
غير معقول أن يرجع لأنه يشك فيها .

بل المعقول أن يدخل لأنه يشك فيها .. فلو عاد وهو محمل بالشك .. لظل
الشك معلقا فى نفسه أبد الدهر .. مهما حاولت هى أن تقنعه بأنها كانت ترقد
وحدها .. بالزيت فى شعرها ، والمنشفة تعصب رأسها .
أجل .. يجب أن يدخل .. لأنه يريد دائما مبرأة من كل شك .. يريد
بين أحضانها .. وفيه مخلصه ، لا يشعر أبدا إلا أنها له وحده .. فى كل لحظة ..
وبكل جارحة .

أما مع الشكوك ، فإن حياته معها تصبح كارثة .
وإذا كان قد وصل إلى أعتابها .. والشك يملأ رأسه .. فخير له أن يدخل ،
ويقضى على الشك .

أو ...

يقضى على كل شىء .

وبإحساس المغامر .
وضع المفتاح في ثقب الباب .
لقد كانت تتمنى دائما أن يعود إليها في كل وقت .. كانت تحب مفاجآته .
وهو يقدم لها الليلة .. أجمل مفاجأة .. بعد الفقرة .. وطول البعد .
وأحس بشيء من الطمأنينة ، وهو يجد السكون خيم والصمت قد أطبق .
لا صياح غناء .. ولا ضججات رقص ، ولا أصوات عريدة .
وأدار المفتاح في الباب دورتين .. ثم دفع الباب فانفتح ، وبدت القاعة أمام
عينيه مغرقة في الظلمة .
لا همسة .. ولا نفس .
وخطا إلى الداخل .. ثم أغلق الباب خلفه في هدوء .
وتقدم بضع خطوات في القاعة .. متلمسا طريقه في الظلمة .. ثم توقف .
ووصلت إليه أنفاس نائمة .
الأنفاس المنتظمة الطويلة .. التي يتخللها مقاطع حشرجة أو شخير .
ولم يشك في أنها أنفاس « أم حبيب » ترقد على حشيتها .. التي طالما استعارها
للجلوس عليها في ركن الشرفة في ليالي الصيف .
وكان يعرف طريقه بلا حاجة إلى ضوء .. فاتجه يمينا .. في الممر المفضى إلى
حجرة الجلوس وحجرة النوم .
وتوقف أمام باب حجرة الجلوس .. أو حجرتها معا .
الحجرة ذات المقعد الكبير المريح الذي طالما استرخى عليه وهي في حجره ،
وعيناه تشردان فيما وراء النافذة الزجاجية العريضة .. في فروع الشجر المهتزّة ،
والنهر الممدود والنجوم المتألّفة .
وأحس بخنين شديد .. إلى وقفة وراء النافذة .
لقد بدا له في أيام حرمانه أن عهده بها قد انقضى .
لم يخاطر بباله ، أنه سيعود مرة أخرى ليسترخي وراءها ، ويريح عينيه بالشروق

من خلالها بين أضواء النهر ، وأضواء الجبل .
كان يظنها قد أضحت مجرد ذكرى .
فإذا بها تعود حقيقة مرة أخرى .

وبحين العائد ، وشوق الغائب .. مد يده ليدفع الباب ، ويلقى على الحجرة
والمقعد والنافذة ، وما وراء النافذة ، نظرة حنين .. قبل أن يتسلل إلى حجرة
النوم .

ولم يكد يفتح الباب قليلا ، وترى عيناه الحجرة من خلاله حتى جمد في
مكانه .

كأنما قد أصابه شلل .

وأحس أنه فقد السيطرة على حواسه .. وبدا له كأن أعضاء جسمه قد
اختلفت .. فلم يعرف أين ساقاه وأين يده وأين رأسه .

بل لقد بدا .. كأن الواقف في مكانه مخلوق آخر لا سلطان له عليه .
لقد أبصر أمامه .

ما طاف بذهنه كمجرد وهم .. أو شك مرير .. يستحيل وقوعه .
وجد رجلا يجلس على مقعده .

نفس الجلسة .

وفي نفس المكان .

يمد ساقيه في استرخاء عند حرف النافذة .. لا فرق بينهما سوى أنه أمسك
بيده اليمنى كأسا .. وباليد الأخرى أحاط « هدى » .

وجمد وراء الباب المنفرج عن المشهد المروع عاجزا عن التصرف والتفكير .
ومضت ثوان .. وهو يقف مشدوها مذهولا لا يعرف ماذا يفعل .

أينسحب متسللا .. كما أتى .. وينطلق إلى الطلام البارد الذي كان فيه ؟!
أيعود في صمت .. ليختفي حيث كان .. فإن أحدا لم يحس به ولم يلتفت

إليه ؟

أيعود بالجرح يدمى فى باطنه .. والطعنة المسمومة تنفذ إلى صدره !؟
ولم يحس برغبة فى التقهقر .
وتملكه نوع من عناد اليأس .. فى أن يستأصل كل شىء من جذوره ، وأن
يقطع ما بينهما حتى آخر عرق .
ودفعه الشعور بالمرارة ، إلى أن يجرع مزيدا من المرارة ، وأحس بأعصابه من
شدة التوتر تسترخى .. وأحاسيسه من فرط الفوران تخمد وتتبلد .
وتملكه رغبة جارفة فى أن يواجهها ، وكأنه قد وجد أخيرا أن كل وساوسه
التي خدعته فيها .. قد تجمعت فى تهمة لا ترد .
وجعله الشعور بالهزيمة والمرارة واليأس يميل إلى القسوة والاستهتار
واللامبالاة .

وانتهت ثوانى التردد والحيرة .
ورفع يده فدق الباب وهو يرقب من ورائه .
وبصوتها المنغم ، ونبراتها الممدودة .. ردت « هدى » :
— أجل يا أم حبيب .
نفس الرد الذى كانت تحببه على دقائق « أم حبيب » عندما تكون فى
أحضانها .

وأحس بالدم يغلى فى عروقه ويتصاعد إلى قمة رأسه .
ومن خلال أنفاسه اللاهثة .. رد بكل ما يملك من قوة أعصاب :
— أنا لست أم حبيب .. أنا سامى يا هدى .

ومضت برهة صمت .
بدا كأ أن كل من بالحجرة قد تجمدوا فى أماكنهم .
لا صوت .. ولا حركة .
لم تتكلم هدى .
ولم تلتفت .

لقد بدا كأن الصوت وهم .. أو حلم .
وانتهت ثواني الصدمة .. والتفت كلاهما .
هي .. وصاحبها .
لم يستطيعا التحرك من مكانهما .
واستدارت « هدى » برأسها لتجد « سامى » يقف بالباب أمامهما ،
وينظر إليهما وجها لوجه .
وبدا كأن ريقها قد جف ، ولسانها قد تصلب .
ومضت برهة أخرى وهي تنظر إليه كالطير الجريح .. ملء نظراتها اليأس
والحزن والأسى .
وبدا الاضطراب على « شكرى » .. ولم يعرف كيف يتصرف .
وأحس « سامى » بأنه أكثر الثلاثة قلذرة على التصرف .
فخطا خطوة إلى الداخل ، وتساءل فى مرارة :
— زيارة غير ملائمة .. ولكن ما دامت قد وقعت فلا بد أن نواجهها .
وهمست « هدى » همسة التائه الهائم :
— تفضل .
وغادرت مقعدها وتقدمت إليه وهي تكاد تسقط إعياء ، لا تعرف ماذا
تقول ، ولكنها تمالكت نفسها وتمتعت ببعض كلمات اعتذار قائلة :
— لم أكن أود أن يحدث هذا قط .. ولكنى أحس أنى لم أخدع منكما أحدا .
ونظرت إلى شكرى قائلة :
— لقد قلت لك إنى أحب إنسانا .
ثم أشارت إلى سامى قائلة :
— هذا هو الإنسان الذى أحبه .
ثم أشارت إلى شكرى قائلة لسامى :
— الأستاذ شكرى .

وارتمت « هدى » على المقعد في إعياء ويأس .
وجلس « سامى » على مقعد ثالث .
ومضت برهة صمت .. بدا الموقف خلالها ثقيلًا خانقا .
ولم يعرف أحد .. ماذا يمكن أن يقال .
وأحس « سامى » بأنه المسئول الأول عن هذا الموقف ، وأنه كذلك أقدرهم
على الكلام .. فبدأ حديثه قائلاً :

— قد أكون أكثركم مرارة .. وأشدكم إحساسًا بالخذلان والهزيمة ، ولكنى
مع ذلك أحس بأنى أملك زمام أعصابى .. وأحس بأن شيئًا يجب أن يقال ليوضح
هذا الموقف المرير الذى وجدنا فيه .. وإنى لقائله .

ثم نظر إلى « شكرى » موجهًا إليه القول :
— لقد أحببت « هدى » . أحببتها كما لم يحب أحد ، وقد كانت دائمًا أهلاً
لهذا الحب . إنها مخلوقة تستحق كل شيء طيب فى هذه الحياة ، وقد حاولت أن
أمنحها كل ما أستطيع ، ولكن الظروف أعجزتني أن أحقق لها ما يبدو أنك
تستطيع أن تمنحها إياه .. وأن تهيب لها به ما تستحق من سعادة وحياة هائلة
طيبة .

وصمت « سامى » برهة ، وأحس « بهدى » تهز رأسها ، وتضغط بأسنانها
على شفتيها .

ونفض « سامى » متناقلاً ، وهو يشعر أن الموقف المرير يجب أن ينتهى .
وهز رأسه قائلاً فى شيء من الأسف المشوب بالسخرية :
— كان مفروضاً أن تبدأ أنت حيث انتهيت أنا ، ولكن يبدو أنه قد حدث
تشابك بيننا ، لم أكن واثقاً أنك قد دخلت حياتها ، ولا كنت أنت تعرف أنى لم
أخرج من حياتها بعد .

وعاد يهز رأسه ، وهو يمد يده مصافحاً ويتمم ويقول :

— ماذا نفعل . إذا كنا لا نملك مصائرنا ؟!

وسار متجها إلى الباب الخارجى ، وسارت « هدى » وراءه .
ووقف الاثنان وراء الباب .
كان الجمر المشتعل بينهما ، يبدو وكأن ماء قد صب عليه ليجعل منه فحما
أسود باردا .

وتنهدت « هدى » فى يأس وقالت :

— كنت دائما أحترمك ، وزاد احترامى لك اليوم حتى ...

وأحس « سامى » بمرارة فى كلمة الاحترام ، وهمس مقاطعا :

— احترام .. فقط .. أهذا كل ما تبقى لنا من مشاعر ؟!

وطأطأت رأسها وهمست قائلة :

— أخجل أن أقول حيا .

ومد « سامى » يده ، فشد على يدها قائلا :

— أتمنى لك من كل قلبى حياة سعيدة . لن أنسى أبدا . أنك كنت أجمل ما فى

حياتى .. كنت أود أن تكون خاتمتنا جميلة كحبنا ، ولكن ماذا نفعل ؟! كل

ما أرجوه هو أن تتزوجى فعلا .. فقد يمنح ذلك حبنا ، خاتمة أكرم وأفضل .

وشرد برهة ثم تنهد قائلا :

— كان يجب أن أقنع بالوداع السابق ، ولكنى كنت طماعا .

وهزت « هدى » رأسها قائلة فى أسى ويأس :

— يبدو أن الله قد أبى لحبنا إلا مثل هذه الخاتمة لكى ينبيه فعلا .. إن ما بيننا

لم يكن ليقطع إلا بمثل هذا .

وبغير همسة ولا ضمة ، ولا مسة شفة .. انساب إلى الظلام ..

ليحتويه الفراغ البارد مرة أخرى .

عهدة إلك الهذيان

ترك « سامي » بيت « هدى » .. وسار في طريقه . لم ينطلق هذه المرة .. ولم يعد هاريا .

لم يشعر أنه في حاجة إلى الهروب .. وإلى المقاومة .. وإلى الخوف من الارتداد .

ومن يهرب !!! وماذا يقاوم ؟ .. وإلى من يخشى أن يعود ؟

من يهرب .. ومطاردة الحب قد انتهت .. والمطارد .. قد أغمد سيفه .. ولوى عنانه .. وكف عنه .

وماذا يقاوم .. والجذب قد توقف .. والشد قد أرخى .. والصراع .. لم يبق به سوى جانب واحد .

وأى عودة يخشاها .. بعد أن أحرقت مراكبه .. وسد الطريق في وجهه . لم يكن هناك مبرر للهروب أو المقاومة .. ولا كانت لديه القدرة عليهما . كان كل ما يملك هو أن يسير صامتا .. واجما .. يائسا .. وأن يحاول وقف الانهيار الذي يحس أنه بات منه قاب قوسين أو أدنى .

كان يشعر في قرارة نفسه أن كل شيء قد انتهى .

انتهى بقسوة .. وعنف .. ليطفئ بصيص الأمل .. ويفسد جمال الوداع .. ويضيع حلاوة الذكرى .. ويطمس كل المعالم الطيبة الجميلة التي ميزت أجمل أيام عمره .

انتهى كل شيء .. وكأنه قد تحطم بيد هوجاء مجنونة .. أصرت على أن تقضى عليه وتعصف به .. فلا تبقى منه شيئا ولا تذر .

و كأنما أحست هي بهذا فاعتذرت عنه بمرارة بأنه كان يجب أن يحدث لكى ينتهى ما بينهما حقا .

وقد تكون على حق .

ولكنه حق الجلاذ ، الذى يرى فى حد مقصلته .. حسما لكل شىء .
لا فارق بينهما إلا أن الجلاذ .. جلاذ .

أما هي فكانت حبيته !!

حبيته فقط !

لقد كانت أجمل ما فى حياته .. وأعز الناس لديه .

وكان أجمل ما فى حياتها .. وأعز الناس لديها .

أحقا كان ؟!

أيمكن أن نفعل فى أعز الناس لدينا .. ما فعلت به ؟!

بعد كل هذا الحب والارتباط الذى جعلهما كأنهما مخلوق واحد .. تلقى به
بمثل تلك البساطة .. لتضع مكانه إنسانا آخر .. تجرى به حياتها بيسر وسهولة
و كأنها أبدلت مركبة بمركبة .. أو جوادا بجواد .

ولكن ماذا يروعه .. مما فعلت .. بعد أن أذرت به ؟

ألم تخبره بأن إنسانا قد تقدم لزواجها .. وأنها قد وجدته ملائما لها ..
ولم يعترض هو على ما قالت .. وودعها الوداع الأخير !

ألم يحس هو وقتذاك أن فى ذلك حلا لمشكلة مستعصية .. وانطلاقا له من
عملية أسر .. وتحررا من استعباد ؟

جائز .

ولكنه إحساس مؤقت .. نتج عن فرط ما وقع عليه من ضغط .. وإرهاق ..
وإجهاد .

إحساس لم يشعر قط أنه يمكن أن يتحكم فعلا فى مصيرهما معا .. ليضع له
مثل هذه الخاتمة المريرة .

بدليل .. نكسته .. وعودته إليها .. بحنين أشد .. وشوق أحر .. وإحساس
أجمع وأرهف .. ليجدها قد نفضت يدها من كل شيء .
وحتى لو كانت قد استقرت على إنهاء علاقتهما .
أيعنى ذلك إنهاء حبهما ؟
هل الحب ينتهى بمجرد قرار ؟!
أهان عليها حبهما إلى هذا الحد ؟!
أهانت عليها الفرقة .. بلا شوق ولا لهفة .. ولا حنين .. بل عاشق يحل محل
عاشق ، ومحب يشغل مكان محب .
ولماذا هذه العجلة ؟
ولماذا لم تتزوج .. كما قالت ؟
ولكن هبها تزوجت !!
ماذا كان يمكن أن يصبح موقفه وهو يقتحم بيتها بعد منتصف الليل ليفتحه
بمفتاحه .. ويدخل حتى لمحمدتها ؟
أى حماقة كان يمكن أن يرتكبها ، وأى مأزق كان يمكن أن يزوج به فيه ..
لو أنها كانت متزوجة فعلا !
ماذا دفعه إلى مثل هذه الحماسة ؟
حبه ؟!
ثقته المفرطة في حبها !!؟
كان يظن أن بها من الحنين مثل ما به !
كان يظنها تتقلب على جمر الفرقة ، وشوك الحرمان .
كان يظنها ساهرة .. مسهدة .. مقروحة الجفن .. تنتظر أوبته في كل
لحظة .. لتضمه إليها في لهفة وتساله ألا يغيب عنها أبدا ؟!
ذلك ما دفعه إلى العودة إليها .
لم يكن جنونا ولا حماقة .
ولكنها لهفة المحب .. أضناه الشوق .. ولم يستطع أن يفعل شيئا .. إلا أن

يعود .

ولقد عودته أن يعود .. ليجدها دائما في انتظاره .. لترتمى بين أحضانه .
في كل مرة كان يعود إليها .. على غير موعد .. ليجد ذراعها مفتوحين
لضمه .. وشفقتها مضمومتين لتقبيله وكأنها لا عمل لها سوى انتظار عودته .
ذلك ما دفعه إلى العودة .

فرط الحب ، وفرط الشوق .. وفرط الثقة .

وعاد .. ليجد بين يديها سكين الجلاذ .. لتجتث بها حبا من جذوره ،
وتحنق في جوفه كل ما يحتمل أن يتردد من أنفاس .

وغادرها .. ذبيحا .. يلم جراحه في باطنه .. ويسير بين الناس ..
كالسليم .. متد الخطا .. مرفوع الرأس .. لا يتأوه ولا يتألم .. ولا يعرف كيف
يريح نفسه من هذه الحرقه التي تكوى باطنه .

كان عليه أن يلقي الناس ويحدثهم ، ويستمع إليهم ، ويفهم ما يقولون ،
وباطنه ذلك العذاب المرّوع الذي لم يخطر بباله أنه يمكن أن يصيب إنسانا .
لقد مرّ في حياته بمحن كثيرة ، وذاق أنواعا من الآلام .. الجسمية :
والنفسية .

فقد أعزاء كثيرين .. أورثوه بفقدهم .. أحزانا أئمة . ولم ينج من آلام
المرض ، ومرارة الهزيمة عبر مراحل حياته ، ولكن شيئا لم يصبه .. بمثل هذا الذي
أصابه .

لم يشعر في حياته قط .. أن شيئا يمكن أن يوجعه ، بمثل هذه القسوة ،
والاستمرار ، والعجز عن برئه أو تخفيفه .

وجيعة .. لا يملك لها علاجا . ليس لها تخدير ، ولا تسكين ولا بتر .

بل إن شيئا ينخر في باطنه .. بلا توقف .

ينام به ، ويصحو عليه .. علاجه مرفوض من مبدئه .

ويستمر فيه .

وكيف العلاج .. إذا كان الدواء هو سبب الوجيعة وأصل العلة ؟
وكل شيء يمكن التفكير فيه .. إلا أن يعود إليها .. أو يرفع السماعه ليسمع
صوتها .

أيسألها لقاء !!؟

أيستجديها .. كلمة حب !!؟

وهل يستجدي الحب ؟.

ليس أمامه إلا أن يسير بآلامه .. يتعذب ، ويتعذب ، ويتعذب .. دون أن
تند عن شفثيه صرخة .. أو ييدو على ملامحه ألم .
ليس أمامه إلا أن يتعذب وهو سائر في حياته الطبيعية .. لأنه لا يستطيع أن
يفعل غير هذا .

الذين تحدث لهم أمثال هذه الصدمات .. يفعلون شيئا .. يقاومون به ،
ويغرقون عذابهم فيه .

شيئا كالخمر .. وكالقمار .. وكأحضان امرأة أخرى .

ولكنه لا يملك هذا .. لأنه لا يعرفه .. ولا يجسر أن يضع نفسه فيه .

إنه لا يستطيع إلا أن يكون هو .. الرجل السليم العاقل المتزن .

وهو في باطنه أبعد ما يكون عن ذلك .

في باطنه الدامي .. الموجه .. يريد أن يصرخ ويصرخ ، ويقول للناس ..

إني مجروح .. معذب .

يريد أن يقول .. آه .. ويغمض عينيه وينكفي على وجهه ويكفي كالطفل .

أجل .. شيء ما لا بد أن يفعله لكي يخرج به تلك الجمرات التي تحرق

صدره .

ولكنه لا يملك إلا أن يزدرد حرقته .. ويتلع آهته .. ويعمل .. كما تعود أن

يعمل .. ويأكل ويشرب .. ويضحك أيضا .. إذا ما قال له أحدهم « نكتة » .

كان عليه أن يفعل كل ما يفعله الأحياء .

وهو أبعد ما يكون عن الأحياء .
كان عليه أن يحترق في صمت وسكون .. دون أن يأمل في منقذ له سوى
الزمن .

وحتى هذا الزمن .. الذى تشبث به .. وجدته يتسكع فى أيامه ، ويتهادى ،
ويأبى أن يمر .

كان يريد من الزمن أن يجرى سريعا .
فقد كان يأمل أن يخف ما به يوما بعد يوم .. شهرا بعد شهر ، وعاما بعد
عام .

ولكن الأيام لم تحمل له إلا مزيدا من الوجيعه .. ومزيدا من الألم .
وحاول أن يجد فى السفر وسيلة للفرار من أوجاعه .
ولكن كيف ينجو منها وهى مستقرة فى باطنه ؟!
ذهب إلى القاهرة مرتين ، وإلى موسكو مرة .. وظن فى كل مرة أنه يهرب
منها .. أنه يتعد عن موطن العلة .. ولكنه لا يكاد يتعد ، حتى يجس بالعلة
تطارده ، وإذا باليأس الموجه يلازم تفكيره .. الذى لا يمكن أن يكون إلا جزءا
منه .. فى دمشق ، أو فى القاهرة ، أو فى موسكو .
وسافر بوجيعته ، وعاد بوجيعته .

لو أنها كانت أكرم من هذا !
لو أنها صانت حبا ، فوقته من هذه الخاتمة المهينة .. ولم تلق به فى الوحل
لتطأه بقدميها !

لو أنها منحته وداعا أجمل ، وذكرى أطيب !
لو أنها منحته شيئا جميلا يفكر فيه .. فى الوحشة المضنية !
لو أنها منحته فقط بعض الراحة فى التفكير !
لو أنها هيأت له بعض ما يضمده جراحه .. من أعذار جميلة ، واحتياجات
مريحة !

لو .. لو ..
وكانت « لو » الممتنعة هي في حد ذاتها سببا جديدا لوجيعته .
لو أنه يئس ؟!
لو أن هذا الذهن يكف عن التفكير فيها !!
ولكن كل شيء ممتنع مستعص .
ولا يبقى له بعد كل هذا سوى وجيعة فوق وجيعة ، وألم على ألم .
والطريق المظلم الموحش طويل ، والأيام بطيئة .
وعليه بعد هذا ، أن يعمل ، ويعمل .
فقد أخذ الصراع يشتد .
وأضحى عليه أن يواجه صراعا في عمله ، كما يواجه صراعا في باطنه .
فقد أخذ الضغط على سوريا يشتد من جميع النواحي .
وتعاونت قوى الاستعمار وأعوانهم ، لتكوّن ضغطا أمريكيا بريطانيا
إسرائيليا تساندها حكومات الرجعية من العراق ولبنان ، لمقاومة ما سموه
« بالخطر الشيوعي » الذي يحاول أن يجد في سوريا منفذا إلى الوطن العربي ،
وإزداد الحشد التركي على حدود سوريا .. وزادت حدة الصراع ، وبدت كأن
سوريا قد أضحت لقمة سائغة يفوز بها الأسبق إلى الالتهام .
وزاد العبء على الوطنيين .. ليخلصوا بوطنهم سليما من الصراع الدائر فيه
وحوله .. وأخذت الحاجة تشتد إلى درع تقى الوطن العربي .
وبدأت درع الوحدة تتشكل وتتخذ سماتها الواضحة ، بعد الجهود التي
بذلت من أجل توحيد الجيشين المصري والسوري والتي انتهت باتفاق على
توحيد الجيشين في التسليح والتدريب لمواجهة الطوارئ المحتمل حدوثها ،
وتبادل الضباط والخبراء وإرسال إمدادات من القوى الضاربة للجيش المصري
لتعزيز الجيش السوري المواجه للحشود التركية .
وأحسن سامي بأول بوادر الوحدة العملية عندما وصلت القوات المصرية ،

إلى ميناء اللاذقية تحيط بها سفن الأسطول المصري وتحلق فوقها طائراته ليتخذ المصري مكانه بجوار السوري في خطوط الدفاع على حدود تركيا وعلى حدود إسرائيل .

أحس سامي وسط أحزانه بشيء يبرق ليضئ الطريق .. ليس أمامه فقط بل أمام الأمة العربية كلها .

الأيادي المتشابكة على حدود الوطن العربي .. والدماء المعدّة لكي تختلط على أرض معركة واحدة .. للدفاع عن وطن واحد .. قد وثقت أول رباط للوحدة بين الشعبين .

ولم يدهش سامي وقتذاك من الضجة التي أحدثتها وصول القوات المصرية .. فقد كان يعرف معناها جيدا .

وملأت نفسه الغبطة وهو يجدها تصل سالمة رغم كل ما كان يزخر به البحر من إرهاب الأساطيل والطائرات ويجدها تواجه التجربة العنيفة وترسم أول معالم الوحدة وتوقد أول مشاعلها . وكانت قد دارت من قبل مباحثات اقتصادية بين وفد مصري وبين الحكومة السورية لوضع أسس الوحدة الاقتصادية بين البلدين ، وانتهت بالاتفاق على تأليف لجنة مشتركة للدراسة المخططة العملية لتحقيق الوحدة الاقتصادية .

وأحس سامي أن المعركة تزداد احتداما ، وأن الخطوات التي تتخذ نحو الوحدة تزيدها حدة ، وأن الأيام المقبلة لا بد أن ترسم خطوطها العميقة .. وأنها ستظهر الذين يعملون فعلا من أجلها والذين يتخذونها مجرد وسيلة لغايات في أنفسهم .

ولم يكن بد من متابعة النجاح .

وكان البرلمان السوري على وشك العودة إلى الاجتماع ، ولم تكن هناك أقوى من كلمة الشعب ليقولها حاسمة من أجل تحقيق الوحدة . فوجهت الدعوة إلى مجلس الأمة المصري لإيفاد وفد من أعضائه لزيارة مجلس النواب السوري .

وبدت الوحدة وقتذاك إحساسا جارفا ، بين شعب وشعب . لم تكن قوانين تدرس ، ولا خطط تدبر ، بل كانت أقوى من كل ذلك . كانت تيارا من المشاعر يهدر ليجرف في طريقه كل عقبة ، ويهدم كل حائل . وتلقى الشعب السوري ، إخوانه المصريين ، بأذرع لهنى ، وكأنه يضم الشعب المصرى كله .

وقد شهد مطار « المزة » لأول مرة في تاريخ الشعوب ، شعبا يعانق شعبا ، وأمة تحتضن أمة .

وفي قاعة مجلس النواب . جلس « سامى » يستمع إلى البيان المشترك . جلس ينصت إليه ، شارد الذهن غارب البال . كان يشعر أن حلما من أحلامه يتحقق ، وأن انتصارا ضخما طبوله تتعالى وينوده تحفق .

ومع دقائق الطبول التى كانت تتعالى من حوله ، مؤذنة بقرب ميلاد جديد ، كانت الأجراس الحزينة تنن فى باطنه .. مريرة موجعة .. من جرح لا ييل ، وقرح لا يشفى .

وعاد السؤال يلح على ذهنه مع الذكرى الموجعة .
لماذا فعلت به كل هذا ؟

كانت تحبه دائما ، وكانت تخشى عليه ، وتكره إيلامه .
كيف هان عليها أن توجه إلى قلبه الطعنة القاتلة .
أمعقول أن تفعل به هذا ، وهى ما زالت تحبه !

أم أن حبها قد ذرته الرياح !
ولكن أيمكن للحب أن يتبدد هكذا مرة واحدة ؟
ولماذا لم يحدث هذا معه ؟

لماذا لم يستطع نسيانها !؟

لماذا يظل ذهنه هكذا معلقا بها ، يرفض أن يبعد عنها ، عن حسناتها

وسيفاتها ، وحبها وهجرها .

لماذا يأبى أن ينكأ القرع في كل لحظة ويدمى الجرح في كل آونة ؟
لأنه ما زال يحبها !؟

لا جدال في ذلك مهما حاول الإنكار .

ولو أنه انتهى من حبها ، لانتهى أيضا من كرهها ، ومن متاعبها ، ومن آلامها .

متى ينعم الله عليه بالنسيان ؟

متى يمن الله عليه بالجمود والتبلد ؟

متى يستطيع أن يذكرها دون أن تثور في نفسه الشجون ، وتتحرك الآلام ؟
لماذا لا يفعل الزمن شيئا ؟

لماذا لم تساعده كل هذه الأحداث الضخمة التي مر بها ؟

لماذا تصر على أن تبقى حية ، بارزة في كل أحاسيسه ، ومشاعره ،
وأفكاره .

لماذا لا تهت ؟! لماذا لا تخبو !!

أتستحق هي منه كل هذه الوجيعة ، بعد أن فعلت ما فعلت .

كيف يعجز عن سلواها !

وكيف يستعصى عليه العزاء في كل من حوله وما حوله ؟

لماذا يستعصى عليه .. أن يجد لها بديلا .

بديل !؟

كيف ! وكل نظرة من حوله ، أو همسة ، تعيدها إلى ذهنه .

كيف ! والمقارنة بينها وبين الغير ، لا يكف عنها ذهنه وقلبه .

كيف !؟

وهو لا يستطيع أن يشعر إلا بأنها الأصل ، وغيرها صورة باهتة زائفة .

وبعد كل هذا لا يجد هناك أبعد منها عنه في هذه الحياة .

يجدها كشيء ميثوس من لقاءه .. ميثوس من الحصول عليه .. لا أمل حلوا
ينتظر ، ولا ذكرى طيبة تعود .

ولا يملك إلا أن يسير في طريقه الموحش يائسا .. موجعا ، دون أن يحاول أن
يجد لنفسه .. ملجأ ، أو ملاذا ، أو مستقرا .

مثل من ؟! أمثل هذه السهولة يغير الحب مستقره ؟

ألم تفعل هي ؟!

ولكن أيستطيع هو ؟! وأين ؟

وتقف « فائزة » أمامه في مكتبه ، ترمقه في حنان وأسى ، وقد أغرق في
شروده الحزين ، وهي تكاد تهتف به : ها أنذا .

ولكنه لا يكاد يبصرها .

إنه لا يبصر إلا ما أوجعه وأضناه .

ويتمنى لو استطاع أن يجد صدرا يريحه ، ولكنه لا يحس بالراحة ، إلا لصدر
هاجر ، ناء .

وتمد « فائزة » يدها إليه بالمظروف .. الذي ضم الرسالة فيلمح عليه خطا ..
يصيبه برجفة .

أخيرا ذكرته .. وهي التي لم تنسها ذاكرته لحظة واحدة .

وأمسك بالأوراق .. كما تمسك الأم بوحيدها العائد .. في لهفة وحرص ،
وشك في حقيقة عودته .

وأخذ يقرأ ..

أخذ يستمع منها إلى ما سمته في رسالتها هذيان محموم .

أخذ يستمع إلى مناجاتها تروى له قصتها معه .

كيف رأته ؟ وكيف أحبته ؟

وانطلق به الذهن .. يردد المناجاة ويذكر قصته معها .
كيف رأها؟! وكيف أحبها! واسترسل ذهنه في الذكرى حتى لا يجعل
مناجاتها من طرف واحد .
أو كما سمتها هي .. هذيان محموم .
ثم عاد .. ليستقر بين السطور مرة أخرى .. ليستمع إلى مناجاتها الهامسة
الجزينة .. لتكمل حديثها أو هذيانها .

محاولة تضحية

عاد « سامى » ليستقر بصره على السطور اللفهى والكلمات الذائبة .. التى
خطتها « هدى » فى رسالتها .. عاد ليرهف السمع إلى مناجاتها الرقيقة الحنون ..
بعد شروء استرجع به فى ذهنه كل ما استرجعته فى رسالتها ، واستعاد الذكرى
التى حاولت أن تستعيدها بكل ما فيها من حلاوة ومرارة .. ومتعة وألم .
عاد « سامى » إلى الأوراق .. لينصت إلى ما رددته من هذيان محموم .. إلى
الصوت اليائس الذى يرجع الذكرى لينفس بها عن كربته ويفرج همه .. عاد
ليستمع إلى الهمسات الحزينة التى تتشبث بالحب وتلهف على العزاء .
عاد ليستمع مع الأوراق إلى أحب الأصوات يهتف به عبر البحار قائلا :
« وبعد .. يا أعز الناس .. ما كل هذا الذى كتبت ؟
ماذا استطعت أن أكتب إليك من جديد لا تعرفه .. وأنت — كما قلت لك —
تعرف كل حركة فى حياتى وكل سكنة .
دعنى يا حبيبى ألتقط أنفاسى .. وأغمض عينى ، وأرخى جسدى ..
وأوهم نفسى بأنى عدت لأستقر بين ذراعيك لحظة .
لحظة واحدة .. أسترخى فيها بين أحضانك .. ثم أعاود الحديث .
لحظة واحدة .. أنعم فيها بقربك .. حتى لو أشحت عنى بوجهك ..
وجرمتى ابتسامتك .
دعنى ألبأ إلى أحضانك .. علنى أنسى وحدتى ، وعلنى أسكت دقات محرك
الباخرة التى تتواتر على أذنى فى رتابة مخيفة .. لتذكرنى فى كل دقة بأنها تمثلنى
بعيدا عنك .. وأن كل أمل فى قربك يضيع .. دقة بعد دقة .

احتملنى يا حبيبى حتى النهاية .. احتمل هذيانى حتى أقول لك كل شىء ..
احتملنى ولا تضجر .. فلم يبق من حديثى إلا القليل .
بقى القليل الذى قد لا تعرفه .
والذى قد يكون به بعض ما ينصفنى معك .. ويمنحنى غفرانك .. ويعيد
ثقتك لى ، وحبك لى .

وكما قلت لك .. بكل شىء يمكن احتماله فى هذه الحياة .. إلا فقد حبك .
البعد .. والحاجة .. والتشرد .. والحزن .. وكل ما بالحياة من ألوان الشقاء ..
يمكن احتمالها .. ما دمت أشعر بأنك ما زلت تحببى .. وبأن موقعى فى نفسك
لم يمس .

ويعلم الله .. هلبقى لى بصيص أمل فى إنصافك وثقتك وحبك .. أم قد
عفى على حبنا البعد ، وضعته الوسوس والظنون .. وأضحى هباء تذرؤه ريح
الفرقة والنسيان ؟!

ولكن لماذا أثقل عليك بكل هذا ؟!

لماذا لا أتم حديثى .. ولم يبق منه .. إلا القليل ؟!

لست أدرى .. هل تعرف أن « فائزة » قد زارتنى لتتبعنى أن علاقتى معك
تنال من سمعتك وتزلزل مستقبلك .. ولتقوم بدورها فى خلاصك منى .
تركتنى ، وعواء النذير يدوى فى أذنى .. وريح خطرة تصفر من حولى ..
وأجراس مفزعة تدق كيانى .. وشهب حمر ترصد فى طريقي .
ولم تكن وحدها التى تدق الأجراس .

كانت فى ذراعى ، آثار معركة استعدت بها الشريط حين حاول « رياض »
أن يسرقه .. وقد عرفت أى خطر يمكن أن يأتىك من ناحيتى ، وأى استغلال
سبب يمكن أن يستغله خصومك لعلاقتى بك .

تجسد لى ما خلته من قبل أوهاما .. وأيقنت أن صديقك سليم كان يعرف
الطريق الخطرة حين حذرنى ونحن عائدون من بيروت

(جفت الدموع — ج ٢)

وتنبت لأرى نفسى .. بقعة سوداء فى حياتك الناصعة ، ومعول هدم يهدد
بناء مستقبلك الشاىخ الأشم .

وبدا لى وقتذاك .. أن أقوم بدور كريم .. نبيل .. وخیل إلى .. وسط
أحزان فرقتك وأنت غائب .. أنه قد بات على أن أستشهد فى حى .. وأن أقدم
نفسى قربانا على مذبح التضحية .

ولا أنكر أنى بكيت ، وأنا جالسة وحدى .. أستعيد لنفسى رسالة الفراق
التي سأخطها إليك ، وأتصور نفسى وقد اختفيت عنك .. وقطعت عليك كل
سبيل إلى لقائى .

وبكيت ثانية .. وأنا أتصور جزعك وآلامك .

ولكنى رحت فى وحدتى .. أستعذب آلام الاستشهاد الموهوم .. وأصوّر
لنفسى ماذا يمكن أن أحققه لك من خير بالتضحية والاستشهاد .
وحاولت أن أمهد له .. بالعودة إلى حياتى الأولى .

حاولت أن أنغمر فى أضواء المسرح وأنهمك فى العمل وأحيط نفسى بثلة
الأصدقاء القدامى .

ولم يشق الأمر على فى غيبتك .

بل بدا طبيعيا .. فقد كان على أن أفعل شيئا أشغل به فراغى العريض ، ولم
يكن لدى من ميعاد أحرص على التقيد به .. بل كنت أحس فى غيابك
بالضياع .. لا أنتظر من يومى شيئا ، ولا أمل فى شيء .

وأقبل على « شكرى » .. يطرق بابى من جديد .

وأحسست أنى فى حاجة إلى متكأ أستند إليه ، وأنا أو شك أن أنزع نفسى من
الطود الشاىخ الذى تعلقت به ، واستقررت عليه .

فى حاجة إلى من يتلفنى قبل أن أهوى من صخرة حى التي اعتليتها ، ونأيت
فيها عن كل ما حولى .. ونعمت فيها بقرى منك .

فى حاجة إلى حقنة مخدر .. قبل أن أقوم بعملية البتر التي أهم بالإقدام عليها .

ومرت بي الأيام قبل عودتك ، وأنا أمهد لعملية الاستشهاد .. التى أوشك أن أقوم بها .. كنت خلالها أروح وأغدو ، وأنا فى شبه غيبوبة .. أسهر وأشرب وأغنى ، وأندمج بين الأصدقاء ، وكأنى أدرب نفسى على حياة العذاب التى أوشك أن أحيها .

وأديت الدور كاملاً .. دور المساق إلى سيف الجلابد بقدم ثابتة ورأس مرفوع ، وابتسامة على الشفتين .

ولا أكتمك أنى كدت أخدع نفسى ، وكدت أتوهم فيها قدرة حقيقية على هذه الأشياء التى تسمع عنها فى القصص التضحية ، والاستشهاد ، والنبل .. إلخ .

حتى دق جرس التليفون .

وسمعت صوتك .

وأحسست بشيء يذوب فى باطنى .

ونسيت كل شيء .. إلا شوقى إليك ولهفتى عليك .

دكت حصون المقاومة التى شيدتها خلال غيبتك فى غمضة عين .. تداعى كأنها قلاع الثلوج .. سطعت عليها شمس الاستواء ، ووجدت نفسى أقف وحيدة فى الفضاء .. ممدودة الذراعين .. مسبلة العينين ، وصوت يضحج بين الحنايا .. هاتفاً بك : « ضمنى إليك .. شدنى إلى صدرك » .

والاستشهاد؟! عليه العفاء .

والتضحية؟! والنبل؟! والكرم؟! والواجب؟!!

ما عدت أذكرها ، ولا عاد لى بها شأن .

نسيت فى لمح البصر كل ما رسمت من خطط ، ودبرت من مشروعات ، ولم

أعد أذكر .. إلا أنك حبيبى .

حبيبى فقط؟!!

حبيبى وحياتى ، وكل شيء فى دنياى .

وهتفت بك في سماعة التليفون .. « تعال » .. بلا مناقشة ، ولا استفسار .
هتفت بها ببساطة ويسر . لأني لم أجد على لساني سواها .. لم يكن هناك مبرر
للتفكير .. فقد كنت عندئذ واضحة لنفسى تمام الوضوح .
كنت لا أرى شيئا سواك .

أريدك .. ببساطة .. وبلا تفكير .. ولا صراع .
لقد طغى وجودك .. يا حبيبي .. على كل شيء .
حتى على خوفى عليك ، وحرصى على مستقبلك .
بدد ما ادعيتة في نفسى من نبل .. واستعداد للتضحية والاستشهاد .
لقد انكملت كل هذه النوايا الطيبة والرغبات الخيرة .. أمام رغبتى فيك ،
ولهفتى عليك .

ولم أستطع إلا أن أقول لك ببساطة « تعال » .
وأتيت .
أتيت إليّ بعد طول غيبة ، وفرط شوق .. وشدة لطفة .
وكنت أنت نفسك هذه المرة .. نافخ صفارات الإنذار ، قارع نواقيس
الخطر .

كنت حزينا منهكا مجهدا .
لم أجد اليأس والأسى فى وجهك كما وجدته حينذاك .
وأنت تعرف مدى إحساسى بك .. بأساك ، وضيقك ، ومتاعبك .
وكرهت نفسى .. وكرهت حبى .. وأنا أسمع منك كل ما سببته لك من
مشكلات ، وما أحطت بك به من متاعب .

وبدت لى فرحتى بلفائك ، واندفاعى إلى أحضانك ، وتشبثى بجمك ..
كأن صحوة الموت .. تحاول التشبث بالحياة الذاهبة .
وعاد الطريق المعتم حيث كنت أسير إلى جلادى .. عاد ليبدو أشد وحشة
وإفراعا .

وجاءت الأفكار المتتامة اليائسة تتواتر على ذهني .
وألقى اليأس ظلالاً قائمة على كل شيء في حياتي .. حتى حبي لك .
وعزّت عليّ نفسي وأنا ألث ورائك .. أمنحك حبي .. وحياتي .. فأحملك
بهما وزرا .. وأهيم كالشريدة الضائعة .. بلا أمل منك في مستقر ، أو طمأنينة .
وبدأت أذكر وحدتي في الليالي الطويلة .. عندما تتسلل من جوارى
وتتركني وحيدة .. أحضن الوسادة .. أذكر قلقي المستمر .. وإحساسي
الدائم بأني أختلس .. وأنى أوشك أن أضبط .. وبأن يدا لا تبرح أن تنتزعك
منى ، وتبعدك عن طريقي .. وتؤكد أنك لست لى .. وأنك حلم تبيده
اليقظة .. وهم تضييعه الحقائق .

وعاد صوت « أم حبيب » يتردد في أذني .. كأنه صوت التنذير :
« ضعي بنفسك النهاية .. تجعلى من أيامك الخالية ذكرى جميلة .. تعاودك
كالنسمة العطرة في خريف عمرك .. كوني حازمة واطوى صفحة حبك قبل أن
تلفها الأيدي العابثة » .

وفي موجة اليأس الغامرة التي طوت كل بوارق الأمل من حولي .. وجدنتني
أفتح شفتي لأهمس بما يشبه أنات المحتضر .. قائلة .. إننا يجب أن نفكر بشيء من
العقل .. وإن ما بيننا لا يمكن أن يستمر .. ثم ذكرت .. أن هناك إنسانا تقدم
للزواج منى .

وحتى هذه اللحظة .
حتى عندما قلت لك إنه من غير المعقول أن يستمر ما بيننا ، وإن إنسانا تقدم
للزواج منى ..

لم أكن أحسست أن ما بيننا يمكن أن ينتهي فعلا .
رغم كل هذه الوسوس والموم والأسى واليأس .. ورغم كل ما خطر ببالى
من متاعب حبنا ، وضرورة إنهائه .
رغم كل هذا .. ورغم نواياي .. وخططي في إنهائه ، لم أشعر أبدا أنى

سأنيبه .

كنت أشبه بالصبي الذي يهدد بالانتحار ، مقنعا نفسه أن هذا هو سبيله الوحيد إلى الخلاص .. ومقنعا من حوله أنه لا بد أن يضع حداً لحياته ، ويسير حتى حافة البحر .. ولكنه يعلم في قرارة نفسه .. أن ثمة يداً ستمتد لمنعه وتوقف انتحاره .

وبهذا الإحساس .. جرؤت علي أن أنبئك بأني عزمت على أن أضع لحبنا نهاية .

وانتظرت أن تمتد يدك .. لتوقف هذا الانتحار الذي أوشك أن أسير إليه .
ولكنك تركتني أسير .
وبكيت .

بكيت حبي .. وحياتي .. وأنا أجدك تسلم بالنهاية في صمت وهدوء .
وبيقية من حسن ظن .. وبذباله أمل .. وبيقيني من أن موضعي في مكاني سيبقى دائما بين ذراعيك .. أحسست أنك ستضمنني إليك ، وتمسح دمعي بشفتيك .. وتتحسس رأسي .. وتشدني إلى صدرك .

وتهدأ العاصفة ، وتنقشع السحب ، وتشرق بسمتك .
ويعود كل شيء إلى مكان عليه .
حتى هذه اللحظة .

حتى بعد أن انهرت باكية .. كان ثمة بصيص من أمل .. ما زال وهجه يكمن في نفسي .

ولكنك تركتني أبكي .
لأول مرة في حبنا .

وزادت في نفسي المرارة . وأنا أجد قلبك قد قيسا علي .. ورحت أستجدي ضمتك .. لعلها تنقذني من هلاك محتوم .

وضممتني إليك .. وبعد لحظات أنبأتني أنك ستتركني إلى غير عودة .

كان كل ما دبّرته من خطط ، وكل ما فهِت به من أقوال يسعى لي إلى هذا
الوداع الأليم .

إلا أني أحسست مرة أخرى بلطمة قاسية .

عجبا لي !!

لماذا أفزع كل هذا الفزع .. أفزع من نتائج كنت أسير إليها وأسعى إلى
دركها .

لماذا كنت كالطفل يقذف الآنية على الأرض .. ثم يغمض عينيه فزعا .. حين
يسمع صوت ارتطامها .

ولكن ! أحقا كنت أتوقعها !؟

أم حملت حبك لي فوق طاقته !؟

أكنت أنا حمقاء !؟

أم كنت أنت القاسي !؟

لا عتاب .. ولا لوم .. ولا حساب .

فما كتبت إليك لأعتب عليك ، أو أحاسبك .. وإنما لأستجدي معونتك ،
وأتلّمس إنصافك .

وحاشا أن أتهمك بالقسوة .

أنت حبيبي .

وأكون ظالمة إن لم أتمس لك عذرا فيما كنت عليه من إجهاد ويأس وأسى .

أكون كاذبة لو اهتمتك بالقسوة ، وأنت خير الناس .. وأطيبهم قلبا ،

وأرقهم جانبا .

أكون جاحدة لو أنكرت حبك لي وخوفك عليّ .

فقد عدت إليّ .

عدت !؟

عجيب هذا القدر !!

يعن في السخرية منا .. يأتينا من حيث لا نتوقع .. ويجعل من أعذب ما نرصد .. أمر ما نذوق ، ومن أجمل أمانينا ، أقدس صدماتنا .
أتدري كم تمنيت أن تعود طوال الأسبوع الذى هجرتنى فيه ؟
فلما عدت تمنيت أن أموت قبل أن أواجهك .
تمنيت أن أسقط فاقدة الوعي .. حتى لا أواجه نظراتك اللائمة العاتبة ..
اليائسة .

ومع ذلك لم أكن أملك إلا أن أفعل ما فعلت .. وأن أنتهى إلى ما انتهيت إليه !!
أتعرف كيف تركتني أول مرة ؟
أتعرف كيف مرت بى أيام هجرتك قبل عودتك الساخرة المشثومة ؟
حقيقة إننى قد دبرت خططى طوال مدة غيابك فى القاهرة ، على أساس
الاستشهاد والتضحية والنبل و .. و ..
وحقيقة أنى تخيلت فى أوهامى .. كيف يمكن أن يحدث .
ولكنى لم أتوقع قط أن يحدث حقيقة .
لم أظنه يمثل هذه المرارة والعذاب .
أن أفقدك هكذا فجأة .. وبلا أمل فى عودة .
أمر غير معقول .

كنت أتوقع على الأقل .. أن يكون الأمر بالتدرج .. وأن نظل نلتقى .. ثم
نقلل من مواعيد لقائنا .. شيئا فشيئا حتى نتعود البعد .
ولكنك أصررت أن ينتهى كل شىء مرة واحدة .
وذهبت وتركتنى .. كمن بترت ساقه .. أو على وجه أدق بتر قلبه إن صح
التعبير .. بلا مخدر .. وبلا رباط أو غيار .
ولم أك أملك غير أنين جريح مجنون .
أجل يا حبيبى .. كان الجنون يتلمس طريقه إلى جوارحى .
أنت تعرف هذه الآلام .. فلا شك أنك قد قاسيت مثلها فقد كانت

مشاعري دائما هي مشاعرك .. ولكنك كنت دائما أكثر جلدا وأشد صبرا .
تخيل ما قد تكون قاسيت من آلام .. وقد حاقت بي .. دون أن أملك
جلدك ، وصبرك !
ولم أعرف ماذا أفعل .

لقد قلت لك إن هناك إنسانا تقدم للزواج مني .
وكان شكرى قد سألتني الزواج فعلا .
وأقبل عليّ في محنتي .. يلح في طلبه .
وحاولت أن أجد عنده سندا .. أتعلق به وأنا أسقط من حلق حبك نحو هذا
المهوى السحيق .

حاولت أن أجد فيه المسكن لعملية بتر بلا مخدر ولا ضماد .
ومرت أيام .. وجرح القلب يدمى .. دون أن يفيد فيه مسكن .. وقرح
الفؤاد ينكأ دون أن يفيد فيه ضماد .

وانطلقت كالجنونة .. أشرب وأغنى وأرقص وأسهر .. وأحاول أن أهرب
منك .. من إلحاحك على مشاعري .. واحتلاك لذهني .
أحاول أن أفلت من قبضة سيطرتك ، وقيد سلطانك .
وظللت أعدو وأعدو .. لا أستقر ولا أنام .. لأراك برغمي في كل شبح
يطوف بي ، وأسمعك في كل صوت يهمس في أذني .

ولم أعرف ما آخرة كل هذا الذي أفعله ؟

أحقيقة أنوى الزواج من شكرى ؟

أيمكن أن أجد في شيء من هذه الدنيا .. عزاء عنك وبديلا منك ؟
وخيل إليّ وأنا أجيء نفسي باليأس المطلق .. أن أجرى عائدة إليك لأرتقى
بين أحضانك وأهتف بك : لن أتركك أبدا .

ولكني كنت أعوذ لنفسي فأسألها : أمجل هذا مشكلتنا ؟

أينهي المسألة مجرد عودتي إليك وارتمائي بين أحضانك ؟
(حمت الدموع)

وبعد ؟

نعود السيرة الأولى ؟

تأتيتك من ناحيتي الهموم ، والمتاعب ، والمشكلات ، والشائعات ،
والأقاويل ، وأعيد إليك البقعة السوداء التي حاولت أن أزيلها من صفحتك
النقية .

وأنا !؟ أعود مرة أخرى إلى الخوف من أن أفقدك .. والقلق على ضياعك .

أعود إلى الأعصاب المشدودة في غيبتك ، واللهفة الدائمة عليك .

أعود إلى التستر والخوف .. والحياة بلا أمل في أكثر من حياة التستر

والخوف .

ومع ذلك ..

ومع كل ما كنت أدركه من حقائق مريرة تكتنف حياتنا معا .. أحسست أن

صبري على فقدك قد نفذ .. واحتمالي لبعذك قد وصل إلى أقصاه ، وبلغ في عذاب

فرقتك حدا .. جعلني أسلم بكل شيء في سبيل استعادتك .

وكنت قد حاولت أن أبتعد عن كل ما يذكرني بك .. كنت لا أعود إلى البيت

إلا لأرتمي في الفراش .. وكنت أحاول أن أحيط نفسي دائما .. بضجيج يشنت

فكري .

حتى عصف بي الحنين .. وقبعت في الدار .. وامتدت يدي إلى التسجيل ..

وأخذت أستمع إليه .

وأفقدني صوتك .. بقية الصبر الذي تمسكت به .

وامتدت يدي إلى السماع .. أطلبك .

وقبل أن أرفعها دق جرس الباب ونهضت لأرى الطارق .

أغفر لك !!

قلب « سامى » صفحات الرسالة وعاود القراءة :
 « فتحت الباب فإذا بشكرى يقف أمامى .
 أقبل بلا تكلف .. وهو يحس من طريقة حياتى .. ومن معاملتى له ،
 وملازمته لى .. أنه أضحى قريبا منى وأنه بات مشروع زوج .
 وجلس فى حجرتنا .. على مقعدك ، ومد ساقيه كما تعودت أن تفعل .
 وزاد بى الحنين إليك ، وأغمضت عينى ، وتمنيت لو أفتحهما لأجد معجزة
 قد حدثت ، وأجدك مكانه .
 وتحققت المعجزة .
 وبدل أن أراك .. سمعت صوتك .
 وخلتني واهمة أول الأمر .. حتى أبصرتك بالباب .
 حسن .
 أظنك تعرف تفاصيل المنبهات القاتلة التى مرت بى بعد ذلك .
 لست أدرى ماذا أقول فى وصفها .. أكثر من أنى تمنيت أن أدفع عمرى ثمنا
 لاجتنابها .
 ولكن عمرى كان أرخص عند القدر من سحب هذه اللحظات .. فكان
 على أن أحتملها .
 وأحتمل بعدها .. نظراتك اليائسة اللائمة .. الحزينة .
 وأحتمل .. أسوأ فراق .. وأنا أحاول الانزواء عن طريقك .
 أنت .. يا أعز الناس .

وكان آخر ما سمعت منك ، هو رجاء بأن أتزوج « شكرى » ، حتى أضع
لحبنا خاتمة أكرم .

أجل .. حاولت من بعد أن أسمع نصيحتك ، وألبى رجاءك الأخير ، وأن
أتزوج منه .. لكى أضع لحبنا الخاتمة الكريمة التى ترضاها .
ولكنى .. أخفقت .

أترانى فى حاجة إلى الاعتذار عن هذا الإخفاق ؟

أترانى فى حاجة إلى تبريره !؟

لا أظن .

بل أغلب ظنى أنك فى قرارة نفسك توقن بأن مثل هذا الزواج أمر محال ..
محال أن أشد نفسى إلى مخلوق « كشكرى » فى حياة واحدة إلى الأبد .

لا أريد أن أجرحه .. فقد كان دائما ، مخلوقا طيبا ، وكان دائما عطوفا
نحوى .

ولكن ذلك لم يكن أبدا ، ليبرر احتمالى له مدى الحياة . وحتى ولو من أجل
خاتمتك الكريمة التى أردتها لحبنا . تركته .. لأنى أيقنت من استحالة ارتباطى به
كزوج .. فقد كنا نختلف فى كل شىء ، وكان من العبث أن أوهم نفسى بحياة
راضية قريرة .. معه .. أو مع غيره ، بعد أن عرف القلب حبك ووضع لمن
أحب مقياسا .. يظلم كل من ألقى بعدك ، إذا ما حاولت المقارنة .

تركته .. لا من أجل أن أعود لك .. فقد أحرق اللقاء الأخير كل مراكبى ..
وأضحت العودة إليك مستحيلة .

ولم أعد أطمع منك فى لقاء .

وإنما عدت أطمع فى صفح ومغفرة .

عدت أطمع فى أن تنصفنى ، وأن تحببى كما أحببتنى دائما .

عدت أطمع فى الذكرى الجميلة ، التى تمنيت أن تكون دائما ، خاتمة حبتنا .
هل تذكر جلستك وراء النافذة وأوراق الشجرة ومياه النهر وأضواء

الجبل !؟

هل تذكر ما قلنا وقد أحسست ذات مرة .. أن هذه المرثيات الجميلة ..
ستصبح ذكري يوما ما !؟

كم يعذبني .. أن أشوّه لك هذه الذكريات !! كم يقض مضجعي وينغص
عيشي أن أجدني قد بت مخلوقة بغيضة كريهة عندما أطوف بذهنك .
وهمت ذات مرة أن أحدثك ، وأن ألقاك .. لأشرح لك حقيقتي ..
لأنصف نفسي معك ، وأؤكد لك ، أني حبيبتك دائما ، وأن حبي لك لن يهتز
أبدا .

همت بأن ألقاك ، ولكنني لم أجسر .. خشيت عليّ وعليك .. خشيت
عليّ من ظلمك ، وخشيت عليك من حبي .

وأخيرا .. عزمت على الرحيل .

وإذا كنت قد وجدت لقائي بك مستحيلا .. فقد وجدت قرينى منك أشد
استحالة .

وسنحت الفرصة في دعوة وجهها إليّ « خالى » من المهجر . بعد أن ذهبت
أمى إليه .. لتقيم عنده .

ووجدت في المهجر خير مفر .. من العذاب الذى أعيش فيه .

وتمنيت أن أودعك .. وداعا غير هذا الوداع القاسى الذى تركتني به .

ولم أعرف كيف .

حتى طلبتلك فى الهاتف ، ورفعت السماعة ، وسمعت صوتك .. ثم
وضعتها .

وبكيت .

هذا كل ما استطعت أن أودعك به ، وداع من جانب واحد ، ولكنه خير من

لا شىء .

ورحلت .

حملتنى الباخرة .. إلى حيث أسترخ من عناء اللهفة عليك ، والشوق إلى نقائك .

وأخذ الشاطيء يتباعد ، ودور بيروت تتضاءل ، وأنا أتسلل من دنياك ..
بلا أمل في عودة ، وصورتك تملأ عيني .. بنظرتك اللائمة العاتبة .

ودموعى تنساب ، ويدك بمنديل الدموع الذى تعودت أن تجفف به دمعى قد
نأى عنى وكف عن عيني .

وتلاشت أشباح المدينة ، وسقط الظلام .

وتبدد كل شيء من حولى .. حتى طيفك .

وعدت إلى حجرتى .. لأكتب إليك .

وأستجدى صفحك ، وغفرانك .

ومسة من يدك .. تجفف الدمع .. الذى لا يجف .

وأخيرا يا حبيبي .

بعد كل ما كتبت .

لا أدري إذا كنت قد أفلحت في أن أفسر لك شيئا لم تعرفه .

هل أفلحت .. في أن أنصف نفسي ، وأن أستعيد موقعى عندك ؟

أفلحت .. أم لم أفلح .

أنا أحبك .

أحبك كما أحببتك دائما .

ومهما بقى في نفسك منى ومهما كانت ذكراى .. فلا أظننى أجد في نفسى

أسمى منك موضعا .. ولا أطيّب ذكراى ، ولا أروع أثرا ، ولا أجمل صورة .

كل يوم يمر بى يؤكد أنى ما أحببت في حياتى سواك .

فاغفر لى ، ورد إليّ .. في غربتى .. بعض حبك .. لعله يؤنس وحشتى

ويجفف في عيني الدمع الذى لا يجف » .

الخاتمة

وضع « سامى » الأوراق على مكتبه .. وأزاح مقعده إلى الوراء ومد ساقيه وألقى برأسه إلى الوراء .. وبدأ عليه كأنه قد فرغ من شوط طويل مجهد ، وأخذ يحملق فى قطرات الغاز المتساقطة فى بطء ورتابة فى المدفأة المعدنية اللامعة التى شعت منها حرارة ملأت الحجرة دفئا .

وشرد ذهن « سامى » منطلقا إلى النائية وراء البحار .
وأحس بالحنين يملا نفسه .

حنين هادئ ، مرخ .. مس قلبه فأطفأ حرقتة ، وسكن لوعته .. وخفف وجيعته .

لأول مرة .. أحس بأن العويل فى باطنه قد صمت .. والإعصار فى جوفه قد سكن ، وأن الحمل الذى أتقل كاهله .. قد ألقى من عليه ، وأنه يستطيع أن يتحرك بين الناس .. ويتحدث إليهم .. كغيره من الأحياء .

كان يعرف أن كل شىء قد انتهى .. ولم تشعل الرسالة فى نفسه بارقة أمل .. فى عودة أو لقاء .. ولكنها مع ذلك دفعت فى نفسه شعورا عجيبا بالراحة والطمأنينة .. وإحساسا بأن الشىء الذى فقده .. لم يضع ، وأنه ما زال موجودا .. رغم بعد الشقة .. ونأى المزار .

وكان أشبه برجل فقد ابنه فى حرب .. ثم علم بوجوده أسيرا .. وشتان بين البعد والفقء ، والفرقة والضياع .

إحساس بالسكينة قد ملأه وهو يجد « حبه العزيز » لم يعبث به غدر ولم تدمره خيانة .. ويجد أيامه الحلوة .. لم تتلفها خديعة ولم يشوهها إثم .

وشعور بالاستقرار قد أراحه بعد طول ضياع وهو يحس أن أعز الناس عنده لم يخذله .. ولم يجيب فيه أمله .. وأنه لم يكف عن حبه لحظة .
ولم تعد تزعجه فرقة .. أو يوجعه بعد .. وأحس كأن أفق حياته قد أشرق من حديد ، وبأنه يستطيع أن يسير في طريقه في هدوء وقوة وثقة تظله أجمل ذكريات عمره .

ومرت به الأيام وهو ينطلق في كفاحه .. بلا حمل من هموم ينقض ظهره ، وبلا حرقة من يأس تكوى باطنه .

وأخذت الانتصارات في سبيل الوحدة تتوالى .. تبادل مجلس النواب السوري مع مجلس الأمة المصري الأعلام رمزا للكفاح المشترك .
وخطب رئيس مجلس الأمة المصري ، بمناسبة إهداء العلم السوري ، فأيد القرار الذي أصدره مجلس النواب السوري كخطوة في طريق الحرية والوحدة .. ودعوة للحكومتين المصرية والسورية لتحقيق الاتحاد .

ثم أذيع في دمشق أن وفدا اقتصاديا سيسافر إلى القاهرة لبحث مشروع الوحدة الاقتصادية الذي أعدته الحكومة السورية مع المسؤولين في مصر ليكون خطوة تمهيدية للوحدة الكاملة .

وقبل أن يسافر الوفد أذاع بعض المسؤولين أنه لا يمكن التعجيل بالوحدة الاقتصادية حتى لا تصاب بنكسة .

وأثار التصريح « سامي » وأنصاره وازدادت حماسهم للتعجيل بإعلان الوحدة وتحقيقها .. وإزالة كل العراقيل التي تنبئها المباحثات والمناقشات .
وأصر أنصار الوحدة .. على تحقيقها فورا .. وأيدهم الشعب كله بشعور جارف نحو أمل طالما سعى إليه وآمن به .

ودرس مجلس الوزراء مشروع الوحدة وأصدر قرارا بانتداب وزير الخارجية للسفر إلى القاهرة لمباحثة المسؤولين .

ووصل الوزير إلى القاهرة واستقبله الرئيس « جمال » وتسلم قرار المجلس-

بطلب الوحدة .. واتفق على أن تكون قاعدة الوحدة دولة واحدة ، ورئيسا واحدا ، وتشريعا واحدا ، وتمثيلا سياسيا واحدا ، وسياسة اقتصادية واحدة ، وتعليما واحدا .

وأقر مجلس الوزراء القاعدة وانتقل إلى القاهرة لإنجاز مشروعها .
وذهب « سامى » إلى القاهرة مع هيئة الحكومة السورية ليشهد حلمه الأكبر يتحقق .. واستقبلهم الرئيس « جمال » مع وزرائه في مطار القاهرة .

وعقد رجال الحكومتين في أول فبراير اجتماعا مشتركا انتهى بتوقيع رجال الدولتين على وثيقة الوحدة أكدوا فيها أن الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية هي طريق العرب إلى الحرية والسيادة وسبيل للتعاون والسلام ، وأن واجبه أن يخرجوا الوحدة من نطاق الأمانى إلى حيز التنفيذ في عزم ثابت وإصرار قوى ، وأن يفتحوا بابها لكل بلد عربى يريد أن يدفع عن العرب الأذى والسوء ، ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيائها .

وفي المساء خرج الرئيسان السوري والمصرى متعانقين ليعلنا للعالم كله مولد الجمهورية العربية المتحدة .

ومرت بضعة أيام وعاد « سامى » إلى دمشق .. تملؤه ثقة النصر .. وهو يحس أن الوحدة قد قلمت أظافر الخصوم .. وأدخلتهم الجحور .
وجلس إلى مكتبه يقلب بعض الأوراق ، ودخلت عليه « فائزة » فأدارت مفتاح الراديو وقالت باسمه :

— خطبة الرئيس « جمال » في مجلس الأمة .

وأخذ « سامى » ينصت إلى الصوت الهادئ العميق يحدد معالم المستقبل المشرق المجيد قائلا :

« في حياة الشعوب أجيال يواعدها القدر ، ويختصها دون غيرها بأن تشهد نقطة التحول الحاسمة في التاريخ .

« إنه يتيح لها أن تشهد المراحل الفاصلة في الحياة الخالدة . تلك المراحل تشبه

مهرجان الشروق ، حيث يحدث الانتقال العظيم ساعة الفجر من ظلام الليل إلى ضوء النهار .

« إن هذه الأجيال الموعودة تعيش لحظات رائعة .

« إنها تشهد لحظات انتصار عظيم لم تصنعه وحدها ، ولم تتحمل تضحياته بمفردها ، وإنما هي تشهد النتيجة المجيدة لتفاعل عوامل أخرى كثيرة واصلت حركتها في ظلام الليل ووحشته ، وعملت وسهرت ، وظلت تدفع الثواني بعد الثواني إلى الانتقال العظيم ساعة الفجر .

« لقد عشنا ساعة الفجر ورأينا انتصار النور الطالع على ظلمات الليل الطويل » .

وفي نفس الوقت كانت يد أخرى تمتد لمفتاح الراديو تديره محاولة أن تضبط المؤشر .

في مكان ناء بالمهجر .. جلست « هدى » تستجدي الجهاز صوتا عربيا .
وبين الحشرجات ، والذبذبات ، والأصوات المختلطة المتشابكة ..
استطاعت « هدى » أن تلتقط صوتا عربيا واضحا ، أوقفت عليه المؤشر ،
وأخذت تنصت إليه في لهفة وهو يقول :

« لقد أكد شعب سورية بتجارب الأيام .. تجربة بعد تجربة أنه طليعة القومية العربية ، وأنه رأس حربة في اندفاعها وأنه الحارس الأمين لثرائها المجيد .
« أيها المواطنون : لقد بزغ أفق جديد على أمل هذا الشرق .
« إن دولة جديدة تنبعث في قلبه .

« لقد قامت دولة كبرى في هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ،
ليست عادية عليه ولا مستعديّة .

« دولة تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحيز ولا تتعصب ..
لا تنحرف ولا تنحاز .. تؤكد العدل .. تدعم السلام ، توفر الرخاء لها وللمن

حولها .. للبشر جميعا بقدر ما تختمل وتطبق .
« أيها المواطنون أعضاء مجلس الشعب . وفقكم الله ، وبارك لكم
وحدثكم ، وحمى جمهوريتكم العربية المتحدة » .
وصمت الصوت .

وأحست « هدى » بذهنها يحملها بعيدا .. بعيدا .. إلى مكان حبيب إلى
قلبها .. استقر به من لا تعرف له صفة إلا « أعز الناس » .
وذكرت أمانيه وأجلامه .. وكفاحه من أجل هذا الشيء الذى تسمعه
يتحقق الآن .

وأحست برجفة تسرى فى كيانها .
أترأها قد أسهمت بسعادتها من أجل تحقيق ذلك الشيء الذى آمن به وكافح
من أجله ؟

أترى حقا .. لم تذهب تضحيتها سدى ؟
أترأه سيذكر لها ذلك .. ويغفر لها .. ويصفح عنها ؟
لماذا لم يكتب لها إذن ؟
أترأه استكثر عليها فى وحدتها وغربتها كلمة غفران ؟
لو عرف ماذا يمكن أن تفعل بها كتابته .. لما تردد فى الرد .
عجيب هذا الإنسان !

ترى مجرد كلمة تأتى إليه عبر مئات الأميال .. يتلهف عليها لربما صدعه ،
وتلم جرحه .

وأحست بشيء ساخن يسيل على خدها .
ما آخرة كل هذه الدموع ؟
لماذا تأبى أن تبغى ؟

لماذا تدرّها .. مسة ذكرى .. ولمسة حنين ؟
ليته يكتب إليها .. عله يكفكف عبراتها ويجفف دمعها .

- وفي نفس اللحظة نادى « سامى » « فائزة » لتطفىء الراديو .
وشرده به الذهن برهة .. عقب الانتهاء من سماع الخطبة .
ووقفت فائزة تنتظر أوامره .
ورفع إليها بصره قائلا وكأنه قد نوى أمرا :
— أعطيني ورقا وقلما .
— هل ستكتب الافتتاحية ؟
— سأكتب رسالة .
وعادت « فائزة » تحمل الورق والقلم .
وأمسك « سامى » بالقلم وبلا تفكير خط أول كلمة .
« يا أعز الناس ..
« أكتب إليك ومنديل الدموع فى يدي .. أكفكف ما بقى من دمعى ..
ومن دمعىك » .
واسترسل سامى فى الكتابة .
وفى الخارج جلست فائزة وقد أسندت رأسها إلى كفها .
هذا الإنسان العجيب !
لماذا لا يريد أن ينسى ؟
وهزت رأسها ثم تنهدت فى شىء من الارتياح .
لماذا تحاول هى أن تتعجل ؟ .
لقد فعل الزمن شيئا كثيرا .
وسيفعل الزمن أكثر .. وأكثر .
لماذا لا تصبر ؟
الصبر والزمن يفعلان المعجزات .
وملأها إحساس بالثقة .
وعادت تنهد فى ارتياح .. وعلت بسملة الأمل شفتيها .
(تمت)

فهرست الجزء الثانى

صفحة		صفحة	
٤٦٤	٤٢ — وجهالوجه	٣١٥	٢٨ — فى الطريق الأبيض
٤٧٢	٤٣ — ليتنى أستطيع	٣٢٥	٢٩ — أجمل ما سمعت
٤٨٣	٤٤ — شكوك حمقاء	٣٣٧	٣٠ — معركة حب
٤٩٢	٤٥ — لهفة على لقاء	٣٤٨	٣١ — استدعاء
٥٠١	٤٦ — طريق الصواب	٣٥٧	٣٢ — تحمد
٥١٠	٤٧ — مزيد من اليأس	٣٦٥	٣٣ — حرية الأحياء
٥١٦	٤٨ — عبء على كتفيه	٣٧٧	٣٤ — اندحار
٥٢٥	٤٩ — قرار	٣٩١	٣٥ — أكثر على؟!
٥٣٣	٥٠ — مقاومة وحنين	٤٠٣	٣٦ — الناس طبيون
٥٤٣	٥١ — لقاء .. وفرقة	٤١٨	٣٧ — إلا ساعة إلا موضعا
٥٥٦	٥٢ — عودة إلى الهديان	٤٢٣	٣٨ — محاولة لثأر
٥٦٨	٥٣ — محاولة تضحية	٤٣٥	٣٩ — مطاردة
٥٧٩	٥٤ — اغفر لى !!	٤٤٣	٤٠ — ليلة حافلة
٥٨٣	٥٥ — الخاتمة	٤٥١	٤١ — محاولة إنقاذ

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ٧٧٤٨ / ٨٦
الترقيم الدولي : ٧ - ٠٢٧٣ - ١١ - ٩٧٧